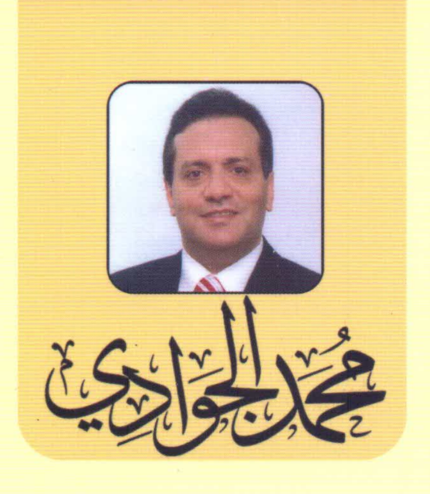
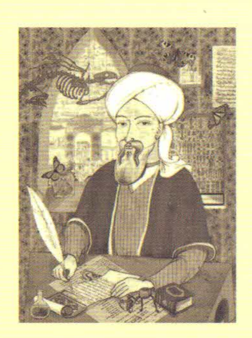


محمد الجوادي

# حوارات الدين والطب والسياسة

دار الكلمة للنشر و التوزيع



تتوالى في هذا الكتاب مجموعة من الفصول التي رواها مؤلف معتد بنفسه عن بعض الحوارات التي دارت بينه وبين أستاذه الذي كان هو الآخر أكثر اعتدادا بذاته وآرائه ، وقد دارت هذه الحوارات حول كثير من الموضوعات العابرة التي قدر لهما أن يختلفا في رؤيتها ، وأن يعبرا باختلافهما عن موقفين متباينين من الحياة والبشر والتاريخ والمستقبل، وأن يخرجا من صراع الفكر بشرارات قادرة على التنوير والإضاءة والإشعال، فضلا عما تشيعه هذه الشرارات من طاقة كفيلة بتغذية آليات الفهم والتكييف والتكيف.

ومع أن الرؤية المنحازة للمؤلف الذي سجل حواراته مع أستاذه تكاد تطغى على ما رواه، فإن الزمن الذي كتبت فيه الحوارات قد فرض على المؤلف من دون أن يدري انحيازا أعمق إلى آراء أستاذه، وما حفلت به من دلائل حكمة الزمن، وخبرة التجربة.

أريد أن أقول : إن في هذه الحوارات قليلًا من فن الحياة، وهو الفن الذي نفتقد تعليمه في جامعاتنا ومدارسنا ، ونفتقد الكتابة عنه فيما نكتب من أدب، مع أنه من أولى الأمور بمعالجتنا ، ولكننا ننشغل بما نروي وبما نصف وبما نتأمل عن أن ندرك ما ينبغي علينا أن نكتبه في هذا المجال.

والمطالع لآداب الدول المتقدمة يستطيع أن يرى فيها اهتماما حفيا بفن الحياة بكل ما في الحياة من فنون، ليس أولها الهوى ولا آخرها الطعام، ومن أجل هذا تنجح هذه المجتمعات في أن ترتقي بالحياة، وأن تجعل الحياة متعة ، وأن تجدد في هذه المتعة.

والحوار هو أحد متع الحياة، وهو أحد أسباب هذه المتعة ، وهو وسيلة من أبرز الوسائل من أجل الارتقاء بالذات، وبالآخر.






# حوارات

# الدين والطب والسياسة

الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

بطاقة الفهرسة

الجوادي ، محمد

حوارات الدين والطب والسياسة ، د . محمد الجوادي.

ط١ . المنصورة :

دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ٢٠١٥م

٢٤٠ ص ، ٢٤ سم

رقم الإيداع : ٢٢٠٨٢ / ٢٠١٤م

تدمك : ٠-٤٩٣-٣١١-٩٧٧-٩٧٨

دار الكلمة للنشر والتوزيع

دار الكلمة للنشر والتوزيع مصر - القاهرة

القاهرة . محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥
E-mail:mmaggour@hotmail.com
E-mail:daralkalema_pdp@hotmail.com
www.facebook.com/DarAlkalema

د . محمّد الجوّادي

# حوارات الدين والطب والسياسة

دار الكلمة
للنشر والتوزيع



# إهداء

إلي أخي الكريم

الدكتور محمد حسام الشاعر



# هذا الكتاب

أبدأ بأن أذكر أني انتهيت من هذا الكتاب على هذا النحو منذ أكثر من خمس سنوات ، تغيرت الدنيا فيها كثيرا جدا ، وهأنذا اليوم أقدمه للقارئ على نحو ما انتهيت منه في ذلك الحين من دون أن أحس في لحظة واحدة أن نصوص الكتاب بحاجة إلى إعادة كتابة أو صياغة أو ترتيب !!

تتوالى في هذا الكتاب مجموعة من الفصول التي رواها مؤلف معتد بنفسه عن بعض الحوارات التي دارت بينه وبين أستاذه الذي كان هو الآخر أكثر اعتدادا بذاته وآرائه، وقد دارت هذه الحوارات حول كثير من الموضوعات العابرة التي قدر لهما أن يختلفا في رؤيتها، وأن يعبرا باختلافهما عن موقفين متباينين من الحياة والبشر والتاريخ والمستقبل، وأن يخرجا من صراع الفكر بشرارات قادرة على التنوير والإضاءة والإشعال، فضلا عما تشيعه هذه الشرارات من طاقة كفيلة بتغذية آليات الفهم والتكييف والتكيف.

ومع أن الرؤية المنحازة للمؤلف الذي سجل حواراته مع أستاذه تكاد تطغى على ما رواه، فإن الزمن الذي كتبت فيه الحوارات قد فرض على المؤلف من دون أن يدري انحيازا أعمق إلى آراء أستاذه، وما حفلت به من دلائل حكمة الزمن، وخبرة التجربة.

ماذا أريد إذًا أن أقول في هذه المقدمة؟

أريد أن أقول : إن في هذه الحوارات قليلًا من فن الحياة، وهو الفن الذي نفتقد تعليمه في جامعاتنا ومدارسنا، ونفتقد الكتابة عنه فيما نكتب من أدب، مع أنه من أولى الأمور بمعالجتنا، ولكننا ننشغل بما نروي وبما نصف وبما نتأمل عن أن ندرك ما ينبغي علينا أن نكتبه في هذا المجال.

والمطالع لآداب الدول المتقدمة يستطيع أن يرى فيها اهتماما حفيا بفن الحياة بكل ما في الحياة من فنون، ليس أولها الهوى ولا آخرها الطعام، ومن أجل هذا تنجح هذه المجتمعات في أن ترتقي بالحياة، وأن تجعل الحياة متعة، وأن تجدد في هذه المتعة.

والحوار هو أحد متع الحياة، وهو أحد أسباب هذه المتعة، وهو وسيلة من أبرز الوسائل من أجل الارتقاء بالذات، وبالآخر.

ولا يقتضي الحوار اتفاقا مسبقا على الوصول إلى اتفاق في نهايته، كما لا يقتضي الحوار

إقرارا بالتنازل عن رأي لصالح رأي آخر، إنما هو أقرب إلى ما يمكن وصفه بأي حديث متبادل يدلي كل طرف فيه للآخر بحجته، قد يقنعه وقد يطلعه عليه فحسب، وقد يغير هو نفسه من رأيه بعد سماعه لوجهة النظر الأخرى، ولكنه في النهاية، غير مطالب بالالتزام بالآخر ولا بالتنازل عن رأيه.

وفي تاريخنا الإسلامي المبكر نموذج بارز للحوار، قام به رسول الله ﷺ مع نصارى نجران دون أي ارتباط باتفاق مسبق، سألوه وأجاب، وسألوه وأجاب، وسألهم وأجابوا.

ومع أن العلاقة بين أعضاء هيئات التدريس تقوم في جوهرها وفي شكلها على الحوار، إلا أن ظروفًا كثيرة جعلت هذه الغاية العلمية والتربوية أبعد ما تكون عن الأمل في الوجود لا في التنامي، فقد أصبح الحوار مع الأساتذة في الجامعات المصرية المعاصرة بمثابة نوع من الكرم يعطف به هؤلاء على بعض مَنْ يصطفون من تلاميذهم، وفي بعض الأحيان فإن بعض الأساتذة لا يطيقون حوارا مع هؤلاء التلاميذ، ولهم في هذا وجهة نظر قد تبدو محترمة، أو جديرة بالاحترام، وفي أحوال أخرى ، فإن بعضهم لا يقدم حواره إلا في صورة نوع من أنواع السخرية والازدراء بمن يحاوره من هؤلاء التلاميذ، وفي أحوال نادرة جدًا يصبح الحوار نفسه نوعا من شحذ القريحة وإشعال الفكر، للطرفين على حد سواء، ويبدو لي أنني كنت محظوظا بمثل هذا النوع الأخير من الحوار.

وهذه بعض حوارات مع أستاذي سجلتها على مدى سنوات لا لأني كنت أحس بقيمتها لنفسي، أو لغيري، وإنما لأن أستاذي نفسه هو الذي حثني على هذا التسجيل، وقد بدأت التجربة فلم أرض عنها، ثم أعدتها فلم أرض كذلك، وظللت أعاود البحث عن الأسلوب الذي ينبغي أن تكتب به والقالب الذي ينبغي أن تظهر فيه حتى وصلت إلى هذه الصيغة التي يراها القارئ في هذا الكتاب، ولست أنكر أنني في بداية التجربة كنت أتردد، وكنت أتهيب، وكنت أشك في جدوى ما أفعل، لكنني مع مضي التجربة خطوات بدأت أدرك قيمة مثل هذا العمل، وأرى ما احتوته المحاورات وما دارت حوله شيئا جديرا بالتسجيل وجديرا بالحفاظ عليه من الضياع.

ولست أنكر أن بعض ما دفعني إلى هذا التسجيل ما كنت أسمعه وأطالعه من ندم رواد الفكر المصري المعاصر على أنهم لم يسجلوا حواراتهم مع أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد، ومن ندم أقطاب الصحافة على أنهم لم يسجلوا جلساتهم مع الشاعر كامل

الشناوي، وهناك أمثلة أخرى كثيرة.

لا أنكر أيضا أني بتسجيلي هذه الحوارات كنت أؤكد لنفسي قبل الآخرين على جوهر الدروس التي تعلمتها، والخبرات التي أدركتها، ووجهات النظر التي اكتسبتها، والآراء التي كونتها لنفسي وللناس.

وربما كان من المفيد أن أشير إلى أننا نتلقى جوهر العلم الطبي وجوهر الفن الطبي مشافهة، ونتلقى معه من أساتذتنا نظرات حكيمة صاغتها التجربة في الحياة وبين الناس، وقد قدر لي أن أتلقى العلم على أساتذة كثيرين، وأن أسجل حواراتي مع بعضهم، وقد وجدت أن أبدأ بنشر هذا الكتاب مستعرضًا فيه بعض حواراتي مع أستاذي المباشر أستاذ القلب، وقد كان من حسن حظي أني وجدت من حواره المسجل عندي ما يكفي لتقديم صورة شبه كاملة لتاريخه العقلي والفكري، بل لتاريخ المدرسة الفكرية التي انتمى إليها أساتذة الجامعة المصرية طيلة عهد الثورة.

وقد وجدت الحوارات التي سجلتها في حاجة إلى استكمال بالحوارات الأخرى التي لم أسجلها في حينها، فاستكملت الجوانب التي كان لابد من استكمالها، وهكذا تمكنت من أن أقدم من خلال هذه الحوارات صورة شبه كاملة للحوار الذي اتصل لأكثر من خمسة وعشرين عامًا مع هذا الأستاذ.

وعلى هذا النحو الذي استطردت إليه فيما رويت من حوارات (بكل الدقة حرفًا حرفًا وبلا مبالغة) كانت الحوارات بيني وبين أستاذي تجري بالساعات، في عيادته وفي بيته وفي أثناء سفرنا بالسيارة، وفي مكتبه حين شغل منصب وكيل الكلية، وفي أي حفل ندعى إليه ونجلس متجاورين، أو في أي عزاء نقوم به.. أما في المستشفي الجامعي فقد كانت الفرصة ضيقة لمثل هذا الحوار المستطرد، وقد كانت بعض تعليقاته السريعة كاشفة عن بعض ملامح شخصيته.

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يديم عليّ نعمة الحوار، وألا يحرمني منها، وأن يحفظ عليّ سمعي وبصري وعقلي وذاكرتي، وأن يجعل كل ذلك الوارث مني، وأن ينعم عليّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وشك الأطباء، وتساؤلات الباحثين.

وكلي أمل أن يخرج قارئ هذه الحوارات ببعض الفائدة بعد قراءتها، وأن يشعر ببعض

اللذة في أثناء قراءتها، وأن يستذكر منها بعض ما فيها حين يرنو عقله إلى الاستئناس ببعض ما فيها.

وإني أدعو الله سبحانه وتعالى أن أكون قد أديت بهذا الذي كتبت بعض واجبي تجاه أبناء وطني، وأن يجد بعضهم بعض الفائدة فيما يقرؤون، وأن يجد البعض الآخر بعض المتعة فيما يطالعون، وأن نعيش حتى نرى في وطننا كثيرا مما يستحق الفخر والإعجاب والتقليد.

وكلي أمل أيضا أن يسهم هذا الكتاب أيضا في تنمية وعينا بمشكاتنا وحاضرنا واقتصادنا وتنميتنا وهياكلنا وعيوبنا و أخطائنا وآمالنا وأحلامنا وتطلعاتنا،والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه، وإن كنت أعلم عن نفسي أنى لا أخلو من الرياء في كل ما أفعل.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهديني سواء السبيل، وأن يرزقني العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن ينعم علىّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وشك الأطباء، وتساؤلات الباحثين.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعني بسمعي وبصري وقوتي ما حييت، وأن يحفظ علىّ عقلي وذاكرتي، وأن يجعل كل ذلك الوارث منى ،والله سبحانه وتعالى أسأل أن يذهب عنى ما أشكو من ألم وتعب وصب وقلق، وأن يهبني الشفاء والصحة والعافية، وأن يقيلني من مرضي، وأن يعفو عني، وأن يغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر. وأن يحسن ختامي ، وأن يجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاه .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعينني على نفسي وأن يكفيني شرها، وشر الناس، وأن يوفقني لأن أتم ما بدأت، وأن ينفعني بما علمني، وأن يعلمني ما ينفعني ، وأن يمكنني من القيام بحق شكره وحمده وعبادته فهو وحده الذي منحنى العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول وهو جلّ جلاله الذي هداني، ووفقني، وأكرمني، ونعّمني، وحبب فيّ خلقَه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتي وهى ـ بالطبع وبالتأكيد ـ كثيرة ومتواترة ومتنامية فله سبحانه وتعالى. وحده. الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل

**د محمد الجوادي**

# الباب الأول

## حوارات في التكوين

# الفصل الأول
## الحب الذي عطل التفكير

كان المفترض أن تبدأ معرفتي المباشرة بأستاذي في بداية سنة الامتياز؛ حيث كان علينا أن نختار التخصص المفضل لكل خريج لكي يقضي فيه شهري الامتياز المخصصين للتخصصات الدقيقة، وكان النظام القائم في ذلك اليوم هو نفسه النظام الذي لا يزال معمولًا به حتى الآن، والذي يقسم سنة الامتياز إلى ست دورات، لكل دورة شهران، على أن يقضي الخريج أربع دورات في الأقسام العامة الأربعة وهي الباطنة العامة والجراحة العامة، وأمراض النساء والتوليد، والأطفال، ثم يقضي شهرين في تخصص فرعي جراحي أو باطني (كجراحة القلب أو أمراض القلب) ويقضي شهرين سادسين في الطوارئ، وتختلف الكليات في تقسيم شهري الطوارئ ما بين جراحة العظام والتخدير شهرا هنا وشهرا هناك، أو شهرا في إحداهما وشهرا في أقسام الحوادث العمومية في المستشفيات الجامعية التي توجد فيها هذه الأقسام متخصصة ومنفصلة وليست قائمة على مبدأ للتناوب بين الأقسام الموجودة.

***

على كل الأحوال كنت قبل معرفة أستاذي قد قررت اختيار تخصص القلب والأوعية الدموية بصفة نهائية، وكنت أخشى بل أتوجس أن أبدأ هذه المعرفة المباشرة بالأستاذ قبل أن يتم الاختيار النهائي فتثنيني تجربة المعرفة عن الاستقرار النهائي على هذا الاختيار، ذلك أني كنت قد أحببت أن أكون طبيبًا للقلب، أو بالأحرى أن أكون أستاذا للقلب، ولم يعد في وسعي أن أتنازل عن هذا الحب لسبب ربما لا يتعدى كونه سببا شخصياً، وهو شخص الأستاذ، مع أن هذا السبب في واقع الأمر يمثل ارتباطا يفوق في وثوقيته وإلزاميته رابطة الزواج نفسها، وهكذا فإني تعمدت تأخير معرفتي بأستاذي القادم كما تجاهلت كل نصيحة مخلصة قدمت لي بالتريث في هذا الاختيار، وبمحاولة معرفة حقيقة سير الأمور بين هذا الأستاذ وتلميذيه الأولين، والعلاقات المعقدة التي تحكم هذا القسم الصغير الذي سيقدر عليّ أن أكتوي بناره.

***

وعرفت هذا كله، وأعرضت عن هذا كله، وآثرت أن أمضي قدما دون أن أعبأ بحسابات النار التي تنتظرني، بل إني تعمدت أن أؤجل كل علاقة مباشرة بأستاذي إلى حين يتسلمني نائبا جديدا له، ولا يعجبن القارئ من هذا الاعتراف، ولا يعجبن من مثل هذا النمط من التفكير، فهو على كل حال تفكير إنساني طبيعي، وهو أمر معروف في النفس البشرية التي إذا تمكن منها حب الإقبال على شيء فإنها تحاول أن تتجاهل السؤال عن التحقق من صلاحيته لها، ويحدث هذا في أذهان الناس بصفة خاصة عند الزواج القائم على الحب المندفع.

****

لهذا كان اندفاعي إلى هذا التخصص في حد ذاته مؤجِّلا لتعميق العلاقة مع الأستاذ إلى مرحلة تالية لما كان متاحًا منذ بداية سنة الامتياز، ومع هذا فقد كان لابد من التعرف المباشر على هذا الأستاذ، كانت علاقتي السابقة به قد بدأت سطحية أو أعمق قليلًا جدًا من السطح، إذ أنه أعجب بي في أثناء أحد الدروس الإكلينيكية (الراوندات)، وكان قليل الأسئلة لكنه كان إذا استمع إلى إجابة الطالب عصرها عصرا وهكذا فعل بي، وربما أتى إعجابه من أني كنت أجيب بلا أعرف عندما لا أعرف، وكان يحاول أن يزحزحني عن هذه الإجابة إلى ما تعوده زملائي مما نسميه «التطجين» أو القول بغير علم دون جدوى، وفيما بعد عرفت من خبرتي معه أنه كان يعجب كل الإعجاب بهذا الخلق حتى وإن لم يعبر عن إعجابه هذا أبداً، وإنما كان يختزن هذه المواقف في نفسه ليعول عليها عند اختياره لمن يعهد إليه بأمر من الأمور، ولا أعتقد أنه كلف غيري بمثل ما كلفني به على مدى تاريخ علاقتي معه، ويكفيني في هذا الصدد أنه عهد إليَّ بعد شهرين اثنين من عمل الطبيب المقيم بوظائف لا يقوم بها إلا المدرس ومَنْ هم أعلى منه، وكانت هذه وظيفة قد لا أنالها، فإن نلتها فليس قبل سبع سنوات على الأقل، ويكفيني أنه كان يعهد إليّ وأنا مدرس مساعد لا بمهام الأستاذ ولا بمهام رئيس القسم فحسب، وإنما بمهام الأستاذ القديم الذي يعهد إليه بتقييم مستوى الأساتذة الجدد.

******

# الفصل الثاني
## النار المقدسة

كان أستاذي في خريف ١٩٩١ قد خرج لتوه، وبالتحديد منذ أيام، من معركة انتخابات العمادة، وكان يحاول بكل ما أوتي من لباقة ودبلوماسية أن يبدو متمتعًا بروح رياضية، وروح تعاون مع القيادة الجديدة للكلية، وتصادف أن كانت هذه الفترة ذاتها هي بداية فترة الرئيس الثالث للجامعة ، وطوفان حفلات التكريم للرئيس الثاني، والواقع أن كلمة «طوفان» لا تفي التعبير عن مهرجان الحب، الذي أحيط به رئيس الجامعة الثاني عند خروجه من منصبه، وهو مهرجان لم أشهد له مثيلًا على الرغم مما رأيته في حياتي من أحداث شبيهة، وليس هذا موضوعنا على أية حال، لكن هذه الإشارة كانت ضرورية قبل الوصول إلى ما حدث في ذلك اليوم الذي طلبني فيه أستاذي تليفونيا في الرعاية المركزة في حدود الرابعة عصرًا وسألني: منذ متى أنت هنا؟

قلت: منذ الصباح الباكر.

قال: أي باكر.. باكرك المبكر .. أم باكر الجامعة المتأخر؟

قلت: أنا هنا من قبل السابعة صباحا.

قال: متى تعود إلى القاهرة؟

قلت: ليس قبل العاشرة مساء.

قال: لا أستطيع دعوتك على الغداء، لأني عائد من الغداء لتوي، لكن هل تسمح لي أن أطلب لك غداء في العيادة.. وتشرفني.

قلت: أي نوع من الغداء.

قال: كبابك المفضل، ومن المطعم نفسه.

قلت: إنني أتناوله الآن، وقد دعوت الأطباء المقيمين والمدرسين المساعدين عليه.

قال: ليتني كنت نائبًا عندك لا رئيسًا لك.

قلت: العفو، والفرصة متاحة.

قال: لقد تناولت غدائي.

قلت: بالهناء والشفاء.

قال: مالك لا تسألني أين تناولته؟

قلت: أعتقد أنك حضرت حفل الكلية لتكريم رئيسنا السابق.

قال: إذًا فأنت تعرف الموعد، ومع هذا لم تحضر حفل عمك، وحفل كليتك، وقد ظن بعض الذين كانوا إلى جواري في الحفل أنك مشغول بشيء في القاهرة، ورجحت أنا أنك مشغول بالاستعدادات لمؤتمر السلام (كان يقصد مؤتمر السلام الذي انعقد بعد ذلك بأسابيع في مدريد).

قلت: ألهذا كنت تسألني منذ متى وأنا في الزقازيق؟

قال: وقد خانك ذكاؤك فلم تكتشف ذلك إلا الآن.

بدا عليّ ما يشبه الوجوم الصوتي فعاد أستاذي يسألني: لماذا لم تحضر حفل التكريم؟

قلت: قد أقمت أفضل منه هنا في الرعاية بثواب أكبر.

قال: نحن في معرض اللوم لا في معرض الثواب.

قلت: ربما أنني لم أدع.

قال: حظك سيئ.. طُرح هذا الاحتمال في الحفل، واكتشفنا أنك دعيت.

قلت: وماذا بعد؟

قال: واكتشفنا أيضًا أنك الوحيد الذي اعتذر.. وحاول بعضهم الإيقاع بينك وبين عمك فكانت المفاجأة أنه اعتبر غيابك هو أبلغ تكريم له.. ولم يجرؤ أحد بعد ذلك على أن يسأله السبب.

قلت: هل تسمح لي أن أستكمل حديثي وأنا جالس منك مجلس التلميذ في العيادة بعد ساعة.

قال: وهل تطول وجبتكم إلى هذا الحد؟

قلت: بل ريثما نتهي مع هؤلاء من مجموعة رسومات القلب.

قال: على الرحب والسعة.

***

ذهبت لأستاذي فوجدت ملامحه منقبضة ومتجهمة، ولم تكن علاقتي به في ذلك الوقت في أحسن أحوالها، لكن حبل الود كان متصلًا مما مكنني من أن أسأله مباشرة: ماذا بك؟

رد عليّ أستاذي في ذلك اليوم برد لم ينطق به أبدًا في حياته فقال: أنا مغتاظ.

قلت: ممن؟

قال: من صديقك فلان، وذكر اسم أستاذ للعلوم الزراعية كان في ذلك الوقت نائبًا لرئيس الجامعة، وكان قبلها قد تولى منصب العمادة.

قلت: ماذا فعل ذلك الرجل الطيب الهليهلي؟

قال: لا تصفه هكذا بعد اليوم.. إنما هو أقرب إلى الخبث.

قلت: لماذا؟

قال: يا سيدي وقفنا في استقبال الضيوف، وقد كرمني أساتذة الكلية فجعلوني في مقدمة الأساتذة، الذين يستقبلون الضيوف، فجاء عمك ومال عليّ وقبلني، وجاء رئيس الجامعة الجديد فصافحني باحترام مَنْ لم يعرفني من قبل، لكنه يحترم المكانة أو السن أو الشيبة، ثم جاء هذا النائب بعدها فسلم عليّ سلام المضطر مع أنه صديق قديم.

قلت: وكيف كان سلام المضطر هذا؟

قال: وضع يده في يدي ببرود، ونزعها بسرعة، وهو ينظر بوجهه في الناحية الأخرى، كأنه لا يريد أن يرى وجهي.

قلت: وماذا بعد؟

قال: منذ ذلك الحين وأنا أغلي، ولم يخف غلياني ، ولهذا بحثت عنك، ولم أكن أظن أنني سأجدك.

قلت: كأنما أرسلني الله لك؟

قال: هل جئت اليوم مللا.. (يشير أستاذي إلى ما كان يكرره من أني اعترفت له ذات مرة بأنني في بعض الأحيان آتى الكلية دون أن يكون ورائي جدول لا لشيء إلا لأمارس عملي الحكومي وكأني أمارس عملًا حراً.. ولأحس بأنني أجد من الأمل في الآخرة ما أكسر به الملل من أمجاد الحياة).

قلت: نعم.

قال: لا.. محمد إنك محظوظ.. تأتي وأنت ملول فتجمع أبناءنا حولك وتملأ حياتك أستاذية وعطاء من خارج الجدول.

قلت: هذا من فضل الله.

قال: نعود إلى موضوعنا، ما رأيك فيم فعل صاحبك؟

قلت: وماذا يهمك من أمره؟

قال: هذا هو السؤال الذي طرحته على نفسي مرارا وتكرارا، وقد قلت في نفسي: إنه على مشارف الستين وسيأتيني إن عاجلًا أو آجلًا في هذه الحجرة كما يقول المثل العامي «طائعا راكعا» كي أكشف عليه وأكتب له العلاج وأعطيه النصائح وسيظل يسعى ورائي من أجل السؤال عن هذا الدواء أو ذاك، أما أنا فليس لي عنده طلب، أولادي يدرسون في القاهرة، وليس منهم أحد محتاج إلى خدمة منه.

قلت: وماذا أيضاً؟

قال: ليس عندي والحمد لله «بهيمة» أحتاج إلى علاجها فأذهب إليه كي يوصي بعلاجها أحدًا من زملائه.

قلت: وهل يعالج المصريون بهائمهم بهذه الطريقة؟

قال: لا.. ولكني أخذت أفكر في القيمة «العملية» لهذا الرجل الذي تجعله يفعل بي ما فعله اليوم.

قلت: ولا يجيبك على سؤالك إلا المسؤول عنه الآن!! .

قال: لهذا أتحمله وأتحمل قسوته عليّ كما تعرف، ويبدو أنه يمهد لقسوة من قسواته.

قلت: يا سيدي المسألة في غاية البساطة.. ليس للموضوع علاقة بك ذاتك من قريب أو من بعيد، وليس له علاقة بمنصبك ولا بقيمتك.

قال: ما الذي يدفع أستاذًا محترمًا لأن يفعل ذلك الذي فعله هذا النائب؟

قلت: الضيق الشديد.

قال: مني؟

قلت: نعم.. منك.. ومنك وحدك.

قال: أأنا أرتكب جرائم لا أعرفها؟

قلت: لا هي جرائم، ولا هي مجهولة لك.

قال: ماذا يضايق هذا الرجل.. كان قد بدأ حياته مدرسًا في التعليم الابتدائي، وهو الآن نائب رئيس للجامعة.

قلت: أربأ بك أن تردد هذه القصة، فقد كان من أوائل دفعته، وكان سيعين معيدًا لكنه عمل شهورًا مدرسًا في التعليم الابتدائي حتى أتته وظيفة المعيد.

قال: وكان يمكن له أن يظل في التعليم الابتدائي.

قلت: لا تكرر هذا أيضا، فلو أنه مضى في سلك التربية والتعليم لكان الآن وكيل وزارة، دون أن يحضر رسالة للدكتوراه، أو الماجستير، أو ينال بعثة، أو يتعب في هذا كله.. لا تصدق هذا الكلام الذي يطلق من أجل الإغاظة ولا يراعي التاريخ الطبيعي للوظائف والموظفين.

قال: وإذا كان هذا الذي أقوله هو ما قاله عن نفسه.

قلت: إنما يحكي هو وزميله ذلك الموقف من باب الأمجاد، أو الحظ.. وليقللا من قيمة ما وصلتم إليه في الطب من مكسب مادي!!

قال: دعك من هذا لأني لا أريد دفاعًا عنه ولا تمجيدًا لتاريخه الآن، وقل لي ما ذنبي أنا؟ ما هي الجرائم التي لا أعرفها؟

قلت: يا سيدي الموقف أبسط من هذا التعقيد كله، لولا أنك تجنبت الجماهير في الأسبوعين الأخيرين فلم تصلك الأخبار الجديدة، وهي أن عميدنا الجديد قد تمكن تماما من قلب رئيس الجامعة الجديد وعقله وقلمه وقراره وكل شيء حتى أصبح نواب رئيس الجامعة أنفسهم في غاية الضيق من هذا الوضع.

قال: سمعت أطرافًا من مثل هذا الحديث فلم أصدق لأنه كلام غير منطقي .. لكن ما هو ذنبي في هذا؟

قلت: الرجل يعتقد كما يعتقد الآخرون أنك السبب في وصول العميد إلى هذا الموقع.

قال: إن العقل يقول: إنني آخر مَنْ يكون مسؤولا عن هذا، فقد كنت مرشحا بقوة للفوز، وقد كنت قاب قوسين أو أدنى من الفوز، وباختصار شديد فإنني قبل هذا الوضع

كنت ولازلت عميدًا محتملًا . potential dean ، فقد كنت وكيلًا سابقًا بل أقدم الوكلاء السابقين الذين لايزالون أساتذة عاملين (أي لايزالون في الخدمة)، كما كنت أحد اثنين محتمل فوز أحدهما، وقد فزت بالمرتبة الثالثة في عدد الأصوات، يعني أنني لازلت رغم عدم فوزي صالحًا لأن أكون عميداً، فلو أن رئيس الجامعة اختارني وترك الأولين ما كان قد تعدى سلطته.

قلت: كل هذا يضاعف من مسؤوليتك.

قال: عن ماذا؟ عن وصول الرجل إلى العمادة؟

وسكت أستاذي هنيهة ثم قال: فليكن يا محمد.. فليكن إنني أنا الذي أتيت به عميدا.. أو فرضته، ما ذنبي إذًا في استيلائه على عقل رئيس الجامعة وقلبه وقلمه في أسبوعين فقط كما يزعمون؟

قلت: أنت السبب الوحيد «المنظور» لهذا الوضع الجديد الذي كدر نفس الرجل، فوصولك أو وصول المنافس الثاني كان سيعني اتصالا بالوضع القائم في الجامعة، لكن الوضع الجديد أغرى صاحبه بأن يغري رئيس الجامعة الجديد بعهد جديد، والنفس البشرية في طبيعتها تميل إلى مثل هذا الخيار، وهكذا يمكن القول بأنك في نظر كثيرين أصبحت مسؤولًا عما يعتبره هؤلاء أزمة للجامعة لا عن وضع الكلية فحسب.

سكت أستاذي وأخذ نفسًا عميقًا واتكأ على مسند كرسيه ثم رجع بظهره إلى الوراء وقال: اسكت يا محمد... اسكت.

وكانت هذه أول وآخر مرة يصدر لي فيها أستاذي هذا الأمر.. حتى في المرات التي كنت أقول فيها بعكس ما يريد أن يسمعه.

صمت تماماً، ثم قمت فانصرفت كأني ذاهب إلى دورة المياه لبعض الوقت حتى يخلو أستاذي إلى نفسه كيما يستريح من حالة الضيق التي جعلته يصدر لي أمرًا لم يصدره قبل ذاك ولا بعده، وعدت فوجدت أستاذي متهلل الأسارير، هادئ البال، كأنه تلقى صدمة من الصدمات الكهربية المبدلة للحالة النفسية، وإذا به يقول لي: هل قلت ما قلت رواية أم عن توقع؟

قلت: وما الفارق؟

قال: كبير جداً.

قلت: لا أراه كذلك.. ولا أري فرقا.

قال: بدأت تناور يا محمد.. وتبتعد عن طابعك في الصدق.. أعتقد أنك قلت ما قلت عن توقع لا عن رواية.

قلت: وما قيمة هذا يا سيدي؟

قال: إني أعتبر هروبك اعترافًا بصحة حدسي، وهو صحيح، فليس من الممكن أن تتكشف مثل هذه العلاقات ولا أن تتكشف مثل هذه الخلافات في أسبوعين فحسب.. أليس كذلك.

سكت ولم أجب.

سكت أستاذي هو الآخر ثم قال: هل تعرف يا محمد ما كنت تصلح له لو لم تكن قد فرضت نفسك فيما فرضت من ميادين أثبت عبقريتك فيها؟

قلت: أنا قد أصبحت الآن أعرف عن يقين أني لا أصلح لشيء على الإطلاق، وكل ما أعرفه عن نفسي أنني مغضوب عليّ من أستاذي، وأن الناس أصبحوا يتقربون إلى أستاذي برجمي.

قال: ولماذا لا تعترف أنك ترجم أستاذك عيانا بيانا في بيته وفي عيادته وفي مكتبه.

قلت: أستغفر الله.

قال: كأنك لا تريد أن تسألني عما أرشحك له لو لم تكن ما أنت.

قلت: اسأل إن شاء الله.

قال: إني أرشحك لتكون وزيرًا للإعلام في دولة اشتراكية من ذوات الحزب الواحد.

قلت: وما الموهبة في هذا؟ وما القيمة؟

قال: القدرة على التبرير المبتكر.

قلت: أهذا جزائي.. أريح أعصابك فتتعب أعصابي.

قال: يا محمد إنما أردت مديحك من حيث لم أحسن المديح.

قلت: وأنا شاكر لك ما انتويته وما قلته على حد سواء.

قال: معنى هذا أنك لم تغفر لي.

قلت: ما أنا إلا عبد ضعيف.

قال: إن كنت أسأت إليك من حيث لا أدري فسامحني.

قلت: يظهر أنه لم يعد لي عيش معك، ولم يعد لي أكل عيش معك إلا ممزوجًا بالإذلال.

قال: لقد أخرجتني من الاكتئاب فلا تدخلني إليه ثانية.. ما أردت إلا مديحك، ولو صبرت عليّ لاستمعت من المديح أقوالًا أخرى.. لكني لست أدري الآن أيسرك أم لا.

قلت: لم أعد لأتأذى من شيء آخر بعد ما قلت.

قال: إذاً، ومادام الأمر كذلك فاسمع مني أني كنت سأقول لك: إنك لو وجدت في عهد عبد الناصر لتضاءل فلان وزملاؤه بجوارك، وذكر أستاذي اسم صحفي كان مقربا من عبد الناصر.

قلت: وهذا أيضا يؤذيني.

قال: ألست من الذين يؤمنون بالتفوق؟

قلت: لكني من الذين يؤمنون بالزمرة.

قال: فأخرجني من هذا اليم الذي تصمم أنني وضعت نفسي فيه، وأخبرني ما بال صديقك وأمثاله كما تقول كثيرون يظنوني مسؤولا عن الوضع الجديد؟ وما بالهم يلومونني ولا يلومون المستفيدين؟

قلت: اكتشف العرب قديما هذا المعنى فقالت ما معناه: إن كل فضيلة من فضائل الغني، تصبح في حق الفقير رذيلة.

قال: أعرف هذه الحكمة لكن قل لي: أتذكر القول المأثور بحذافيره.

قلت: لا أحفظه.. لكني أستطيع أن أستحضره في دقائق.

قال: كيف ذلك.. أتستخدم الجان كما يقولون عنك؟

قلت: أوصلك هذا الخبر؟

قال: وصلني.. وسأغيظك وأقول لك: إني أنا أيضًا أميل إلى تصديقه.

قلت: هذا لا يغيظني.

قال: لا يغيظك أن يقال عنك: إنك توظف الجان، ويغيظك أن ترشح وزيرًا للإعلام؟

قلت: نعم.. هذه مهارة مظنونة، وهذا أمل منكور.

قال: فخبرني إذًا أو أرني كيف تأتي بالنص في دقيقة.

قلت: إني أعرف موضعه من الكتاب وموضع الكتاب في مكتبتي، وأظن سكرتيري في عيادتي الآن.

قال: فإليك التليفون.

بعد دقيقة قرأت النص لأستاذي كما أملاه عليّ مساعدي حسب ما ورد في كتاب «الأدب الصغير» لابن المقفع وفيه يقول:

«وليس من خلة للغني مدح إلا هي للفقير عيب»:

فإن كان شجاعًا سمي أهوج .

وإن كان جوادًا سمي مفسدا .

وإن كان حليمًا سمي ضعيفًا .

وإن كان وقورًا سمي بليدًا .

وإن كان لسنًا سمي مهزارًا .

وإن كان صموتًا سمي عييًا .

قال أستاذي: هل تستطيع الآن أن تنظم لنا قاعدة مثل هذه فيما يتعلق بالفائز في الانتخابات ومَنْ لم يحالفه الحظ فيها؟

قلت: لكن لابد من مقابلة الفائز بكلمة واحدة لا بجملة .

قال: تريد أن تذكرني بأنني أنا الراسب.. قل ما شئت.

قلت لأستاذي: نستطيع أن نؤلف معاً.

قال: وليس عندي مانع.

قلت: أولا فإن الجمل الستة تنطبق على حالتنا تمام الانطباق مع تبديل المقدمة فحسب.

قال: نراجعها.

فراجعناها فكأنما صيغت لحالتنا.

فإن كان شجاعًا سمي أهوج .

وإن كان جوادًا سمي مفسدا .

وإن كان حليمًا سمي ضعيفًا .

وإن كان وقورًا سمي بليدًا .

وإن كان لسنًا سمي مهزارًا .

وإن كان صموتًا سمي عييًا .

قال: لكني أحب لك أو أطلب منك أن تضيف إليها..

قلت: هل تساعدني بأن تكتب ما أمليه .

قال : أفعل إن شاء الله.. لكن عليك التبييض.

فأخذت أملي على أستاذي وأحاول.. وأضع جملا على غرار ابن المقفع:

وإن كان حازمًا سمي أرعن .

وإن كان حاسمًا سمي عجولا .

وإن كان عادلًا سمي قاسيا .

وإن كان لطيفًا سمي خفيفا .

وإن كان عزيزًا سمي متكبرا .

وإن كان مدققًا سمي معقدا .

وإن كان متعقلًا سمي بطيئا .

وإن كان عبقريًا سمي مجنونا .

وإن كان عالمًا سمي مخبولا .

وإن كان مدبرًا سمي متآمرا .

وإن كان ورعًا سمي فاترا .

وإن كان رحيمًا سمي جبانا .

وإن كان حافظًا سمي حرفيا .

وإن كان أوّابًا سمي هوائيا .

وإن كان مهذبًا سمي منافقا .

قال أستاذي: انسخ لي الآن نسخة من أقوال ابن المقفع وإضافاتك، لأضعها هنا في درج عيادتي لأطالعها فتستريح نفسي من نفاق الناس.

فعلت .. ثم أخذنا نتحدث فيما يكون من أمر جامعتنا وأمر كليتنا وأمر تلك الأزمة.

***

بعد ١٤ عاما من هذه القصة، التي كان أستاذي يستعيدها كلما أراد أن يدلني على اعترافه بقدرتي على قراءة الباطن على حد قوله، ظهر في إحدى الصحف المهمة حديث صحفي طويل أجرى معي، ولم يكن يدور بخلدي أن يكون أول تليفون أتلقاه تعليقًا على هذا الحديث هو اتصال من أستاذي نفسه، وكنت ساعتها في مدينة الإسكندرية بينما كان هو في الساحل الشمالي.

بعد أن هنأني أستاذي بما اعتبره هو توفيقًا كبيرًا في الأداء وفي التحليل طلب مني أن أمرّ عليه لنتناقش في الحديث.

بعد يومين مررت بأستاذي فإذا به يبدؤني بقوله: هل تذكر حوارنا الذي دار عقب انتخابات العمادة في بداية عهد الرئيس الثالث للجامعة؟

قلت: أذكر كل ما فيه.

قال: أتذكر أنك غضبت كما لم تغضب حين رشحتك وزيرًا لإعلام عبد الناصر؟

قلت: كأنك الآن تريد أن تنفي عني ما كنت مصممًا على تعذيبي به من مديح.

قال: بالعكس، إني أرشحك وزيرًا للإعلام في دولة تعاني من مرحلة الانتقال، لا في دولة اشتراكية ذات حزب واحد فحسب.

قلت: ألهذا استدعيتني؟

قال: أكمل الجملة ولا تخف وقل كما كان العرب الأقدمون يقولون: تبا لك.

قلت: لن أقول.

قال: تأدباً.

قلت: لا .. ولكن لأنك لست رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ضحك أستاذي ملء شدقيه وقال: لكن الجملة لم تكن مديحا للرسول وإنما كانت هجوما عليه.

قلت: لكنه هو الرسول عليه صلوات الله وسلامه أيا ما كان الخطاب.

قال: وما يحزنك في مثل هذا الترشيح؟

قلت: ما أحزنني في الأول.

قال: دعني أكن جريئا معك وأسألك: هل جالت مثل هذه الفكرة بخاطر أحد ممن قرؤوا حديثك في اليومين الماضيين؟

قلت: للأسف: نعم.

قال: مَنْ هذا الأريب الأروبة؟

قلت: سوف يسرك أن تعرف أنه كان رئيسا لتحرير صحيفة معارضة، كما كان وكيلا لنقابة الصحفيين.

قال: ومَنْ هو؟

قلت: هو الأستاذ عبد العال الباقوري.

قال: إني أعرف أنه صديق عزيز عليك.. ولعل علاقتكما لم تشهد إلا الحب.. ألا يشفع هذا لفهمي؟

قلت: يشفع لفهمك أولا يشفع.. إني أخشى أن يشفع لفهمي أنا.

قال: تخاف أن تكون وزيرًا لوزارة واحدة وأنت الذي تحدثنا دائما أنك لو أصبحت رئيسا للوزراء لفعلت كذا وكذا.

قلت: الأمر ليس أمر خوف ولا شجاعة، ولا أمر وزارة ولا أمر رئاسة وزارة.

قال: فما الأمر إذاً؟

قلت: إن التوبة لا تؤدي إلى النار، كما أن الإصرار على الذنوب لا يؤدي إلى الجنة.

صمت أستاذي برهة ثم قال: الآن فهمت.

قلت: أنت فاهم من البداية لكن تعذبني.

قال: فما قولك في أني لم أفهم إلا الآن؟

قلت: إذًا ... وأنا أيضًا لم أفهم إلا الآن.

قال: دعنا من هذا كله ولنعد إلى أروع ما في حديثنا اليوم.

قلت: تقصد ذكرى إضافاتنا إلى قول ابن المقفع المأثور؟

قال: فتح الله عليك.. كنت سأبتئس إذا لم تدرك أنه أروع ما في حديثنا اليوم من ذكري.

قلت: إني أحبه.

قال: هذا أوضح من أن يحتاج إلى دليل.. لقد طلبت من سكرتيرك أن يقرأ لك من كتاب صغير حددت موضعه بكل دقة، وحددت الفقرة التي تريدها حتى استطاع الرجل أن يأتيك بها في دقيقة.. لكن قل لي هل يستحق الرجل ذلك المصير السيئ الذي لقيه؟

قلت: برؤيتنا نحن القراء والمثقفين لا يستحق، وبرؤية المكيافيلليين يستحق ما هو أكثر من ذلك من عذاب وتعذيب.

قال: ولهذا فأنت تخشى مصيره.

قلت: ومَنْ أنا حتى ألقى مصيره.

قال: وما الذي جعله يستحق ذلك المصير من وجهة نظر المكيافيلليين؟

قلت: إنه أدرك سر النار المقدسة.

قال: ماذا تقصد؟

قلت: أدرك الحكمة وعبر عنها كما لم يعبر عنها أحد في زمانه.

قال: لكنه في الواقع لم يحتفظ لنفسه بحقوقه في ملكيتها الفكرية.

قلت: نعم كان يؤثر أن يقول عن أقواله: قالوا وقيل.

قال: ومع هذا فإنه لم يسلم من المصير المؤلم.

قلت: يستحيل أن يسلم.

قال: هل في ذاكرتك شيء له يستحق أن يروى؟

قلت: هل تأذن لي بالتليفون؟

قال: دعني، مرة أخرى بعد كل هذه السنوات، أر كيف كنت تستدعي النصوص على البعد، وكيف ترشد مَنْ في مكتبك إلى إتيانك بها كأنه الجان.

قلت: النص في أعلى صفحة من الصفحات الشمال، وعليه علامة حمراء بقلمي، والكتاب في الرف الأيمن الثالث من المكتبة اليسرى.

قال: الآن فهمت.. ماذا يقول النص؟

قلت: يقول ابن المقفع:

« الناس إلا قليلا ممن عصم الله، مدخولون في أمورهم :

فقائلهم باغ ..

وسامعهم عياب ..

وسائلهم متعنت ..

ومجيبهم متكلف ..

وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل ..

وموعوظهم غير سليم (يقصد: غير خالٍ) من الاستحقاق..

والأمين منهم غير متحفظ من إتيان الخيانة..

والصدوق غير محترس من حديث الكذبة..

وذو الدين غير متورع عن تفريط الفجرة..

والحازم منهم غير تارك لتوقع الدوائر (أي للمصائب المتوقعة) .

يتناقضون البناء..

ويتراقبون الدول..

ويتعايبون بالهمز..

مولعون في الرخاء بالتحاسد.. وفي الشدة بالتخاذل».

قال أستاذي: الآن أقول لك وأنا مطمئن: إن ابن المقفع هذا يستحق أن يجازي بما جوزي به ألف مرة.. يقتل ثم يبعث ليقتل مرة ثانية.. ما رأيت من شرّح الناس بهذه القسوة القاسية مثل تشريحه.

قلت: هل أحببته؟

قال: حذارِ يا محمد أن تفعل مثله إذا انتابك الإخلاص للفكر، وسواء أكنت أنا حيا أم ميتا، فلا تكرر مأساته.

قلت: لو قدر لي ذلك ما نفعني نصحك، ولا أرهبني مصيره.

قال: إذًا فقل إن العوض على الله فيك.

أستودعك الله .

## الفصل الثالث
## التربية هي الجبر

في لحظة صفاء قال أستاذي : إنه قارب اليأس من اثنين من تلاميذه الأوائل، وقال لي: إنه يحس أن حظه سيئ فيهما، وإنه كان يود لو أن الحظ قد قاده إلى غير ذلك فيهما، أو إلى غيرهما، وسألني أن أعبر له عن رأيي بصراحة فيما إذا كان مسؤولا عما آل إليه حال هذين الأستاذين؟ سواء أكانت هذه المسؤولية كلية أم جزئية، قلت لأستاذي: لعلك تغفر لي إذا قلت لك : إن القضية من حيث التربية لا تتعلق بك لا من قريب ولا من بعيد، لكنها من حيث الاختيار تخصك بدرجة تقترب من المائة في المائة!

أشرق وجه أستاذي فجأة وقال: كأنك تريد أن تقول : إن التربية هي الجبر!

ضحكت وقلت: بل الاختيار هو الجبر.

قال أستاذي: وكيف كان ذلك كذلك؟

قلت: بعض التاريخ الذي سأذكره مصدره أنت، وبعضه الآخر ربما لم يمرّ عليك من قبل.

قال: هات ما عندك.

قلت: كان أول طبيب مقيم في هذا القسم،قد عمل لمدة أسبوعين فقط، وكان مؤهلا لما تتمناه في تلاميذك، لكنه آثر أن يترك تخصصنا ويذهب إلى جراحة العظام.

قال: حدث هذا فعلا.

قلت: أنت مصدري الأول في هذا.

قال: كأني قد حكيت لك عن كل ما كان وما يكون.

قلت: وكان أكبر تلاميذك يهيئ نفسه ليكون جراحا للعظام، فلما فشل في تحقيق هدفه قبل العمل في قسم القلب.

قال: وهذا ما لا أعرفه.

قلت: أعرف.

قال: لكن كيف عرفت أني لا أعرفه؟

قلت: حدثني صاحب الشأن أنه حرص طيلة حياته وحتى الآن على ألا ينهي إلى مسامعك هذه القصة.

قال: وماذا كان في وسعي أن أفعل بها سلبا أو إيجابا؟

قلت: ظل يظن أن في هذا ما يجرح أحاسيسك، ويترتب عليه موقف منه.

قال: هو مخطئ بالفعل في هذا الموقف.

قلت: لكن هناك مَنْ هو أكثر منه؟

قال في انزعاج: تقصدني.. هات ما عندك من أسباب لهذا الظلم اللذيذ .

قلت: بخلت بأبوتك أن تعرف مثل هذا في الوقت المناسب.

قال: أنا في الموضع السلبي وتجعلني مسؤولًا عن معرفة ما لم يبح به صاحب الشأن.

قلت: لكن الأستاذ دائمًا ما ينظر إليه على أنه في الموضع الإيجابي، وعليه إذًا المسؤولية في أن يعرف ما يخفيه تلميذه عن قصد أو عن حياء.

قال: وماذا كان يفيدني أن أعرف؟

قلت: كنت تلعب في مناقشتك له على ميول جراح عظام بدلا من أن تلعب على ميول الباطني أو النسائي.

قال: أتظن أن لهذا التفكير محلا في تربية أول الأبناء الذي هو مهيأ لأن يرث التركة كلها ولابد أن يلم بها كلها.

قلت: لكن أول الأبناء في العادة لا يحب أن يرث المسؤولية الأدبية حتى إن أحب أن يرث التركة كلها، وإنما هو يحب أن يرث ما يناسب ذوقه من ماديات من دون المعنويات.

قال: وماذا كان يناسب «عظامي» في تخصصنا؟ ماذا كان يمكنني أن أقدمه له حتى أجعله يحس بالتعويض؟ هذا إذا كان في حاجة إلى تعويض أصلاً، فأنت تعرف أنه لا ينتظر التعويض، وإنما هو قناص محترف ودائم لا يخفى رغبته ولا قدرته ولا ماضيه في القنص.

قلت: كمرحلة أولى كان يناسبه جهاز صدمات القلب، وكمرحلة ثانية كانت تناسبه القثاطر.

قال: وهل منعت عنه هذا أو ذاك؟

قلت: لكنّك لم تمن عليه بهذا ولا بذاك، والمن في مثل هذه الحالة مكون أساسي للعطاء.

قال: لا أدري إن كان ما تقوله صواباً؟ أم خطأ؟ لكني معجب بالصياغة.

قلت: لكني أود لو أعجبك المضمون.

قال: وماذا كان بوسعي أن فعل؟

قلت: الأمر بسيط بساطة ما يفعله أثرياء الريف حين يفصلون أبناءهم الكبار عنهم بمجرد تزوجهم مخصصين لهم مطحنا أو منحلا أو مشغلا، ويقولون لهم عند إتمام هذا الفصل المادي إنهم إنما فعلوا هذا لأنهم يجدون (هذا الابن الأكبر) أقدر الناس على هذه المهمة الجديدة التي بوسعه أن يتفوق فيها على آبائه.

قال: هذا عن الأول، فما بال الثاني؟ ماذا كنت تظنه يتمنى؟

قلت: أظنه كان يتمني أن يكون نسائيا.

قال: لماذا؟

قلت: لايزال يريد أن يجمع بين راحة الطب وصرامة الجراحة.

قال: وهل هو في رأيك يحب الجمع؟

قلت: بل يحب الطرح.

قال: وأين الطرح في النساء؟

قلت: يستخرج النسائي الوليد فيصبح الرحم خاليا، ويجري الإجهاض فيصبح الفؤاد خاليا، ويطمئن الوالدين على حدوث الحمل فيصبح البال خاليا.

قال: هل يمكنك أن تكرر هذه المقاطع الثلاثة؟

قلت: لا أفعل حتى تعدني بمكافأة.

قال: أعدك بعد أن تجيبني هل جاءتك هذه المقاطع من وحي اللحظة، أم أنك كنت قد رتبتها من قبل؟

قلت: لا أفعل حتى تعدني بمكافأة أخرى.

قال: لك ذلك.

قلت: من وحي اللحظة.

قال: أيمكن هذا؟!

قلت: إنما هو فضل الله يجريه على ألسنتنا.

قال: فما بال لسانك قد اختص بهذا الفضل؟

قلت: قدر الله وما شاء فعل.

قال: وهل تعتقد في هذا في الإبداع؟

قلت: الإبداع أولى بهذا الاعتقاد من الاتباع.

قال أستاذي وقد أشرق وجهه: ولا أحد يعرف قدر إيمانك ؟

قلت: ربما تظن ذلك الآن.. لكن العبرة بالخواتيم.

قال: وهل سمع زميلنا وصفك لما يتمناه في أدائه؟

قلت: هو كما تعلم لا يحب الاستماع أبداً، حتى وإن أجبر أذنه على التسليم لك من باب اللياقة.

قال: لكنك قادر على إسماعه.

قلت: لا أظن.

قال أستاذي في شبه يأس: نعم، وأردف بعد هنيهة: لكن قل لي: كيف عرفت خلقه على هذا النحو الدقيق؟

قلت: بالتأمل لا بالاستماع.

قال: لكنك تظل في حاجة إلى سند يدعم روايتك.

قلت: ليس صعباً.

قال أستاذي في شبه يأس : إنما أريد أن أسألك سؤالًا مباشراً.. فلا تراوغني ، هل حدثك هو الآخر بهذا؟

قلت: بعيونه لا بفمه.

قال: وأنا أقبل فهمك لحديث العيون، لكن ما علاقة هذا كله بما نحن فيه من شكوى؟

قلت: إنما نتحدث فيما بدأت فيه من قلقك من تلميذيك الأولين، وأنا أزعم أن لك يدًا كبيرة في الموضوع.

قال: لكنك أضعت الوقت دون أن تثبت ذلك.

قلت: ألا تحب أن تقارن نفسك بأستاذك الأكبر في قصر العيني محمد بك إبراهيم ؟

قال: بلي... ولي الشرف.

قلت: هل تعرف كيف اختار رئيس القسم الحالي ليكون تلميذا له؟

قال: لا.. ولكني أعجب لحظ هذا الرجل حين أراه يتولى رئاسة القسم هذه المدة الطويلة بينها لم يكن في حسباننا على الإطلاق حين كنا شبابا؟

قلت: إني أعجب لتفكيركم في شأن هذا الرجل، وأعجب لظنكم أنه لم يكن مرشحًا لما وصل إليه مع أنكم تعلمون أنه كان أول مَنْ نال دكتوراه القلب وعين بعدها مدرسا، ولم يكن هناك مَنْ يسبقه ممن هم أصغر منه، فكان طبيعيا أن يأتي في يوم من الأيام رئيسا للقسم.

قال: نعم.. أفهم هذا الآن.. لكننا في ذلك العصر الذي تربينا فيه لم نكن نحسبها هكذا.. بل لم نكن نحسبها على الإطلاق، فهل ظلمنا أساتذتنا أم ظلمنا أنفسنا أم أن أبناءنا، وأنت منهم، هم الذين ظلمونا؟

قلت: فيما يتعلق بهذه النقطة فقد كان حظ جيلكم أفضل، على الرغم من أن حظه لم يكن ينبئ بهذا الفضل.. ألا ترى إلى الجيل الحالي وقد عذبه أن المندل قد انفتح له، وأنه عرف معظم الحقيقة، وأنه فقد سر غموضها كما فقد جاذبيتها بعد أن عرفها وأصبح ملزمًا بأن يتصرف في حدود معرفته الواسعة، فهو يحسب حساب كل شخص، ويحمل أعصابه بحسابات لا تنتهي إلا أن يقضي الله أمرا كان مفعولاً.

قال: كأني بك أصبت وجه الحقيقة بقولك: «وقد عذبه أن المندل انفتح له»، لكن قل لي: هل هذا من عندياتك أم أنه من عقيدتك؟

قلت: بل هي عقيدة.

قال: من أين اعتقدتها؟

قلت: من قول الحق جل جلاله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران:١٧٩] .

قال: كأني أسمع قول الله هذا لأول مرة.

قلت: هذا من فضل الله، فقد نعيش ونموت ونحن معذبون بالبحث عن الغيب.

قال: لا تأخذني إلى البعيد، ودعني في القريب، ما الذي جعل أستاذنا يختار ذلك الرجل ويختصه بما اختصه به؟

قلت: كان يدرك ببعد نظره أن لابد من وجود شخصية ذات نفس هادئ (وهذا هو نص تعبيره تقريبا) فيما بين الأنفاس اللاهثة بحماسها واجتهادها وإيمانها، وهكذا حرص على أن يكون هذا الابن موجودا بين أعضاء هيئة تدريس القلب في قصر العيني.

قال: ولم لا تقول : إن هذا قد حدث بالمصادفة؟

قلت: لا أظن ذلك أبدًا .. إذ كيف تكون المصادفة هي السائدة في نجاحه في أول امتحان يعقد لمنح درجة علمية جديدة لم تكن موجودة من قبل؟ وكيف تكون المصادفة هي السائدة في الإعلان له عن وظيفة محددة في ذلك الوقت الذي حصل فيه على الدرجة؟!!

قال: ذكرتني.. لقد كان هذا الأستاذ قد غير مساره وعمل معيدا في قسم الطب الطبيعي والعلاج بالإشعاع والكهرباء بعد حصوله على دبلومي الباطنة والقلب وانتهاء نيابته.

قلت: وهذا أيضًا مما أستغرب له فيما استقر عليه وجدانكم من قصة الرجل، وإني ما أظنه غيّر مساره بقبوله هذه الوظيفة في قسم العلاج بالإشعاع، وإنما كان يؤكد على استمرار مساره في أمراض القلب.

قال: كيف ذلك؟

قلت: لأنه أراد أن يبقى في قصر العيني قريبا من قسمه الأصلي حتى ينال الشهادة أو الوظيفة أو ينالهما معا، ولا أظنه فعل ذلك بدون مشورة أستاذكم الأكبر، وإن لم يكن هو مجبرا على أن يخبركم بالحقيقة، لا هو ولا أستاذكم الأكبر.

قال أستاذي: كلامك منطقي جدًا لكن قل لي: هل تتحدث عن علم أم عن استنتاج؟

قلت: الأمران يستويان.

قال : أعفيك من الحرج، فلابد أنك حصلت على سر لم نحصل عليه في زماننا، وما أظن استنتاجاتك مهما كانت ذكية تصل إلى لب الحقيقة على هذا النحو الدقيق، ومع هذا فإني لست أفهم من هذا المثل الذي قصصته ما يؤيد وجهة نظرك في مسؤوليتي عن اختياري تلاميذي.

قلت: أعرف أنك تفهمني لكنك لا تريد أن توافقني.

قال: وما العمل في نظرك؟

قلت: أعطيك مثلا ثانيا بسلف الرئيس الحالي، أي الرئيس الذي انتهى من رئاسة القسم منذ ثلاث سنوات وهو أستاذك الحبيب.

قال: وما شأن هذا هو الآخر؟

قلت: أحبه أستاذك الأكبر وهو يقضي شهرين من الامتياز في قسم القلب، فلما وجده (عند الإعلان عن النيابات) اختار التخصص في النساء، استدعاه وبدأ إقناعه بقبول التخصص في القلب، فلما يئس من إقناعه بالمنطق الأرسطي أقنعه بالمنطق الاجتماعي.

قال: وما هو ذلك المنطق الاجتماعي؟

قلت: قال : له تزوج مَنْ تحبك لا مَنْ تحبها، لأن مَنْ تحبك تسعدك حتى لو أخطأت، أما مَنْ تحبها فقد تشقيك مهما فعلت من أجلها.

قال أستاذي: أهكذا قال له بالتحديد؟

قلت: المعنى شائع، والصياغة لي، ولأستاذك الفضل في توظيف المعنى.

قال: أو حدث هذا على نحو ما تقول؟

قلت: هو ذاك.

قال: لقد كان أستاذنا ذلك مهيأ لأن يكون أنجح طبيب نساء.

قلت: تقصد بمنطق المهنة والممارسة؟

قال: نعم.

قلت: وبهذا المنطق فإنه أنجح أساتذة القلب.

سكت أستاذي بعض الوقت ثم قال: إنه فعلًا كذلك، ولكننا مشغولون بتقييم بعضنا بما في ضمائرنا، وبما في أيدينا، والمهنة لا تحكم بما في ضمائرنا، ولا بما في أيدينا، وإنما بما في ضمائر الناس، وبما تتطلبه نفوسهم.

قلت: ولولا أن أستاذكم الأكبر كان يعرف هذا كله ما كان قد رسخ أستاذيته على نحو ما فعل.

قال: نعم.. إني لا أظن أستاذًا في جيله حقق ما حققه من سطوة الأستاذية.. هل تذكر

شيئًا عنه هو نفسه؟ هل رأيت أستاذنا الأكبر أم أنك لم تدركه؟

قلت: بل أدركته في عامه الأخير.

قال متسائلاً: في عامه الأخير؟

قلت: وربما في كشفه الأخير.

قال: وهل ظل يكشف حتى عامه الأخير؟

قلت: كانت حالة استثنائية لا ينبغي له أن يعتذر عنها.

قال: ومَنْ كان صاحب الحالة؟ إذا لم يكن الأمر سرا.

قلت: ما في الأمر سر.. إنما هي زوجة زميله السابق عليه، والذي كانت له في المجتمع العلمي والطبي مكانة لا تقل عن مكانة أستاذك بأي حال، وكانت الزوجة فرنسية أرستقراطية تعودت على مشورة أستاذك الأكبر ونصيحته وسماعته على مدى عشرات السنين، ولم يكن من اللائق أن يبخل عليها بزيارة منزلية مهما كان سنه.

قال: وكيف جاءتك الفرصة لتشهد ما تقول : إنه آخر كشف في حياة أستاذنا الأكبر؟

قلت: ذهب كلانا في وقت واحد.

قال: وهل كان كلاكما يعرف أن الآخر قادم للمهمة ذاتها؟

قلت: إنما يصدق على هذا الموقف قول محور من قول نبوي جميل.

قال: وما هو القول المحور؟

قلت: لو اطلعتم على الغيب لأفسدتم الواقع.

قال أستاذي: أبلغت بك الجرأة أن تشتق أقوالًا جميلة من مثل هذه الأقوال المقدسة؟

قلت: لا أشتق منها، وإنما أقتدي بها، وأظن القول الأصلي يتضمن المعنى الذي أتحدث عنه.

قال: مناقشتك ممتعة لكنها مرهقة.

قلت: إنما هي مبهجة.

قال: كأنك بحر من الأسرار، هل عندك مثل ثالث؟

قلت: المثل الثاني لم ينته بعد.

قال: كيف؟

قلت: تذكر أن الأستاذ الذي تحبه انصرف في مرحلة من حياته إلى الذرة وما سمي بالطب النووي، وأعطى نفسه لهذا الاهتمام أو التخصص الدقيق حتى أوشك أن يكون نوويا، لكن أستاذك الأكبر أعاد إغراءه بالعودة ليكون قلبيا، مع أن كلا الأمرين جوهري: نواة وقلب.. ولكن شتان بين ذاك وهذا.

قال: أعرف أن هذا حدث لكني لم أكن أعرف أن لأستاذنا الأكبر الفضل في هذا، وإنما كنت أظن صاحب الشأن هو الذي اختار.

قلت: مَنْ كان في مثل سنه لا يوقف طيش عشقه إلا قرار الأب.

قال: معك حق.. لكن مَنْ حدثك بهذا.. أم أنك تستنتج؟

قلت: إنما حدثني العاشق.

قال: العاشق الولهان؟ أم العاشق التائب؟

قلت: بل العاشق العاقل الذي استمع إلى كلام أبيه وورث حكمته.

قال: هو ذاك.. لكنني لا أظن أنه كان بوسعي أن أجد مثل هذا ولا مثل ذلك، وإنما أنت تزيدني من أمري رهقا، فهل عندك مثل ثالث؟

قلت: عندي ثلاثة أمثلة لا مثل ثالث فحسب.

وأخذت أقص على أستاذي، فإذا به بعد حديثي الطويل يطرق في أسي ويقول: كأني المسؤول عن هذا الوضع الذي أنا فيه والذي أظن أنه لا يد لي فيه.

قلت: نعم.

قال: وهل أنا مذنب في حق هؤلاء وفي حق نفسي؟

قلت: ليس هذا بالذنب الواضح، إنما هو ذنب خفي.

قال: تقصد أنه كالشرك الخفي، فماذا عن الشرك الصريح؟ هل وقعت فيه؟

قلت: نعم.

قال: متى حدث هذا؟

قلت: أكثر من مرة جاءتك الفرصة فيمن يخطبون ودك فصددتهم.

قال: أتعرف بعضهم أم أنك تتحدث حديثا نظريا؟

قلت: بل أعرف فلانا وفلانا وفلانة.

قال بعد تفكير: إنما كانت رغبات هؤلاء الثلاثة تعريضا عابرا فحسب.

قلت: وماذا تنتظر أكثر من هذا؟

قال: يجاهدون.

قلت: كيف يجاهدون وهم يرونك تنتصر للشيطان أو للملاك أو للإنسان من قبل أن تراهم.

قال: أحدث هذا أم أنك تفتري؟

قلت: حدث... وأخذت أقص عليه بعض المواقف.

قال: إنك صادق فيما تروي لكن هذا لا يعني أنهم على حق، لو كانوا على حق لفعلوا مثلك وصمدوا وقاموا وانتصروا.

قلت: إنهم كانوا يبحثون عن وظيفة لا عن معركة.

قال: كأنك كنت تبحث عن معركة لا عن وظيفة؟

قلت: بل كنت أبحث عن وظيفة بلا معركة.

قال: لكنك لم تهرب من المعركة حين فرضت عليك.

قلت: مكره أخاك لا بطل.

قال: إذا عدنا إلى القصص التي رويتها لتوك فإنها كلها تدور حول محور واحد، وبوسعي أن أسألك: ما هو وجه خطئي فيما تظن من انحيازي إلى شخص بعينه حين وجدت مَنْ يحمل عني ما أريد فكفيته قلق مَنْ يحيطون به؟

قلت: لم يكن هناك خطأ بحسابات الحاضر الراهن، لكنك في واقع الأمر تتحدث عن شعورك اليائس من نتيجة لاحقة هي ما تراه اليوم.

قال: وما هو وجه خطئي في الحفاظ على الحاضر في وقته دون شغل للبال بالمستقبل الذي هو غير وقته؟

قلت: لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، لكن الحفاظ على الحاضر في الماضي هو الذي جعلك تشكو الحاضر في المستقبل.

قال: فهمت قولك رغم عبقريته.

قلت: الأولى يا سيدي أن تقول: بفضل عبقريته.

قال: أما كان أولى بك أن تنسب العبقرية إلى نفسك لا إلى قولك؟

قلت: بل وصف القول أجدى.

قال: لماذا؟

قلت: مديح الجزء يضمن مديح الكل، وليس العكس صحيحاً.

قال: فما بالك تؤاخذني بالأجزاء الغائبة قبل الحاضرة؟

قلت: كنت ولازلت أظن أنه كان ينبغي لك أن يكون من تلاميذك الأوائل فلان وفلان ممن تصطفيهم الآن وتختصهم بحبك.

قال: وهل كنت أخطب على خطبة إخواني؟ وآخذهم من أقسامهم؟

قلت: لم أقل ذلك، وفي وسعك أن تتأكد من هؤلاء اليوم عن شعورهم حين اختاروا العمل في تلك التخصصات حين لم يروك تلقى إليهم بنظرة عين حانية ولا حتى مشجعة.

قال: لن أدخل معك في حوار لأنه يبدو لي أنك تملك أسرارا عن كل حالة، لكني أسألك: وهل فعل غيري هذا الذي تطلبه؟

قلت: نعم.

قال: حدثني.

قلت: كان لأستاذ الأشعة ابن، وكان جديرًا به بالمنطق الغبي أن يخلي له الطريق، لكنه ذهب بنفسه إلى أحد النوابغ من زملاء ابنه وألّح عليه إلى درجة الإجبار حتى طلب التخصص في الأشعة.

قال: لم أكن أعرف ذلك قبل اليوم، ولا أظنك ألفت هذه القصة من فورك، لكني أعترف لك وأشهد له أنه كان مصيبا في هذا الاختيار إلى أبعد حد ممكن، فهذا الذي تتحدث عنه هو أفضل تلاميذه في رأيي، لكني أعجب من قولك إنه أجبره.. هل حدث هذا فعلا؟

قلت: شيء قريب من هذا.

قال: حدثني... هل يمكن مثل هذا بالقانون؟

قلت: نعم.. بالتكليف.

قال: وهل حدث مثل ذلك من قبل؟

قلت: لابد أنه قد حدث في أزمنة كانت تعلي من الشأن العام على الخاص.

قال: وأين مثل هذا التصرف من معنى الحرية؟

قلت: ألم تكن حضرتكم في بداية حديثنا اليوم الذي حولت القضية من قضية تربية واختيار إلى قضية جبر واختبار؟

قال: ماذا تعني؟

قلت: إذا غابت التربية قبل الاختيار، فالأفضل أن يأتي الجبر قبل الاختيار.

قال: كأنك تريد أن تقول: إن الاختيار خطوة تابعة لابد أن تسبقها خطوة أولى هي الجبر أو التربية؟

قلت: نعم.

قال: وهل يمكنك بمواهبك أن تحول قضية الجبر والاختيار في الفكر الإسلامي لتكون قضية الجبر والتربية؟

قلت: لا أظنني مؤهلا لهذا.

قال: لم؟

قلت: لأن أستاذ الفلسفة الإسلامية لم ينجح في إغوائي أو استقطابي لأكون من دارسيها.

قال: هذا من فضل الله.

قلت: عليّ وعلى الفلسفة.

قال: اسمع يا محمد.. لقد وترتني اليوم بما فيه الكفاية، ولم يحدث هذا في أي حوار لي معك من قبل، لقد جعلتني أحس بذنوب لم أكن أتصور أنني اقترفتها، دعك من تأثيرها السلبي عليّ فقد دفعت الثمن، لكني أتصور نفسي الآن عاقا بهؤلاء الذين أحبوني ولم أمد يدي إليهم، وأتصور نفسي عاقا بهؤلاء الذين عرضوا أنفسهم عليّ وخيبت آمالهم، بل إني أتصور نفسي عاقا في حق الذين لم أدافع عنهم بما ينبغي في المعارك الصغيرة (أو الكبيرة) التي خاضوها.

قال أستاذي هذا كله في نغمة حزينة، وقد أوشكت عيناه على البكاء، وصار إلى حالة

من حالات الوجد الصوفي، الذي يحس الإنسان فيها بالتسامي بعد أن يعترف بالخطأ.

****

لم يكن من السهل عليّ أن أتصرف في هذا الموقف الذي دفعته فيه بأستاذي إلى ما لم أكن أظنني أدفعه إليه ، ووازنت بين سعادته بهذا التسامي الصوفي وبين ضيقه من هذه الذكريات المزعجة .. ولم أصل إلى تصور سريع لما ينبغي عليّ أن أقوله في هذه اللحظة لكني مع هذا قلت لأستاذي: لا عليك من هذا كله، إنما هي تمارين منطقية أتأمل بها الحياة، وربما أني أنا المخطئ، وعلى كل حال فلننعم بالأثر الجميل الذي يقول: لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع.

قال: لكني متوتر.

قلت: وعندي لك قصة تزيل هذا التوتر إلى الأبد.

قال: للأبد؟

قلت: للأبد.

قال: لم أسمع بمثل هذا الدواء من قبل، لكني أعدك أن أعترف لك بالعبقرية لو كانت قصتك دواء أبديا.

قلت: لقد تضخم رصيدي من اعترافاتك ومكافآتك ولم يعد بنك مصري قادرا على صرفه، وسأعيش وأموت من دون أن أستوفى حقوقي المشروعة والموعودة عندك.

قال: لا تحزن فستصرفها إن شاء الله متجمدا ضخما.

بدأت في حكاية القصة التي ملخصها أن أستاذا كبيرا عمل في كلية الطب في مدينة قاصية وقاسية في ذلك الوقت وهي أسيوط، وبعد إلحاح منه على مدير الجامعة أعلنت الجامعة عن رغبتها في تعيين معيد في تخصص الأستاذ لكي يتأهل بالدكتوراه فيكون مدرسا يحمل بعض العبء عن الأستاذ الذي كان يرأس أقسام الباطنة كلها في الكلية والمستشفيات.

واختارت الجامعة من بين المتقدمين للإعلان أفضلهم، وكان قد ناقش رسالة الدكتوراه وينتظر أداء الامتحان للحصول على درجة الدكتوراه، وعين هذا الشاب النابه، وجاء إلى مدينة أسيوط وتعرف بالأستاذ، وطلب منه الأستاذ أن ينقل امتحانه لدرجته العلمية إلى أسيوط مادام قد أصبح معيدا في كليتها، وفعل المعيد ما طلب منه وجاءت ليلة

الامتحان وسهر الأستاذ والمعيد معا إلى قرب الفجر.

وفي الصباح ذهب الأستاذ ليوزع أوراق الامتحان على الفروع المختلفة، فلما وصل إلى حيث ينبغي أن يجد المعيد وجد مقعده خاليا، فسأل عنه أعضاء لجنة الامتحان فأجابوه بأنه حضر مبكرا وترك رسالة مغلقة للأستاذ وانصرف، ولم يشأ أن يوقع في كشوف حضور الامتحان.

فض الأستاذ الرسالة فوجد المعيد يعتذر له عن سفره لا لشيء إلا لسبب واحد فقط وهو أنه أحس الغدر من الأستاذ الذي اصطفاه وسهر معه حتى الفجر، ومع هذا فإنه لم يشأ أن يحدثه عن الامتحان، ولا عن مضمونه، مع أن الامتحان تحصيل حاصل لحاصل يتمناه الأستاذ بأكثر مما يتمناه الطالب نفسه، ونظر الأستاذ في ساعته فوجد أن موعد تحرك القطار من أسيوط إلى القاهرة قد مر.

قال أستاذي: سواء أكانت قصتك هذه حقيقة أم كانت خيالًا فإني أشهد لك أنها أزالت توتري.

قلت: لكن البطل فيها لا يزال متوتراً.

قال: سأنصحه بأن يأتي لعلاج توتره على يديك.

قلت: لا أظنني قادرًا على هذا.

قال: تعجبني فيك لمحات تواضع نادرة تزيل بها الشك في أنك لا تعرف التواضع.

قلت: وماذا ترى في تواضعي؟

قال: هو نادر الحدوث.. وهو نادر المثال.

قلت: وهل تغفر الخصلة الثانية للأولى؟

قال: وللثانية كذلك.

قلت والعبرة تخنقني: أأنا مذنب في كل الأحوال؟

قال: بل مجرم في جميعها.. لكنه من فضل الله عليك، وما رأيت فضل الله على أحد يفوق فضله عليك، لولا أنك محسود ومستحق للحسد، على نحو ما أنك مستحق لفضل الله.

ومد أستاذي يده بمنديل يكفكف دمعي الذي سبق منديله.

## الفصل الرابع
## الانقباض بلا تقصر

قال أستاذي: ما بال علاقتك برئيس القسم مضطربة هذه الأيام؟

قلت: ليست المرة الأولى.

قال: لكني أسأل عن هذه المرة.

قلت: ولكني في تفسيري أو إجابتي أحب أن أعود إلى المرة الأولى.

قال: كأنك تريد أن تقول: إنني المذنب؟

قلت: العفو.. لكني أريد إيضاح الأمور.

قال: فإذا قلت لك: إن الأمور واضحة بالنسبة لي، فلماذا لا تجيبني عن المرة الأخيرة؟

قلت: إن وضوحها في الماضي يكفي لتفسير سببها في هذه المرة.

قال: لكني أرى الأمر مختلفا.

قلت: لا أراه كذلك.. وسألخص لك الأمر بطريقة طرف رابع بعيدًا عنا نحن الثلاثة، وهو طرف يمثل نموذجًا بارزًا للبراجماتية.

قال: ومَنْ هو؟

قلت: زميلنا الذي يحمل اسمًا مشتقًا من نفس المعنى الذي يحمله اسم رئيس القسم.

قال: عرفته.. وهو حقًا كما وصفته، بل إنه وصل في براجماتيته حدودًا لم يصلها غيره، وإن كان أحد لم يلاحظ ذلك.. حدثني ماذا قال.

قلت: إنه لا يكف عن طرح نظريته القائلة بأن علاقتي برئيس القسم الحالي مرآة لصورتي في الحياة العامة، فإذا أقبلت عليّ الدنيا يصبح وكأنه صديق صفي، وإذا أدبرت يصبح وكأنه عدو متنمر.

قال: الرؤية قاصرة، والتفسير قاصر أيضاً، والفكرة سيئة.. لكن ما رأيك أنت فيما قال زميلك؟

قلت: إن الأمر يحتاج تعديلًا جوهريًا في الصياغة.

قال: وما هو؟

قلت: أظنك تدركه.

قال: لا تعذبني وهات ما عندك.

قلت: إن الأمر لا يتعلق بصعودي ولا توقفي عن الصعود، وإنما يتعلق بمدى علمه هو بالصعود أو التوقف عن الصعود.

قال: وما الفرق إذا كان صعودك ملحوظًا للكافة وإذا كان توقفك عن الصعود وقوفًا من أجل درجة أخرى في السلم؟ وهذا هو الصعود الطبيعي.

قلت: لكن رئيسنا لا يفهم هذا المعني.

قال: زدني إيضاحاً.

قلت: ربما أصدمك بحقيقة مذهلة، وهي أن صاحبنا هذا لا يؤمن بوجود طورين من أطوار الدورة القلبية.

قال: يبدو أنك مفترٍ، وأني لم أعرف حتى الآن أنك مفتر.. ماذا تقول؟ هل يمكن لأستاذ قلب أن ينكر ما يتضمنه أول درس من دروس علم الفسيولوجيا الخاصة بتخصصه؟ لن أقول لك : إنه لا يمكن لمثلي تصديق هذا من مثله، ولكني أقول إنه لا يجوز لمثلك أن يدعى بمثل هذا عن مثله.

قلت: دعنا من المثل ولنكن في الأصل، فالأصل موجود.

قال: تريدني أن أنخدع بالتدريج وأصدق ادعاءك المفترى؟

قلت: لا أريدك أن تصدق، ولا أن تكذب، لكني أريدك أن تجرب لترى الحقيقة بنفسك، وتسمعها بأذنيك، وهو يقول ما يعتقد بنبرة واثقة وصوت عال ويقين ليس إليه من شك!!

قال: وكيف لي أن أجرب مثل هذه المحاولة الحمقاء؟

قلت: إنك لن تعدم السبيل.

قال: هبني عدمت السبيل فكيف يمكن لك أن ترشد مثلي إلى طريقة للعب هذه اللعبة؟

قلت: ألنا الذي أرشدك إلى الطريق غير المباشر في السؤال وفي الجواب وأنت العمدة في هذا؟

قال: هأنذا أسلم لك، قل بالله عليك كيف يمكن لأستاذ عجوز مثلي أن يختبر ادعاء أستاذ نابه مثلك في أستاذ قديم مثل صاحبنا رئيس القسم؟

قلت: هل لنا أن نقف لنعدل بعض الصفات في حديثكم قبل أن نمضي؟

قال: تذكرت.. ستعدل لي كلمة عجوز لأنها لا تكون إلا في وصف المرأة، لكني أراها أخف وطأة من كلمة مسنّ التي ستمنحنيها.

قلت: يا سيدي لن أفعل ذلك.

قال: فماذا تفعل؟

قلت: أقول: أستاذ عمدة أو الأستاذ الأكبر، وأقول عن صاحبي إنه أستاذ متوسط.

قال: يبدو أنك تقمصت اليوم ثوب الافتراء فلا تريد أن تخلعه أبداً.

قلت: سوف أنضو الثوب عني.

قال: وما هذه؟

قلت: تعرفها ويعرفها كل المستمعين لأم كلثوم، فقد اختارها أحمد رامي لترجمة المعنى الدقيق الذي وضعه عمر الخيام.

قال: الله يرحم العباد ويثيبهم عما أدوه للعربية من خدمات.. لابد أن أعترف لك يا محمد أني معجب أيما الإعجاب بقولك : إن أم كلثوم خدمت لغة القرآن بأكثر مما خدمته جهود كثير من علماء الأزهر.

قلت: هذا في الأصل قول مصطفي أمين.

قال: يا سيدي إنما بلغني على لسانك.. ولكن عد بي إلى صاحبك كيف يمكن أن أنصب له الشرك لأعرف ما تدعيه عليه من الجهل!!

قلت: ليس ما أقوله إلا بعضًا مما علمتنيه من التلطف.

قال: هلا أوصلتني إلى ما تريد قبل أن يضيع منا الوقت.

قلت: ما ظنك بالطورين اللذين يرى رئيسنا أنه لا وجود لهما في الدورة القلبية؟

قال: هل هيأ لك الغرور أني لا أدركهما وأنا الذي حدثتك عن المستوى الأفقي من الدرجة التي تقف عليها قبل أن تصعد مستواها الرأسي؟

قلت: وهل تظنني من الغباء حتى أصل إلى هذا القرار؟

قال: فما بالك تسأل؟

قلت: فما بالك لا تجيب؟

فأجاب بالإنجليزية.

قلت: فإذا كنا لا نفهم الإنجليزية؟

قال: هما طور الانبساط الإسوي أو متساوي الحجم، وطور الانقباض الإسوي أو متساوي الحجم.

قلت: ها قد وصلنا.. ما عليك يا سيدي إلا أن تقول لرئيس القسم في حيادية وبراءة إن واحدًا من أساتذة الكلية في قسم غير قسمنا قد قابلك، وشكا لك مني أنا، وقال لك : إنني أقول للطلاب في الدراسات العليا إن في القلب انقباضًا بلا قصر، وانبساطًا بلا طول، وإنك أنت لا تعرف ماذا أقصد بهذه المصطلحات الفلسفية، وهل إقحامها في تدريس الطب يفيد أم يحول الطب إلى مادة أزهرية؟

قال: كأنك لا تزال تعاقبني على قول قلته من أعوام ولم أكن أقصد به إلا إبداء بعض الإعجاب المستتر بك وبطريقتك في التدريس.

قلت: لكنك لم تسبق القول بإبداء الإعجاب، وإنما بما هو أقرب إلى النقيض من هذا، وهكذا استقبله السامعون على أنه نقد وربما سخرية.

قال: وأنت لا تضيع الفرصة في استخلاص حقك.

قلت: وماذا بوسعي أن أفعل؟

قال: تقفز ، وتغفر.

قلت: أستغفر الله.

قال: فما بالك بهذا الذي قلته من أن هناك انقباضًا بلا قصر، وانبساطًا بلا طول؟ الحق أقول لك : إن رئيس القسم معذور في ألا يصدق وجود هذين الطورين في دورة القلب.

قلت: أليس التمهل والتأمل كفيلين له بإدراك الحقيقة؟

قال: الحق أقول لك: في ظل غطرستك ليسا كفيلين..

ولولا أن شعري قد شاب ما أدركت أنك تقول الحق..

ولو كنت أنا المشكو إليه ما أنصفتك..

ولو كنت طالبًا ما صدقتك.

قلت: فما بالك أن الطلاب صدقونني وأصابهم الانتشاء لأنهم فهموا.

قال: سحرتهم كما هي عادتك.

قلت: وما بالك أن زملاءنا في القسم يعبرون عن السعادة القصوى بهذا الوصف لهذين الطورين؟

قال: لأنهم يحبونك، ويحبون أسلوبك فيما مضى، وقد جربوه فوجدوه يسهل عليهم الفهم والحفظ والاستذكار.

قلت: وهل يطلب من الأستاذ غير هذا؟

قال: نعم.. وبالثلث.

قلت: تريد أن تقول إنه يطلب من الأستاذ أن يترك للعلم بعض الغموض الذي لا يجعل طلابه يحسون بأنهم تعلموا وعرفوا كل شيء .

قال: هو ذاك، ولو أني يا محمد أعترف لك أني لا أستطيع أن أعبر عن المعنى بهذا الوضوح الذي عبرت به.

قلت: لك الفهم ولي التعبير.. والفهم أعلى.

قال: بل التعبير أعلى.

قلت: لا يأتي التعبير من غير فهم، ولا يحتاج الفهم إلى تعبير، فمن غيرك لا أكون، ومن غيري تكون.

قال: أشكرك، ولكن قل لي بربك : هل تفعل برئيس القسم بعض ما تفعله بي الآن؟

قلت: في بعض الأحيان.

قال: إذًا فاحمد الله على أنه يحبك في بعض الأحيان، ولو كنت مكانه ما أحببتك لحظة.

قلت: لكنك كنت مكانه اثنى عشر عامًا وكنت تحبني بأكثر مما تتوقع، وبأكثر مما أتوقع، وبأكثر مما هو معروف.

قال: لا تنس فارق السن.. إننا نحب الأبناء الذين أنجبناهم ونحن كبار بأكثر مما نحب أولئك الذين أنجبناهم ونحن في فورة الشباب.

قلت: أهي بنوة ؟

قال: لا أريد أن أصدمك بالحديث عما يكون بين الأخوة الكبار والصغار.

قلت: لا تتعب نفسك فقد صدمتني بالفعل من قبل، ولولا صدمتك ما عرفت الحقيقة.

قال: متى صدمتك يأيها المفترى؟

قلت: ألم أقل لك في البداية إننا في حاجة إلى العودة إلى المرة الأولى.

قال: أولازلت تريد أن تستوفي حقك مني؟

قلت: إنها أضيء المواقف.

قال: ما فائدة الضوء في وضح النهار؟

قلت: يلون الأشياء.

قال: فإذا لم تكن في حاجة إلى تلوين.

قلت: يثبت نفسه.

قال: فليثبت نفسه لنفسه، أما أنا فإني أقرأ الحقيقة في كتاب مفتوح.

قلت: لكن حضرتك الذي بدأت حوارنا اليوم بالسؤال عما بيني وبين الرجل.

قال: لم أكن أقصد السؤال، وإنما كنت أقصد إظهار التعجب بموقفك الصارم الذي جعله لا ينام ولا يصحو منذ ثلاثة أيام.

قلت: إنك تبالغ.

قال: فاذهب إليه حتى ينام، فإن في ذهابك ثوابًا لو تعلم قدره ما توانيت عنه.

قلت: يكفي ثواب الطاعة.

قال: وهل أهمتك الطاعة من قبل؟

قلت: ربما.

قال: ودع عنك فكرة الانقباض بلا قصر، والانبساط بلا طول.

قلت: فدعني أضبط لك المصادر ليكون النص أجمل: إنها الانقباض بلا تقصر، والانبساط بلا تطول.

قال: سواء أكان الأمر بقصر أم بتقصر أم بطول أم بتطول فإن رئيس القسم لن يصدق

حدوث هذا أبدا.

قلت: إنه في كل حياته لا يؤمن بغير الاندفاع، وبغير الاقتناص، وبغير الاستحواذ والوصول إلى كل ما يشتهيه عنوة واقتداراً.

قال: وسوف يجد عقاب هذا كلما تقدمت به السن.

قلت: لكنه يظن نفسه فوق القانون.

قال: وسوف تأتي عليه لحظات يبحث فيها عن القانون لينقذه.

قلت: لكنه سعيد بكل ما استحوذ عليه مما لا ينبغي له.

قال: سوف يتعذب بكل ما استحوذ عليه بحق وبغير حق.

قلت: لكنه أقرب الناس إلى منطق نتشة.

قال: بل إني أقول لك وأنا متأكد: إنه هو النموذج البارز للتتشوي الذي لم يقرأ نتشة على الإطلاق، وهو الدليل على أن نتشة لم يبتدع مذهبه، وإنما عبر عن بعض مَنْ نصادفهم في الحياة من أمثال صاحبك.

قلت: لكن هذا كله ليس مبررًا له لأن يكفر بما انتبه إليه العلماء في شأن دورة القلب على سبيل المثال.

قال: أليس عندك تفسير؟

قلت: إنما غلب علمه بالحياة على علمه بعلم الحياة.

قال: هو ذاك يفتح الله عليك.

قلت: لكن الاعتماد على مثل هذا العلم الفردي أو الظاهري يقود صاحبه إلى الكفر بالعلم الحقيقي.

قال: ومَنْ أدراك أنه يؤمن به؟

قلت: إلى هذا الحد وصل تقييمك له؟

قال: نعم.. ولكني أتقي وأتوقي.

قلت: كأنك لن تفعل ما أشرت به عليك من قصة الأستاذ الذي قابلك، وروى لك ما روى.

قال: إذا كان المتكلم مجنونًا فالسامع عاقل.

قلت: وإذا كان المتكلم عاقلاً.

قال: السامع عاقل في كل الأحوال.

قلت: وما جدوى ما ألفته لك؟

قال: لن تضيع عليك فائدته.. تكتبه لقرائك المعجبين بك حتى يزدادوا إعجاباً.

قلت: فإن لم يزدادوا إعجاباً؟

قال: تزداد أنت إعجابًا بنفسك.

قلت في ابتسامة: وهل تظنني لازلت في حاجة إلى الإعجاب؟

قال: لن تشبع منه حتى تلقى حتفك.

***

## الفصل الخامس
# البحث عن أب بمواصفات إلهية

فوجئت عند دخولي عيادة أستاذي به يسألني: هل تذكر إله القلق؟

قلت: نعم.

قال: كان هنا لتوه، وحاولت أن أتذكر لماذا سميته بهذا الاسم فلم أذكر.

قلت: أنت معذور.

قال: لماذا؟

قلت: لأنه إله دائم للقلق.

قال: وهل هناك آلهة غير دائمة؟

قلت: إله الجمال وما نحوه.

قال: وهل قسم اليونان الآلهة على هذا النحو من الدوام وغير الدوام؟

قلت: لا.

قال: فلماذا تفعل في آلهتهم ما لم يفعلوا؟

قلت: إنما هذا من وحي إله القلق.

قال: لكنك لم تذكر لي كيف سميته كذلك.

قلت: كان حموه مريضًا في الرعاية المركزة، وكنتُ أنا الذي استقبلته وأدخلته الرعاية في ذلك اليوم، فلم يترك أستاذًا ولا مدرسًا من أي تخصص إلا وجاء به معه ليطمئن على حميه.. وكأنه كان ينتظرهم على باب المستشفى ويصحبهم رأسا إلى الرعاية.

قال: تذكرت.. هذا ما حدث معي بالضبط.. لكني ظننت يومها أن التسمية قديمة وأنك استدعيت التسمية في تلك المناسبة.

قلت: بل كانت التسمية من وحي اللحظة، وكنت أنتَ بحكم حقوق الأستاذية أول مَنْ سمعها واعتمدها.

قال: لم أعتمدها.

قلت: سكوتك عنها اعتماد، وعدم إنكارك لها تتويج.

قال: أوأنكرها أصحابنا؟

قلت: نعم.

قال: وذهبوا بك إلى الكفر؟

قلت: لم يذهبوا وإنما حذروني.

قال: وماذا فعلت؟

قلت: قدمت لهم خليطا من الميثولوجيا اليونانية والكوميديا المصرية.

قال: وهل تناولت الكوميديا المصرية موضوع آلهة اليونان؟

قلت: طوعتها لهذا.

قال: فارو لي.

قلت: ابتليت في فترة من الفترات بموظف في غاية الغباء كان يعمل مساعدًا لي في إحدى الهيئات التي عملت مستشارًا لها، فلما يئست من إصلاح فكره وطبعه سميته «إله الغباء».

قال: يعجبني أنك تقول يئست من إصلاحه، وكأنه آلة أو أداة.. أو تقصد هذا؟

قلت: نعم.. فقد كان لا يزيد على هذه أو تلك.

قال: وما الفرق بينهما بالمناسبة؟

قلت: الأداة تؤدي عملها دون حاجة إلى طاقة.. والآلة تحتاج إلى الطاقة.

قال: أوعرف العرب الطاقة؟

قلت: إن لم يعرفوها بتعريفاتها فقد عرفوها بذاتها.

قال: أظنك تجاملهم.

قلت: لا تندهش يا سيدي إذا ذكرت لك أن للشاعر العراقي معروف الرصافي قاموسا للآلة والأداة عند العرب.

قال: أعرف بعض شعره لكنني لا أتصوره مهتما باللغة إلى هذا الحد.

قلت: يصعب أن تجد شاعرا لا يهتم باللغة.. إنما يخفي بعضهم اهتمامهم.. ولا يمانع

آخرون في ظهوره.

قال: لكن هذا لا يعني أن يؤلفوا قواميس متخصصة مثل صاحبك الرصافي.

قلت: لكن هذا حدث بالفعل.

قال: إذًا متى تؤلف لنا عن الآلهة المصريين الكوميديين؟

قلت: هم أكثر من أن يحصرهم كتاب.

قال: لك الحق.. لكن إلى أي حد وصل إله الغباء؟

قلت: فوجئت به ذات يوم في مطعم كبير ضمن أسرته مع والده ووالدته واثنتين من شقيقاته.

قال: وكيف أخبرتهم أنه إله الغباء؟

قلت: وهل تظنني فعلت هذا؟

قال: لا أظنك قد فوت هذه الفرصة.

قلت: لكني كنت حريا بأن أخاف الأبوين.

قال: وقد استطعت بالطبع التغلب على هذا الخوف بصياغة مراوغة.

قلت: أصدقك القول إن هذا لم يحدث.

قال: إذًا فأنا لا أعرفك تماماً.

قلت: بل تعرفني.

قال: إذًا ماذا حدث؟

قلت: خذ نفسا عميقا.

قال: أخذته.

قلت: إن إله الغباء هو الذي قدمني لأسرته وتولى إخبارهم بالوسام الذي وضعته على صدره.

قال: هذا أمر منطقي.. لكن كيف فاتني التفكير فيه؟

قلت: لأنك لم تعرف إله الغباء من قبل.

قال: وماذا كان شعور الوالد؟

قلت: دعني أسألك عن شعور إنسان عادي يجد نفسه فجأة والدًا لإله؟

قال: لم أخبر هذا من قبل.

قلت: لكن في التاريخ بعض ما يشبهه.

قال: هات ما عندك.. ولا تطل.

قلت: الأمر لا يحتاج تطويلا ولا اختصارا، فقد كان الإسكندر الأكبر مولعا بفكرة أن يكون ابنا من أبناء الآلهة، ولم يكن راضيا تماما عن أن يكون مجرد ابن لهذا الأمير العظيم فيليب المقدوني.

قال: لو صح هذا فقد زدت في احترامي للإسكندر.

قلت: هذا صحيح. لكن احترامك هو الغريب.

قال: أتدري لم؟

قلت: لا أدري.

قال: لأنه لم يشأ أن يكون هو الذي ارتفع بقدر نفسه عامدا متعمدا، وإنما صور الأمر كأنما لم يدرك الناس حقيقة معدنه وجوهره، وأنه حري بأن يكون ابنا لإله.

قلت: وما العظمة في هذا؟

قال: هل تذكر قادة الانقلابات العربية الذين منحوا أنفسهم رتب المشير والفريق.. إلخ؟

قلت: أذكرهم.

قال: ليس لي شأن بهم لكنني أقارنهم بمَنْ احتفظوا لأنفسهم بعد الزعامة برتب متوسطة... ولا أكذبك القول إني أحترم ثقة أصحاب الرتب المتوسطة في أنفسهم إذ بقوا عقداء مثلًا ولم يرقوا أنفسهم فرقاء أو مشيرين مع أن هذا كان في وسعهم.

قلت: لكنك ربما لا تعرف أن بعض هؤلاء لم يكونوا عقداء ولا قريبين منها، وإنما رفعوا أنفسهم حين تمكنوا من السلطة إلى هذا المستوى البروتوكولي الذي كان بالنسبة لهم كبيرا جدا.

قال: لا أريدك أن تتوهني فيما لا أعرف، لكنني أريد أن أقول : إن الإسكندر كان ذكيا فلم يؤله نفسه، وإنما صور الأمر على أنه ابن إله لم يعرف الناس حقيقته، وأن الوقت حان

ليعرفوها.

قلت: وترى سيادتكم أن هذا خير من التأله أو التأليه؟

قال: بلا... شك.

قلت: مع أن النتيجة واحدة.

قال: لا.. إن النتيجة مختلفة، لكنها على كل حال تخرج من موضوع آلهتنا المعاصرة، سواء إله القلق وإله الغباء.

قلت: منكم نتعلم، وإن كان الإسكندر صاحب فضل علينا جميعا ينبغي لنا أن نجامله لأجله.

قال: وما هو ؟

قلت: إنشاؤه الإسكندرية.

قال: إنما أنشأها لنفسه.

قلت: لكننا لا نزال نبتهج بها.

قال: وقد أنشأ غيره غيرها.

قلت: لكننا لا نستمتع إلا بالإسكندرية، وبعض حبي لها من صنعك.

قال: صدقت.. ولكن قل لي: هل وجد الإسكندر الأكبر ضالته؟

قلت: نعم.

قال: ومَنْ وجد له أباه الإله؟

قلت: هل تصدقني؟

هنا ابتسم أستاذي وقال :يبدو لي أنك ستقول : إن المصريين هم الذين «وجدوا» له أباه الإله.

قلت: حدسك صادق لكني كنت أريدك أن تقول إنهم «اخترعوا» بدلا من أن تقول «وجدوا».

قال: بالطبع «اخترعوه» لكنهم قالوا له : إنهم «وجدوه».. لكن مَنْ هؤلاء المصريون الأصلاء ، من أجدادنا، الذين فعلوا هذا بالإسكندر؟

قلت: إنهم كهنة معبد سيوة، وقد صوروا له أنه ابن الإله آمون.

قال: ألهذا جاءهم؟

قلت: ولهذا سيظل يعود إليهم.

قال: لأنه إله؟

قلت: بل لأنه ابن إله.

قال: آه.. لقد نسيت، قلت: لكن خبرني هل فعل أحد من الأدباء بنفسه مثل هذا؟

قلت: نعم .. كانت أم موباسان صديقة للكاتب فلوبير، فلم يشأ موباسان أن يفوت الفرصة في أن ينسب نفسه ولو بالإيحاء إلى هذا الأديب النابه.. حتى إنه وضع رواية يتعذب بطلها، لأن أمه ولدته لتاجر بسيط، بينما يفخر بطلها الآخر بأمه لأنها حملت به سفاحًا من أب ذي شأن.

قال: ألهذا الحد وصل؟

قلت: نعم.. ولا تنس أنه فرنسي من الذين يجيدون اللعب بالحرية لكنه في الواقع لم يقل إنها قصته.

قال: وهل كان بحاجة إلى أن يقول؟

قلت: لم يكن بحاجة.. لكنه لم يشأ أن يتخل عن الفكرة.

قال: وهل كتب سيرته الذاتية؟

قلت: وهل كان بحاجة إلى أن يكتبها؟

عند هذا الحد فوجئنا بسكرتير العيادة ينبئنا بقدوم مَنْ أسميناه «إله القلق».

قلت لأستاذي: ألم ينصرف لتوه؟

قال: لكنه إله القلق.

دخل زميلنا بسرعة فاستمع دون قصد إلى أستاذي وهو يذكر « اسمه الحركي » فابتسم واعتذر عن عودته مرة أخرى لأنه لا يزال قلقًا على حالته التي سأل عنها منذ نصف ساعة.. وقال زميلنا العزيز ضمن ما قال من اعتذار: إذا لم تعذروني وأنا «إله القلق».. فمن تعذرون؟

قلنا: بل نحن بك سعداء...

وكانت هذه هي الحقيقة.

فقد كان الرجل .

حبوبا بحبوحا.

دمث الخلق،

حسن النية.

سليم الطوية..

ولا يزال سعيدًا بهذا اللقب.

*****

# الباب الثاني

# حوارات في التشكل

## الفصل السادس
## صاحب الدور

قال أستاذي : سمعتك بالأمس تثني ثناء جمًا على أخلاق الأستاذ «فلان» وكان هذا الأستاذ هو تلميذه التالي له في الأستاذية .. فعجبت !!.

قلت: أظنك تعتقد أن خلافنا أبدي.

قال: وهل أنا مخطئ؟

قلت: ما أنت مخطئ.. لكنني مع خلافي العملي معه مقر له بأخلاقه الكريمة إلى أبعد الحدود.

قال: هل تحدثني كيف بدأ خلافكما؟

قلت: على يديكم الكريمة!

قال: إني في حالة معنوية لا تسمح بقبول الاتهام، ولا بالدفاع ضد الاتهام، فأجل هذا الحديث ولك عليّ حق.

قلت: وماذا أفعل فيما مضى من عمري.

قال: لم يضع هدرًا، وأحمد الله.. لكن خبرني بربك لماذا كنت تتوجس منه الشر على الدوام؟

قلت: سأخبرك بما لم أخبر أحدًا من قبل بحديث الخصال الخفية لهذا الرجل.

قال: أله خصال خفية لا يعرفها الناس؟

قلت: كثيرة جداً، وهذا هو سر تميزه أو تطرفه.

قال: تكفيني واحدة على سبيل العينة.

قلت: لقد أنعم الله عليه بنعمة تذكر دقائق العلم، وحرمه نعمة تذكر دقائق الأسماء.

قال: وماذا كان نتيجة ذلك؟

قلت: كان نتيجة هذا أن أحكامه في العلم صائبة جداً، وأن أحكامه في الحياة خاطئة جداً.

قال: اخرج بي من النظري إلى الأمثلة الدالة.

قلت: بل أروي لك ما هو أطرف من ذلك.. كنا ونحن أطباء مقيمون إذا بدأنا عملنا في الصباح ووصلت الساعة العاشرة توقعنا أن يأتي ويسأل أول ما يسأل عن أحد الزملاء بالذات، وسرعان ما يردف سؤاله بالسؤال عن أي يوم من أيام الأسبوع نحن فيه، ويردف أوتوماتيا بأن هذا اليوم ليس من أيام عيادة النفسية التي له أذن في أن يحضرها من أجل رسالته، كان يقول هذا حتى في أيام عيادة النفسية ونحن نكتم ضحكاتنا من تركيزه على تصوير هذا الزميل غائبا ومهملا.. وبعد فترة كان زميلنا نفسه إذا أحس بأنه قدم إلى باب القسم اختفى عن وجهه حتى لا يراه، فقد أصبحت رؤيته أثقل على نفس زميلنا من أن يسمع هذا الاتهام المتكرر غير المبرر.

قال أستاذي: وهل اشتهرت هذه القصة؟

قلت: إلى حد بعيد.

قال: لكنها لم تصل إلى مسامعي أبداً.

قلت: كنا في زمن كان فيه هذا الرجل مقدسًا من مقدساتكم.

قال: إلى هذا الحد؟

قلت: وأكثر.

قال: وما هو الأكثر؟

قلت: في الأمر تجاوز.

قال: لم يعد هناك تجاوز بعد كل ما مر بنا.

قلت: كان الناس يسمونكما الشيخين ويسمونه الشيخ الكبير ويسمونك الشيخ الصغير.

قال: ما دليلهم؟

قلت: يقولون وعندهم بعض الأدلة (التي لا أوافقهم على حجيتها ) أنه كان يتظاهر دائما بأنه غيّر أو عدل قراركم ، بل إنه (حسب روايتهم ) كان أحيانا ما يدفعكم إلى قرار ثم يدفعكم إلى تعديل للقرار بعد أن يكون قد أبدى لزملاء أنه معترض على قراركم الأول.

رد أستاذي في بساطة شديدة وقال: إذًا فقد كان معهم حق لو كان قد نجح في صناعة

الصورة على هذا النحو.

قلت : هل كان عندك فكرة بهذه التسمية.

قال : أحيانا كنت أسمع تعبير الأساتذة بـ «الشيخان» ولا أفهم بالضبط ما يقصدون.

قلت: فماذا كنت تظنهم يتحدثون عنه في الأحيان الأخرى ؟

قال: كنت أظنهم يتحدثون كما أخبرني أحدهم عن كتاب طه حسين الذي كان مقررًا على أبنائهم في الثانوية العامة.

قلت: وكيف كنت تفهم بقية الجملة؟

قال: كانوا يقولون : إن كتاب «الشيخان» صعب جداً، فيرد أحدهم ويقول : إنه اكتشف بالأمس أنه سهل ، ويعود ثالث في يوم ثالث ليلومه.. ويأتي رابع فيقول : إن الكتاب دمه ثقيل، فيرد عليه زميله بأنه ليس كذلك في كل صفحاته.. ثم تدور المناقشات عن الشيخين والفروق بينهما ، وهي في الواقع الذي فتحت عيني عليه الآن ليست إلا الفروق بيننا ، وليست بين خليفتي رسول الله ﷺ ، وكان الحديث يدور هكذا بالفعل ، ولم يدر بخاطري أن هناك شفرة ، ولها حل.

قلت: إذًا فعليك بمكافأتي.

قال: أفعل إن شاء الله .. لكنني ألاحظ أن المثل السابق الذي ذكرته ليست له علاقة بك.

قلت: إن كنت تريد شيئا لصيقا بي فإني أقول لك: إنه في كل أحوال الشر كان لا يتذكر إلا اسمي، فكان على سبيل المثال (وهو مدرس لم تختلط عليه ذاكرته بعد ) إذا تحدث عن انتقاد ناسبًا إياه إلى أحد الزملاء وسُئل عمن فعل هذا الفعل المنتقد لا يستحضر إلا اسمي، حتى إذا كان اسمي قد ورد في الشهادة نفسها على خلاف ما يرويه، أى أن أكون مكتشفا للخطأ أو مصوبا له أو معارضا للتصرف أو ضحية له .

قال: كنت ألاحظ ذلك.. وكنت أظنه يتصيد لك الأخطاء.. وإني أذكر أني قلت له ذات مرة : إن بعض الأخطاء التي ينسبها إليك هي على النقيض من أدائك الذي يصوره، فعاد واعتذر ، وقال: إنه يقصد شخصًا آخر فأخطأ ، وذكر اسمك، بل إني أذكر أنه قال لي ذات مرة: إنه تعود ألا يتذكر من الأطباء المقيمين إلا اسمك.

قلت: وقد تكرر هذا بعدد أيام السنة.

قال: لا تبالغ.

قلت: بل بقيمة عدد أيام السنة الجملة مضروبًا في خمسة على الأقل.. وأكون كاذبا لو أخفيت عنك بقية الصورة فقد نفعني تصرفه المتكرر من حيث شخصه الزملاء كبارًا وصغارًا على أنه غيرة.

ضحك أستاذي وقال: إني كنت أحس أنك محظوظ بهجومه الدائم عليك، وقد عبرت عن هذا المعنى لأحد محبيك، فقال: إنك واعٍ جدا لهذه الحقيقة ..

لكني أريد أن أقول لك الآن: ما أدقَّ تشخيصك له في عدم تحديده للأسماء، هل ألفت شيئًا يصور هذا التشخيص؟ أو هل خطفت أو حفظت من التراث شيئا يصوره؟

قلت: نعم.

قال: أهو في حدود المسموح بسماعه وروايته.. حدثني.

قلت: يروى أن رجلًا ذهب لعيادة مريض يحتضر، فدعا له الله أن يثبته في مواجهة هاروت وماروت، فعجب الجالسون وقالوا: هؤلاء رجال سحر فما علاقتهم به، قال: إنه يقصد يأجوج ومأجوج، فقال الحاضرون: إنما هؤلاء قوم انتهى عهدهم بالتاريخ منذ زمن بعيد، قال: إنما أقصد جالوت وطاغوت، فقال الحاضرون: إنهم من عهد موسى عليه السلام، وأردف أحدهم: لعلك تقصد ناكر ونكير؟ قال: هو ذاك.

قال أستاذي: ما أروع تشبيهك يا محمدا.. هل هو من اختراعك؟ لا أظنه إلا كذلك.. لكن قل لي: هل هذا هو عيبه الوحيد؟

قلت: هو نموذج لعيوبه العقلية أو الفكرية.

قال: هل تصف لي عيبا آخر.

قلت: إذا كان خلفك في رئاسة القسم لا يتخذ قراره النهائي إلا في منتصف الليل وهو تحت الغطاء وعلى وشك النوم، فإن هذا الأستاذ التالي لك في الأستاذية يتخذ قراره في الصباح الباكر، وهو يخرج من تحت الغطاء أو و هو على وشك الاستيقاظ.

قال: ماذا تقصد؟

قلت: الأول يظل يغير في رأيه حسب المصلحة وحسب مساوماته مع الأطراف المستفيدة من القرار حتى يصل إلى آخر رقم يقدمه آخر مزايد في البورصة، وهو في

السرير، فيعطيه القرار المطلوب ويقبض الثمن الأعلى.

قال: وصاحبنا.

قلت: يتمسك بالرأي الأول الذي كونه من أول تليفون يصله في الصباح.

قال أستاذي: هل قلت لك في المثل السابق : ما أروع تشبيهك.. أظنني قلت ذلك.. وأنا الآن : أقول لك: ما أبشع تشبيهك.

قلت: لكنه دقيق.

قال: هو الدقة بعينها.. كيف وصلت إلى هذه الأشياء؟

قلت: اكتويت بنارها.

قال: لا يظهر عليك أثر الكي.

قلت: وقع الكيّ في قلبي.

قال: ولا في قلبك، دعنا منك ومن شكواك التي لا تكف عن تأنيبي بها، وحدثني عن عيب ثالث من هذه العيوب الفكرية.

قلت: يمارس كل خلق معيب إلى نهايته ثم ينسبه إلى مَنْ لم يطاوعه فيه.

قال: بسط لي هذا الأمر بمثل أو قصة.

قلت: كان أحد زملائنا مسؤولًا عن ترتيب بعض التفصيلات في مؤتمرنا السنوي، فجاء يطلب موازنة للصوت، فقال له الأستاذ: إن محلات الفراشة تقدمها هدية، فقال الزميل الشاب: لكنهم لن يفعلوا هذا في هذا العام.. ولم يعد لهم علاقة بأجهزة الصوت فأهمله، لكن زميلنا كان معنيا بأداء مهمته، وكان ضروريا له أن يحصل على مال للإنفاق على الصوت، أو على الأقل على الموافقة على أن يصرف لهم من جيبه ثم يصرف المال منا.. وكلما نبه إلى هذا الموضوع كرر عليه الأستاذ نفس الجملة، وأعاد الزميل نفس الرد، فلما كانت المرة السادسة تصلب الأستاذ ، وقال لزميلنا: إنما أنت نموذج للمثل العامي: نقول لهم «طور» يقولوا : احلبوه، (المقصود ثور) ، لكن المثل بالعامية ، فانفجرنا جميعًا في الضحك؛ لأن القول كان ينطبق عليه هو لا على زميلنا.

قال أستاذي: أحدس أنه لم يفهم لماذا ضحكتم.

قلت: حتى الآن.

قال: وماذا فعلت يومها؟

قلت: أشرت لزميلي أن يتجاوز الأمر على أن نعالجه بطريقتنا وقد كان.

قال أستاذي: هل عندك من مثل على علاقاته بالمرؤوسين.. إني كنت أجد حرجًا في انتقاده في اختياره لمساعديه.

قلت: ما رأيت أحدًا مثله يقرب الفاسدين، ويبعد الصالحين.

قال: وما حكمته؟

قلت: إنه كان يجيد الانخداع.

قال: وهل هذه فضيلة؟

قلت: في زماننا.

قال: أقصد هل هي فضيلة تحتاج إجادة؟

قلت: بل هو موهوب فيها.

قال: وما السبب في هذا؟

قلت: السبب أنه ممن يؤمنون بالغيب.

قال: هل كفرت؟ هل تكفر؟

قلت: لا أقصد الإيمان بالغيب الذي هو جزء أساسي في إيمان المسلم.

قال: ماذا تقصد إذًا لقد صدمتني.

قلت: إنه يؤثر أن يؤمن بما يروى له عن أن يؤمن بما يراه بعينيه.

قال: ومن هذا جاء مصطلحك؟

قلت: نعم، فإنه لا يؤمن بما تراه عيناه قدر ما يؤمن بما تسمعه أذناه.

قال: أحقّ هذا؟

قلت: هو الحق بعينه.. ولو أنك راجعت أزماته لوجدت هذا جوهر مآسيه.

بل إن في وسعك الآن أن تسأله عن أية أزمة مرت به وستجده في وسط حديثه يقول: إنه رأي بعيني رأسه عكس ما اعتقده ولا يزال يعتقده، ومع هذا تجده ميالا إلى تأكيد إيمانه بما سمعه في البداية من حديث أو وشاية.

وما رأيت في حياتي كلها أحدًا يمكن إدانة حكمته بروايته مثل هذا الرجل الطيب.

قال أستاذي وقد تعجب من هذا الوصف : وما حكمته في هذا؟

قلت: إنه يؤمن بأذنه أكثر مما يؤمن بعينه.

قال: وما دفعه إلى هذا؟

قلت: رومانسية جميلة.

قال: أهو رومانسي؟

قلت: بل هو مثل الرومانسية الأعلى في قسمنا لكنك لا تعرف.

قال: لم حكمت بأني لا أعرف؟

قلت: لأني أعرف أنك لا تعرف.

قال: وما السبب في أني لا أعرف؟

قلت: لأنك لا تحاوره.

ضحك أستاذي وقال: هل تعرف يا محمد أنني لم أدخل معه طيلة حياتي في أكثر من حوار أو حوارين لم يمتدا لأكثر من دقائق معدودة.

قلت: أتوقع هذا.

قال: وهل يعرف الناس ذلك؟

قلت: أخذت على نفسي عهدا أن أدل كل رؤسائه على هذه الحقيقة، فيما عداك أنت فقط ، وها أنا قد قضيت على الاستثناء.

قال: ويبدو أنك نجحت في هذا.

قلت: لا أزعم أني نجحت.. ولكني متأكد من أنه هو الذي نجح.

قال: كيف حققت هذه المعادلة؟

قلت: أرشدتهم إلى أن يجربوه في حوار.. فلم يجربه أحد في حوار وتمكن من تحمله أكثر من دقيقتين.

قال: إذًا فقد كنت أنا بطلا حين تحملته خمس دقائق في هذين الحوارين.

قلت: نعم.. وهذه حقيقة لا يمكن لأحد أن ينكرها أو يقلل منها.

قال: وبماذا تشخص هذا الخلق فيه؟ هل هو متعصب؟

قلت: بل على العكس هو مرن جدا ولكن تحت الإجهاد.

قال: هل هو حرفي؟

قلت: بل أكرر أنه رومانسي.

قال: وكيف لم أدرك هذه الحقيقة.

قلت: ها أنت قد أنعم الله عليك وعرفت أن هناك مَنْ يقول بها، وما عليك إلا أن تختبره بأن تحاوره فيما أقول.

قال: فلو حاورته ونجحت في تطويل فترة الحوار.

قلت: لاكتشفت رومانسيته من بعد الدقائق الخمس الأولى.

قال: أفعل إن شاء الله، لكن قل لي: هل هذا مما يحسب له؟ أم مما يحسب عليه؟

قلت: هذا وذاك.

قال: والأغلب.

قلت: الأغلب أنه خير، لكنه إذا سلك طريق الشر عذب نفسه، وعذب الأطراف الأخرى، وخسر كل شيء.

قال: أهو محب للشر؟

قلت: أصدقك القول: هو لا يحب الشر لكن الشر يحبه.

قال: أفصح.. فإن الناس جميعًا يتهمونه بحب الشر لكني لا أحسّ في قرارة نفسي أنه كذلك.

قلت: هو لا يحب الشر، لكن الذين يديرون معارك شريرة يجدونه مناسبا لأداء أدوار البطولة فيها من دون أن يدري.

قال: وكيف يصلون إليه وإلى توجيهه للعب هذا الدور من دون أن يدري كما تقول؟

قلت: يسارعون إلى مكالمته.. في الصباح..

ويجيدون تصوير هدفهم على أنه هدف نبيل.. في الضحى..

ويستثيرون حبه للعدل.. في الظهر..

ويثنون على صلابة موقفه.. في العصر..

ويهنئونه بالانتصار.. في المغرب..

ويدعون له بالاستمرار.. في العشاء.

قال: كيف بك في افترائك وقد ربطت كل فعل بصلاة من الصلوات الخمس، فضلًا عن الضحى التي هي سنّة مؤكدة؟

قلت: ما أنا الذي ربطت.. إنما هم بحرصهم على الشر وبحرصهم على الإفادة من أدائه المتفوق والمجاني لدور البطل الشرير يصورون أنفسهم في صورة جميلة فلا يأتونه إلا في المسجد، وهكذا يزداد انخداعه بهم.

قال: مع أن المسجد ليس مكانًا للمؤامرات.

قلت: هو لا يعرف أنه جزء من مؤامرة، وإنما يظن نفسه محقًا حقاً، ومبطلًا باطلاً.

قال: أهو من الغفلة إلى هذا الحد؟

قلت: بل من الذكاء.

قال: حيرتني ماذا تقصد؟

قلت: هل يرفض ممثل قدير دور البطولة لأن دور البطل شرير؟

قال: لا.. لكنك تتمادى في السخرية من صديقك، وهاأنت قد جعلت منه ممثلا في النهاية.

قلت: ما قصدت هذا.

قال: فماذا قصدت إذاً؟

قلت: هو صاحب دور، ودور مؤثر، لكنه للأسف لا يكتب الدور ولا يعدل فيه ولا يختاره، وإنما هو يؤديه حسبما تريد عصابة الشر أيًا ما كانت عصابة الشر.

قال: وهل في تاريخنا الفني أو التمثيلي بطل يصور هذه الشخصية على سبيل التقريب؟

قلت: حكى ناقد أدبي عربي مرموق الآن أنه كان قد عمل في بداية حياته مساعد مخرج في السينما وأنه في أثناء الاستعدادات لبدء تصوير فيلم من الأفلام كان أمامه وقت للحديث إلى الممثلين الكبار ريثما يبدأ التصوير، وكان أحب هؤلاء إلى قلبه هو الأستاذ محمود المليجي، وبعد حديث مع الرجل عرض عليه أن يطلعه على السيناريو الذي لم يكن

قد اطلع عليه بعد، فما كان من الأستاذ المليجي إلا أن قال لمساعد المخرج: إنه لا داعي لهذا، فتعجب صاحبنا من هذا الرد من فنان عرف بالتجويد والإتقان، وسأله: هل اطلعت على السيناريو من قبل؟

أجاب الفنان: لا.

قال: ولماذا لا تطالعه إذاً؟

قال الفنان: لأني أعرف ما فيه بالحرف.

تعجب الناقد وظهر العجب على وجهه، لكن الفنان محمود المليجي لم يتركه في حيرته وقال له: افتح السيناريو وتابع معي.

فما كان من الناقد إلا أن فتح السيناريو عند بداية الدور المسند إلى الأستاذ محمود المليجي وإذا بالأستاذ المليجي يقرأ له من ظهر الغيب ما في السيناريو الذي لم يطلع عليه من قبل.

يتقدم المليجي خطوة.. يواجه البطل الآخر.. ينظر إليه شزرا.. يسأله سؤالا.. يفاجئه بصفعه بالقلم على وجهه.. إلخ.

بدأ أستاذي في نوبة ضحك خفت على حياته منها، وكان كلما انتهى من الضحك عاد إليه حتى خفت على حياته خوفا شديدا وبدأت أجزع.. وبعد لحظات هدأ أستاذي وبدأت أنا أضحك على جزعي عليه.

التفت إليّ أستاذي وقال: هل تجد في نفسك الجرأة على أن تصور له هو شخصيا هذا الموقف الكوميدي؟

قلت: بالطبع أجد.

قال: كيف تستطيع تمثيل هذا كله وهو لا يسمح لمحاوره بالحديث دقيقة دون مقاطعة يبدؤها بقوله: عن إذنك دقيقة واحدة، ويمتد بالإذن إلى ساعة كاملة أو أكثر في ترديد مونولوج طويل ومعروف وهو لا ينتهي.

قلت: الأمر في غاية البساطة.. أحكي القصة على أنها بطولة طرف آخر حتى إذا ما ضحك أخبرته أنه هو المقصود.

قال: ما أجرمك.

قلت: أهذا جزائي؟

قال: إنما هو تعبير من باب الإعجاب على نحو ما ذكرت أنت في نقدك لكتاب عبد المنعم عبد الرؤوف حين تحدثت عن قوله عن عبد الناصر « جمال السفاح » حين قبض على زوجة يوسف صديق واعتقلها ، فقلت : إن هذا التعبير على الرغم من أنه في ظاهره انتقاد، إلا أنه يدل على إعجاب خفي.

قلت: لنا الله .. ها هي آراؤنا وقد أصبحت سلاحًا نهاجم به في ضراوة ويصور أساتذتنا لنا أنهم يقدمون لنا حلوى جميلة.

قال: ما أشقى محاورك يا محمد.. لكن دعك مني ومنك وقل لي : هل يعرف الرجل جوهر آرائك فيه؟

قلت: وما جدواها.

قال: على الأقل يستمتع بها.

قلت: ليس قادرًا على هذا.

قال: إنك تجزم كأنك تعرفه.. هل عاشرته؟

قلت: نعم.. وأشهد له بحسن الأخلاق، وحسن العشرة، وكل شيء حسن جميل، ولو خيرت بين عشرته وعشرة أي شخص آخر ما فضلت عليه أحداً، ولو خيرت بين مشاركته ومشاركة آخر في مسكن أو مأكل أو مركب ما فضلت عليه أحداً.

قال: عجيب أمرك يا محمد.. تفصل بين الجوانب المختلفة في كل شيء يتجلى لك فصلًا دقيقًا حتى تصل إلى لب الحقيقة.. لكني ألمح في حديثك في البداية إشارة إلى مسؤوليتي عن تصرفاته.

قلت: قد وعدتك ألا أثير أعصابك.

قال: فأنا الآن هادئ فتحدث بما تشاء.

قلت: لا أظن لحديثي قيمة.. فقد فات الأوان الذي يمكن لك أن تصلح فيه شيئاً.

قال: هل تدري أني كنت أسألك لهذا السبب؟

قلت: أدري.

قال: أتحس بعذابي من أجله.

قلت: لكنه لا يحس.

قال: هذا هو ما يعذبني.

قلت: فعليك بالصبر والسلوان.

قال: وهل أملك غيرهما.

قلت: تفضفض لي كلما احتجت فضفضة.

قال: قد أصبح العثور عليك عسيراً، لا أنكر أني طوال تنامي إدماني لمحاورتك كنت أحسب حساب هذا اليوم الذي تنشغل عني فيه بمجدك فتحرمني من صحبتك.

قلت: عليك بالرجل.

قال أستاذي : لنا الله..

ثم أردف على طريقته في التلغيز التي كان أحيانا ما يلجأ إليها :

السليم لا يكسر.

والمكسور لا يلتئم.

قلت: مَنْ السليم ومَنْ المكسور .. أيهما هو .. وأيهما أنا؟

قال: أنا المكسور.

قلت: فمَنْ السليم؟

قال: أنا أيضا.

قلت: ونحن.

قال: معذبون.. ظالمون.. مقلقون.. مفترون.

قلت: وأولادك الذين من صلبك.

قال: ربما أنهم في بعض الأحيان أرحم منكم درجة واحدة فقط .. وربما لا !!

****

## الفصل السابع
## التمام نصف الكمال

بعد سبع سنوات من بدء تلمذتي لأستاذي أصيب الرجل بأزمة صحية عنيفة، وكنت أعوده مرتين في اليوم، وكان اثنان آخران من زملائي يفعلان نفس الشيء أو قريبا منه، وكنا نسجل قياس الضغط في ورقة إلى جوار سرير الأستاذ في بيته ولم يكن أي منا يعني بأن يعتبر قياسه هو القياس المعتمد، فهو واجب نؤديه ونسجله ونحن واثقون من أننا قد فعلنا ما علينا، وليس من مسؤوليتنا ولا من واجباتنا بالطبع أن تجيء قراءاتنا متطابقة بعضها مع بعض ولا متوافقة مع ما نتوقع؛ إذ إن «الحالة» حتى لو كانت حالة أستاذنا تتعاطى أدوية لعلاج الضغط فضلا عن أن «المريض» حتى وإن كان هو أستاذنا مصاب بحالة متقدمة من ارتفاع ضغط الدم، وفي هذه الظروف فإننا لا نتوقع قراءات نموذجية ولا متطابقة، كما أننا لا نعول على هذا التطابق تعويلًا كبيراً... لهذا فإننا كنا نعنى في المقام الأول بما نجده وليس بما نتصوره أو نتمناه.. وهكذا كنا نسجل قراءاتنا ونمضي دون مناظرات أو تبرير.

وحدث أن جاء لزيارة أستاذي زميله الأصغر منه أستاذ الباطنة العامة ورئيس القسم، وهو أستاذ مجتهد ومتميز، وقد وجد أن واجبه يقتضيه أن يطمئن بقياس الضغط، فقام إلى الجهاز وسجل القراءة وكان الضغط الانبساطي قريبًا من الطبيعي، فتعجب من هذا التحسن الكبير، وسأل أستاذ الباطنة أستاذي: هل سجل أحدٌ آخر ممن يقيسون الضغط أن الضغط الانبساطي يوشك أن يكون طبيعيا؟ ابتسم أستاذي وقال له: نعم واحد فقط من الأطباء الثلاثة النوبتجيين عليّ (يقصد الذين يتناوبون زيارته)... وهو صاحبك (يقصدني أنا).

عند ذاك صرح أستاذ الباطنة العامة لأستاذي بقصة قديمة تتعلق بالعلاقة بين ثلاثتنا، وروي له أنه عرض عليّ الانتقال من قسم القلب إلى قسم الباطنة العامة مع الاحتفاظ بنفس تسجيلي لرسالة الماجستير وبنفس التاريخ ونفس الموضوع؛ حتى لا تضيع عليّ فرصة موعد التسجيل أو الجهد الذي بذلته في رسالتي لأمراض القلب، لكنه .أي شخصي.رفض، وأنه (أي الأستاذ) حاول بكل المغريات إغرائي وإثنائي عن رأيي، لكنه. أي شخصي.لم يستجب، وقال: إنه مع حبه لنا لن يتنازل عن القلب من أجل الباطنة أبداً.

وأردف أستاذي يقول: إنه علق لأستاذ الباطنة بقوله: وأضف إلى ما قاله ما لم يقله، وهو: «ومع كرهه لنا، وضيقه منا».

فضحك أستاذ الباطنة.

****

بعد حوالي نصف ساعة كنت عند أستاذي وبطريقته. إذا كان راضيا. حكي لي الموقف بالطريقة التالية: بعد أن تركني أقيس الضغط سألني: لماذا أنت دون الباقين تصمم على أن الضغط الانبساطي أصبح قريبا جدًا من الطبيعي؟

قلت: ربما لأني أصبر حتى أسمع نهاية اختفاء أصوات كروتوكوف ولا أكتفى ببداية اختفاء أصوات الضغط.

قال: ولكنهم يفعلون نفس الشيء بالطبع.

قلت: نعم ولكنهم ربما يعرفون الوصول إلى النهاية بطريقة أخرى تجعل تقديرهم لقيمة الضغط الانسيابي مبكرًا عن تقديري.

قال: وكيف ذلك؟ إن هذا ممكن لو أنهم يعرفونها كما يخطئ المبتدئون بأنها بداية النهاية وليس نهايتها، ولكن هل يختلف تحديد نهاية النهاية، وهل لك في هذا رد فلسفي على عادتك؟

على هذا النحو وجه أستاذي السؤال دون أن يلون صوته أو يشكل ملامح وجهه بما ينبئ هل هو يسخر مني؟ أم أنه يدفعني إلى إثبات ذاتي ليفرح بي، ولم يكن مثل هذا السلوك منه أمرًا جديدًا عليّ، وكنت قد عودت نفسي أن آخذ أسئلته على الاحتمال الثاني حتى لا تقودني العصبية إلى التوتر أو الخطأ، وكنت أحدث نفسي بما اقتنعت به من أنه مهما كان في اللجوء إلى روح الندية والتفوق من مخاطر ومنزلقات، فإنها خير على كل حال من الانسحاق والخوف، ولهذا جاء جوابي وكأنه جاهز وقلت: هذا ممكن بالطبع.. كأن يعتبروها تمام الاختفاء بينما أنا أعتبرها اكتمال الاختفاء.

قال وهو يتعمد بكل ما أوتي من قدرة على التمثيل المهذب أن يظهر أنه على وشك الضحك سخرية ولكنه يتمالك نفسه، وكان في الحقيقة يجيد أداء أو تمثيل هذا الموقف المعقد بأن يبتسم نصف ابتسامة ثم يضع في ذات الوقت يده مفرودة تمامًا على فمه وما حول فمه، قال: وما الفرق؟ هل تتلاعب بالألفاظ؟

قلت: لا... لكن القرآن الكريم هو الذي علمنا ذلك.

تراجعت ابتسامته التمثيلية وقال: وأين ذاك؟

فقصصت عليه قصة آية سورة المائدة التي نزلت عقب حجة الوداع، وكان قد سمع هذه القصة بالطبع، بل ربما إنه رواها مرات ومرات.

قال وهو لا يزال غير متصور لأن يكون هذا المعنى اللغوي أو القرآني مما له مردود في العلم: ومن أدرى العلماء (يقصد علماء الطبيعيات من أمثالنا على حد تعبيره) بذلك؟

قلت وأنا حريص كما علمني على الذهاب به بعيدًا إلى البحر: ألا تذكر أننا في الهندسة كنا ندرس الزاويتين المتتامتين على أنهما الزاويتان اللتان يبلغ مجموعهما ٩٠ درجة، والزاويتين المتكاملتين على أنهما الزاويتان اللتان يبلغ مجموعهما ١٨٠ درجة.

قال: ربما كان أول عالم ترجم المصطلحات الرياضية على علم مثلك باللغة والفلسفة فاختار هذين اللفظين المترادفين ووزعهما على هذين المعنيين!!

قلت: فما رأيك في مثلٍ من محيط السياسة؟

قال: وهل وصلت السياسة إلى هذا المعني هي الأخرى؟

قلت: نعم، وقصصت عليه قصة أحمد لطفي السيد عند مطالبته بالاستقلال التام عن الدولة العثمانية وكيف أنه لم ينقذ من التعرض للمحاكمة إلا بحيلة القول بأنه قال بالاستقلال التام ولم يقل الاستقلال الكامل.

عندئذ قال أستاذي وهو في فراش المرض: نرجع إلى موضوعنا، ظننت عندئذ أنه سيسألني: وما هو معيار الفرق بين التمام والاكتمال في اختفاء الصوت وهي مسألة عويصة تأتي بالخبرة ولا يمكن التعبير عنها بأكثر مما عبرت،أخذت أفكر على هذا النحو في الثواني التي أعقبت قوله نرجع إلى موضوعنا، بينما أنا أناوله وسادة من هنا وأسحب أخري من هناك، ولكن إذا به يقول: هل تعرف مَنْ كان هنا الآن؟

قلت: لا أعرف.

قال: إنه صديقك رئيس قسم الباطنة العامة، وقد قاس الضغط بطريقتك ووصل إلى قراءتك وسأل متشككا: هل وصل أحد إلى نفس قراءته؟ فأجبته أنك الوحيد الذي تقول بمثل هذا، ثم قص عليّ ما قصه عليه أستاذ الباطنة من اعتذاري القديم عن عدم قبول العرض المغري بالانتقال من قسم كان يبدو بوضوح في تلك الفترة أنه يضطهدني بشدة

(وهو قسمنا) إلى قسم يرحب بي بشدة .

****

وجدت أستاذي بعد أن قص عليّ ما قص حريصًا على أن يبدو متطلعًا إلى أثر حديثه في نفسيتي.. ولم أكن أجهل هذا بالطبع.. وفي بساطة شديدة قلت لأستاذي: ولكن يا سيدي هذا هو قدرك وليس لك من فرار من أن يسجل التاريخ أنني كنت تلميذك.

فأجاب بابتسامة عذبة ووجه أشرق لأول مرة: ومَنْ أدراك يا ولد أنني لست سعيدًا بهذا القضاء والقدر؟

كانت هذه فرصة ذهبية للتعبير عن ضيقي من بعض ما أتضايق منه في القسم، ولكنني كعادتي كنت مزايدًا أي أكثر انحيازًا إلى الجانب الآخر تمامًا من الموقف، وقلت بمنتهي السرعة: ولكن سعادتك بهذا القدر يا سيدي لا تبلغ عشر معشار سعادتي.

قال: بعد كل هذه المضايقات والإيذاءات التي سببناها لك؟

قلت: إني أستعذبها، وأفتقدها إذا غابت أو تأخرت.

قال: أتغلبني بالفلسفة؟

قلت: بل بالإيمان.

قال: أي نوع من الإيمان هو؟

قلت: إيمان العجائز.

قال: أسكتني، ولكن هل تدري ما هو إيمان العجائز؟

قلت: لا أدري ولكني أفهمها على وجهين.

قال: فما هما؟

قلت: من العجز، مع أن هذا لا يمكن أن يكون لغويا ولكني أفهمه على نحو ما نفهم اللفظ في اللغات الأخرى.

قال: عندك حق، والأخرى؟

قلت: جمع عجوز، أي كإيمان السيدات المسنات.

قال: ولماذا لا يكون كإيمان السادة المسنين؟

قلت: ياسيدي إني أتحرز قبل المضي في المناقشة بأن هذا ليس هو الشرح ولا التفسير

ولكنه الفهم.

قال: أعرف ولا ألزمك بشيء ولكن لماذا تصر على التشبه بالسيدات؟

قلت: يا سيدي لا يقال : رجل عجوز ، وإنما إذا قيل عجوز فالمقصود هو المرأة المسنة التي أصابتها الشيخوخة.

قال: ومن أين جئت بهذا المعنى؟

قلت: أنت الذي علمتنا أن النبي ﷺ قال :**لا تدخل الجنة عجوز.**

قال: أعرف ذلك ، ولكني أسألك هل استبعاد وصف الرجل بالعجوز من فتاويك أو استنتاجاتك أم هو أمر منصوص عليه في كتب اللغة؟

قلت: بل هو منصوص عليه والمعرفة به متداولة.

قال: ولماذا قصر الوصف على السيدة دون الرجل؟

قلت: هو نوع من عنصرية العرب، أو هو نوع من تحيزهم ضد المرأة، إذا أردت أن تكون من دعاة حقوق الإنسان.

قال: وإذا لم أكن؟

قلت: أتحب أن تكون من دعاة الإعجاز اللغوي عند العرب؟

قال: فإذا أحببت فكيف يمكن تفسير هذا؟

قلت: من أبسط ما يكون.

قال: كيف؟

قلت: يا سيدي ، إن هذا يدل على أن العرب اكتشفوا أن المرأة بتقدمها في السن تفقد بعض الوظائف الفسيولوجية بحلول سن اليأس، وبالتالي فهي تعجز عما كانت تفعله من قبل، أما الرجل فإنه لا يعاني مثل هذا العجز في المقابل.

قال: وهل حقا أدرك العرب مثل هذا المعنى؟

قلت: بوسعك أن تثبت أنهم قد أدركوه ، وبخاصة إذا كنت من دعاة الإعجاز اللغوي للعرب.

قال: وهل يعقل أن يوجد شيء مثل هذا؟ إنك تعرف أني رغم انتماءاتي الفكرية والسياسية من المتحفظين بشدة على إطلاق العنان للحديث عن الإعجاز العلمي للقرآن

(وكان هذا حقًا إلى درجة أن أستاذي لم يكن يحضر مؤتمرات نقابة الأطباء في ذلك الوقت بسبب تركيزها الكامل على هذه الفكرة) فكيف بك تمنح العرب هم الآخرين إعجازًا لغوياً؟

قلت: يا سيدي أنا لا أمنح ، ولكني أملك الأدوات ، وأقول لك باعتبارك أستاذي العزيز ما يمكن أن يصاغ بأكثر من طريقة.

قال: شكرا ... ولكن قل لي : من أين جئت بتعبير «أملك الأدوات»؟

قلت: تعطيني الأمان أولا.

قال: نعم.

قلت: هو تعبير وصفتني به فتاة أحبها.

قال: هل تسمح لي بأن أصفها، قلت: بالطبع أسمح وأتشرف أنا وهي.

قال: إنها Brain، وكان أستاذي يستخدم هذا اللفظ للتعبير عن وصف الذكاء.

قلت: هي كذلك، لكن حظها عاثر.

قال: لماذا؟

قلت: لأنها حمقاء.

قال: إذًا فقد أخطأت في وصفها بأنها Brain.

قلت: لم تخطئ يا سيدي فكم من صاحب عقل كبير وهو أحمق في تصرف صغير.

قال: أهي كذلك؟

قلت: بل كذلك هي.

قال: الآن عرفت سر رضائك عن الدنيا.

قلت: وما هو؟

قال: تتمرد عليك دنياك الصغرى بأكثر من دنياك الكبرى فترضى بالكبرى.

قلت: لم أفكر في الأمر على هذا النحو.

قال: فإن فكرت؟

قلت: إن فكرت كفرت.

قال: العياذ بالله.. أليس عندك حل آخر؟

قلت: بل عندي.

قال: وما هو؟

قلت: أن أفكر في الأمر بطريقة أخرى، وهي أن أنظر إلى الصغرى في حجمها من الكبرى.

قال: فإن فكرت بهذه الطريقة؟

قلت: إن فكرت آمنت.

قال: ما أشقى محاورك يا محمد.. جعلت جواب الشرط في جملة واحدة شيئين متناقضين.. بل هما الكفر والإيمان.

قلت: إنما جملة الشرط جملة في فقرة.. وليس هذا من إبداعي، وإنما يعرفه كل مَنْ حفظ قصار السور، ألا ترى إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة] .

قال: ومع هذا فإني متمسك بقولك : إن فكرت آمنت.

قلت: سمى أحد أساتذتنا ابنتيه: أفكار وإيمان.

قال: لابد أن أفكار هي الكبرى.

قلت: ومن أدراك؟

قال: إنه آمن بعد فكر.

قلت: ولم لا يكون العكس؟

قال: لا يحتاج المرء إلى أفكار بعد إيمان.

قلت: لكن العكس صحيح.

قال: في الغالب... إن لم يكن على الدوام.

قلت: الأولى إذًا أن نقول لا يحتاج المرء إلى أفكار بعد إيمان، وإن كان لابد له من أفكار قبل إيمان.

قال: فإذا نشرت هذه العبارة في نص من نصوصك ثم نقلت هذه العبارة عنك

واعتبرت من مأثوراتك ، فلا تنس أن تقول للناس: إن أستاذك شاركك في تأليفها.

قلت: أفعل إن شاء الله.

قال: أما الآن فاكتبها لي في هذه الورقة.

قلت: بلا توقيع.

قال: ما الداعي إليه إذا كان الخط خطك.. والأسلوب أسلوبك.

***

## الفصل الثامن
## العلم النافع والعلم غير النافع

قال لي أستاذي ذات مرة في نهاية حوار طويل: هل تعرف يا محمد أني مع تقديري لكل حديثك أعتبر أنك تهتم أحيانا بما يمكن أن يسمي بالعلم غير النافع، بل إنك ربما أضعت وقتًا ثمينًا فيه.

قلت: مثل ماذا؟

قال: لا أقصد محاورتنا اليوم فهي كلها منافع وفوائد.

قلت: شكرا.

قال: لا شكر على اعتراف بالحق فكلها منافع فعلا.

قلت: فماذا تقصد بالعلم غير النافع إذاً؟

قال: أعطيك مثلا.. كنت في الأسبوع الماضي أطالع كتابا من كتب تفسير القرآن الكريم؛ فوجدت أنهم قد حسبوا تكرار كل حرف من حروف اللغة العربية في القرآن الكريم، فبماذا يجدي هذا غير الألاعيب التي نسمع عنها الآن من سر العدد كذا، وما يسمونه بالإعجاز العددي للقرآن الكريم.

قلت: لا يا سيدي، إن هذا من أكثر الأمور إفادة للبشرية.

مال الأستاذ برأسه للخلف، وكأنه صعق لهذا التقرير الحاسم وقال بطريقته: احك لي كيف كان ذلك؟ وكانت هذه الجملة من لوازمه المفضلة.

قلت: هل تعرف الآلة الكاتبة؟

قال: بالطبع.

قلت: هل تعرف ترتيب الحروف عليها؟

قال: لم أفكر في أن أشتغل مكان هدى السمري (كانت سكرتيرة القسم في ذلك الوقت هي السيدة هدى السمري، ومن الطريف أنني في برنامج صباح الخير يا مصر على الهواء، ومع ما عرف عني من انتباه وتيقظ ومعرفة بأسماء المذيعين والمذيعات أخطأت ذات مرة فتحدثت إلى المذيعة الأستاذة هناء سمري على أنها السيدة هدى السمري

وعجبت هي لهذا الخطأ الفاحش).

قلت: أنت تعرف بالطبع أني لم أقصد هذا.

قال: فماذا قصدت؟

قلت: هل حانت منك التفاتة ذات مرة إلى ترتيب مفاتيح الآلة الكاتبة الكهربائية وأنت جالس إلى جوار مَنْ يكتب لك الامتحان في مكتب الآلة الكاتبة بالمتنزه عندما يتركك بعض دقائق، ويقوم إلى دورة المياه أو إلى أي شأن من الشؤون بينما أنت ملازم للمكتب حفاظًا على سرية الامتحان.

قال في محاولة للتعبير عن الاندهاش من معرفة محدثه بمكان «مطبعته السرية»: حتى هذه الجزئية تعرفها!!

قلت: أنا لا أعرف المطبعة السرية فقط، ولكن العصفورة التي تعمل لحسابي أخبرتني عما تفعله في أثناء وجودك فيها من العبث الهادئ بلوحة المفاتيح.

ضحك وقال: حدث فعلًا أكثر من مرة أني كنت أتأمل هذا الترتيب، ولكني لم أشغل بالي به.

قلت: كنت متأكدًا من أنك تأملته.

قال: وماذا بعد التأمل؟

قلت: تعرف حضرتكم أن الحروف مرتبة في ثلاثة صفوف.

قال: بل هي أربعة يامحمد.

قلت: الرابع العلوي للأرقام وليس للحروف.

قال: نعم، وما الفارق بين الصفوف الثلاثة؟

قلت: إن لوحة مفاتيح الآلة الكاتبة وكذلك لوحة مفاتيح الكمبيوتر من بعدها قد وزعت الحروف على الأصابع، وجعلت أكثر الحروف تكرارا في صف الارتكاز بحيث لا تمتد إليها الأصابع لمسافة طويلة مما قد يعوق سرعة الحركة، وإنما تكون واقعة تحت الأصابع مباشرة، وبالطبع فإن هذا الترتيب لم يحدث على هذا النحو الذكي إلا بناء على إحصاءات تكرار الحروف في الاستخدام اللغوي.

قال أستاذي في هدوء شديد كأنه هدوء ذلك المؤمن المسنّ البسيط، الذي يستمع إلى

درس العصر في المسجد: وفوق كل ذي علم عليم!! ومَنْ علمك هذا؟

قلت: قرأته في كتاب أو في مدخل في إحدى الموسوعات العلمية عن جهاز « الآلة الكاتبة».

قال: بأية لغة؟

قلت: أغلب الظن أنه بالإنجليزية.

قال: أوليس هذا متاحًا باللغة العربية لأقرأه كما قرأته أنت ؟

قلت: لو كان متاحا لكنتم سيادتكم أول العارفين به.

قال في تخابث محبب: ولكن يبدو لي أنك تستغل حقيقة ما اعترفت لك به من أني لا أقرأ بالإنجليزية إلا الطب (وكان في الواقع قد حدثني بهذا المعني قبلها بشهر أو شهرين، وأشار إلى أنه يتمنى لو واظب على قراءة مجلة أسبوعية باللغة الإنجليزية، وقلت له إن هذا ليس صعبا ، ولا ينبغي أن ينتظر حتى يجعل هذا من عاداته الروتينية وإنما يكفيه أن يأخذ بالمبدأ القائل إن ما لا يدرك كله لايترك كله).

قلت: أوتظنني ساذجا حتى أرد على سؤالك فأعترف ضمنا بأني أخطئ في حق سيادتكم؟

قال بعطف : ولم لا إذا كنت تفوقني بالفعل في كثير من الأمور؟

قلت: وأين إنجليزيتي من إنجليزيتك مفردات ونطقا؟

قال: ولكنك تستعملها أضعاف ما أستعملها.

قلت: إنه استعمال المضطر إلى كسب العيش وأداء الواجب كما الحوذي يقود الحصان ليل نهار بينما أنت تمارس الفروسية ممارسة النبلاء.

قال: أتصرفني عن الاعتراف بجهلي وتستغل مهارتك البلاغية بأن تضفي عليّ ما ليس فيّ.

قلت: بل إني أنفي الجهل عن سيادتكم وأثبت ما هو حق ، ولا آتي بما ليس حقيقيا.

قال: ولكنك تجيد الصياغة والبلاغة إلى درجة كبيرة.

قلت: إن الصياغة لا تستطيع أن تنفي جهلًا ولا أن تثبت فضلًا ، ولكن التواضع هو الذي قد يوحي بالنقيض.

قال: وهل يحتاج جهلي إلى دليل بعد هذا الذي أوضحته أنت الآن؟

قلت: أفجهل جزئية يكفي لأن نصف مَنْ جهلها بهذا الوصف؟

قال: ولكنه (يقصد نفسه) جاهل فعلا بها.

قلت: أفيجوز لك أن تستعمل في وصف نفسك الفعل اللازم مكان الفعل المتعدي؟

قال: إني أعرف اللازم والمتعدي معرفة جيدة، لكني لم أكن أتصور أن لهذا التقسيم النحوي بعدًا فلسفيًا إلا الآن، ولكن خبرني هل له هذا البعد حقًا أم أنك أوهمتني بهذا كعادتك في سِحْر ناظري؟

قلت: إني أرى وأعلن رأيي في وضوح أن النحو العربي مكون أساسي من مكونات الفلسفة العربية.

قال: إلى هذا الحد؟

قلت: نعم.

قال: وما علاقة الفلسفة بالنحو؟

قلت: تعريفها لا يتيح للنحو أن يهرب منها.

قال: فإن هرب؟

قلت: يعود.

قال: ومَنْ يعيده؟

قلت: مَنْ تأتيه الفرصة.

قال: أظنك تتحدث عن نفسك.

قلت: إذا أعطاني الله عمرا.

قال: وماذا أنت فاعل بالفلسفة أيضاً؟

قلت: أضم إليها أصول الفقه، وأصول النقد العربي القديم.

قال: أويتركك أهل هذه العلوم؟

قلت: ربما ساعدوني.

قال: لا أظن.

قلت: فإن حدث.

قال: أكون أول الفرحين لك وبك.

قلت: هل أدلك على مَنْ علمني هذا؟

قال: إنما هي توريطة جديدة، وستنسب إليه فضلًا لا أدعيه ولا أعرفه.

قلت: أيصل بك التواضع إلى أن تنكر أنك دائمًا تسألني: وما فلسفة فلان في تشخيصه؟ وما فلسفة علان في وصف هذا الدواء؟

قال: إني أفعل هذا كثيرا.

قلت: ألست أنت بهذا الذي علمتني معنى واسعًا للفلسفة؟

قال: إذا كان الأمر كذلك فبها ونعمت، لكنك تعرف أني أستخدم اللفظ بمعناه المحور أو المجاز، ولم أكن أتصور نفسي على نحو ما صورتني الآن صاحب إسهام في تعريف علم الفلسفة.

قلت: إنما هو إعادة تعريف إن نجحنا ووفقنا.

قال: الفضل في إعادة التعريف لا يقل عن وضع التعريف.

قلت: نسأل الله التوفيق، ورضا أساتذتنا، وألا يعوقونا.

قال: ماذا جاء بنا إلى هذه النقطة؟

قلت متخابثاً: كنا نبرأ بك عن الجهل الذي وصفت نفسك به حين جهلت جزئية ما.

قال: غلبتني، أشكرك لأنني أنا المستفيد لأنك نفيت عني الجهل الكلي وجعلته جهلًا بجزئية فحسب.

عندئذ وصلت إلى مرحلة من الانتشاء، لأني خرجت مرة بعد أخرى من مطبّات متتابعة كانت كفيلة بأن توقع الإنسان في سوء التهذيب، ومن حفرات متتابعة كانت تدفع إلى قلة الذوق، فضلا عن أنني فرضت نفسي ومعرفتي بما فيه الكفاية.

وكنت أظن أني قد أقنعت أستاذي بأن يكفّ عن تبنيه لنظرية العلم النافع والعلم غير النافع، لكني سرعان ما اكتشفت أني كنت واهماً.

****

## الفصل التاسع
## اللازم والمتعدي

في الأسبوع التالي لحواري السابق فوجئت بأستاذي يقول: يا محمد لقد كنت طوال اليوم في بالي، كنت أستعيدُ حديثك في الأسبوع الماضي عن اللازم والمتعدي وأنا أستمع اليوم إلى أحد مشايخ الإذاعة الجدد ، ولا أذكر اسمه، ولكنه دكتور من دكاترة جامعة الأزهر الجدد، فقد كان يبدو طوال حديثه فرحًا جذلان بتمكنه من التفريق بين إنزال القرآن من السماء السابعة إلى السماء الأولى، ثم تنزيله على النبي صلى الله عليه وسلم بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام.

قلت: وماذا في هذا؟!

قال: ما دليله أو ما دليلك أنت على التفريق بين الإنزال والتنزيل؟ من أين أتي بهذا المعنى؟

قلت: هل عندك هنا نسخة من المعجم المفهرس (لألفاظ القرآن الكريم)؟

قال: لا أريدك أن تلجأ إلى الآيات التي ورد فيها النص القرآني بفعل الإنزال، والآيات الأخرى التي نزل فيها النص القرآني بفعل التنزيل ، فأنا أستطيع أن أفعل ذلك بنفسي دون حاجة إليك، ولكني أسألك: ما هو دليل هذا الدكتور على أن الإنزال هو ما حدث من السماء السابعة إلى السماء الأولى، وعلى أن التنزيل هو ما حدث بعد ذلك مما نعرفه، هل عندك فرق نظري بدون أن تستعمل المعجم المفهرس؟ وتشرح الآيات ببعضها.

قلت: نعم.

قال: تفضل.

قلت: هل تعرف الفرق بين الإقطاع والتقطيع.

قال: وهل هما من نفس المادة؟

قلت: نعم من نفس الجذر اللغوي.

قال في استنكار وتمكن يقاربان الإيحاء بحرصه على ازدراء محدثه : وهل عرف العرب القدامى الإقطاع والتقطيع؟ ألم تقولوا في التاريخ إن الإقطاع لم ينشأ إلا في أوروبا..

انتهى أستاذي من هذا القول وهو يظن نفسه قد حقق الضربة القاضية.

قلت: لن نعدم جذرا لغويا آخر عرف العرب به الإفعال والتفعيل.

قال (وكانت له .شأن جيله كما أقول .معرفة جيدة بالصرف): هل تريد أن تقول إن الإفعال هو عمل الشيء دفعة واحدة والتفعيل هو عمله على مراحل أو أجزاء؟

قلت: هو ذاك بالضبط.

قال: ولكن التفعيل له معانٍ كثيرة.

قلت: وكذلك الحال في كل صيغة من صيغ الأفعال المتعدية.

قال: وهل درس علماء اللغة هذه الجزئيات؟

قلت: نعم درسوها بالخبرة الكلية.

قال: وتحت أي مسمى؟ وما هو العلم الذي يعني بمثل هذا التفكير الحديث؟ وأين الكتاب الذي فيه هذه المعاني؟

قلت: كتب كثيرة في علم الصرف ولكن أشهرها وأبسطها هو كتاب «شذا العرف في فن الصرف» للشيخ أحمد الحملاوي.

قال: وهل هو متداول؟

قلت: نعم، وقد درّسه أبو رفعت المحجوب لابنه.

قال: ومن أدراك؟

قلت: بلدياتك الدكتور هيكل (كان الدكتور أحمد هيكل قد أصبح وزيرًا سابقًا في ذلك الوقت، وبقي عضوًا في مجلس الشعب ورئيسًا لإحدى لجانه، ولم يكن رفعت المحجوب قد اغتيل بعد).

قال: وكيف عرف ذلك؟

قلت:اختلفا في شيء فإذا بالمحجوب يحضر «شذا العرف».

قال: أتطالعه؟

قلت: بل إني أنوي تطويره لو أعطاني الله القدرة والعمر.

قال: إذًا فلا تبسطه للدرجة التي تبسط بها كل شيء في طب القلب.

قلت: أوذاك عيب؟

قال: نعم... وأنت تعرف ذلك ولكنك تصمم على منتهى التبسيط لتكسب.

قلت: ولكني لا أكسب.

قال: ومَنْ أدراك؟

قلت: ليس في يدي شيء مما في أيديكم.

قال: ولكنه في رصيدك.

قلت: أوتمنحني الأمل؟

قال: بل أخبرك أنني أعرف أسلوبك في الحياة.

قلت: وهل أخفى عليك شيئا؟

قال: لا... ولكنك لا تحسب حساب الآخرين الذين يتطلعون إلى إحراز بعض مجدك.

قلت: فماذا أفعل؟

قال: تسألني أنا.. اسأل أحدا من أعمامك (وكان يقصد بالتحديد أستاذين عزيزين عليّ كانا في ذلك الوقت يشغلان منصبي رئيس الجامعة ونائب رئيس الجامعة).

قلت: ما القصة وماذا جمعها؟

قال: كنا في الأسبوع الماضي في أسيوط وأنت تعرف أنهما كانا من مؤسسي تلك الجامعة، وفي إحدى المآدب العامرة سألهما أساتذة طب أسيوط سؤالا (بدا لي موجها ومرتبا )عن طبيب شاب يعتقد كل منهما أنه يمكن له أن يرفع شأن جامعتنا في القريب العاجل ، فأجابا كلاهما في تلقائية سريعة : إن المسألة لا تحتاج إلى اعتقاد، ولا إلى تفكير، وإن هذا الطبيب هو حضرتك الذي ترفع شأنها بالفعل وبالقول ، فسألوهما : أهو لا يزال عندكم ولم ينتقل لقصر العيني ؟ فأجاب أحدهما وأمن الثاني على كلامه بأنهما لن يسمحا بهذا بأي ثمن !! .

قلت: وماذا كان موقف سيادتكم؟

قال: لم أكن من الذين سئلوا .

قلت: لكن كان لك حق التعليق.

قال: لم يكن الأمر في حاجة إليه.

قلت: لكن هذا قد يؤذيني.

قال: كيف؟

قلت: حين يجد الأساتذة الشهادة في حقي تأتي من أساتذة آخرين غير أستاذي المباشر الذي أنا صفيه (!!)

قال أستاذي: وهل تعتقد لشهادتي كل هذه الأهمية؟

قلت: أعتقد في أن غيابها أخطر من حضورها.

قال: إذًا فدعني أبتزك ابتزازا من الذي تمارسه علي في كل حين !

قلت: ولي الشرف.

قال: ففي أي شيء أبتزك؟

قلت: العفو.. لكني تحت أمرك.

قال أستاذي: لقد خالفت طبيعتي في التهذيب، وعقبت لأساتذة أسيوط علنًا بقولي: إن رئيسنا ونائبه مخطئان.

قلت: العوض على الله.

قال أستاذي: ها قد كشفت نفسك وكشفت سوء ظنك.

قلت: ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال: لو صبرت!

قلت: أفعل إن شاء الله!

قال: ألست أنت الذي تقول بأني متأثر بالأسلوب الإنجليزي not only but ؟

قلت: نعم.

قال: أفهمت إذًا ما قلته بعد «لكن»؟

قلت في تخابث: ومن أين لي أن أفهم بعد كل هذا التعذيب أن هناك «لكن»، وأن هناك «ما بعدها».

قال: ألم يخبرك أحد أني قلت لهم: إنهما يظلمانك إذا صورا مجدك الموعود في حدود جامعتنا فحسب.. وأني أبصره أكبر من ذلك بكثير؟

قلت: لا .... لو أخبراني بهذا لكنت طائرًا من الفرح.

قال: فما بالك لا تطير إذاً؟

قلت: أريد التزود بالوقود.

قال: أما يكفيك هذا كله؟

قلت: إني في حاجة أيضًا إلى طائرة، لا إلى وقود فحسب.

قال: وهذا ليس في وسعنا.

قلت: وما العمل؟

قال: تستعيد مرحلة الإنسان الطائر لتحقق بها مجدك أو سعادتك بمجدك.

قلت: لكن هذه المرحلة لم تعرف في التاريخ البيولوجي للإنسان مع أن أول إنسان حاول الطيران بتركيب أجنحة لنفسه كان طبيبًا .

قال: هذا مثل جديد على ما أسميه أنا العلم النافع والعلم غير النافع، بينما تعتقد أنت أن كل العلوم نافعة.

قلت: ألست أنت المعجب بفكرة التطور على نحو ما صاغها دارون؟

قال: على حد تعبيرك أنت : لا يكون المرء بيولوجيا ما لم يعجب بها .

قلت: فلم تستنكر التفكير في وجود مرحلة من التطور أو عدم وجودها؟

قال: لا أستنكر التفكير.. ولكني أستنكر أن يكون هذا التفكير جزءًا من مقرر دراسي أو علمي.

قلت: فكيف يتعلم الباحثون التفكير؟

قال: أتظن أن هذه الطريقة تعلمهم التفكير؟

قلت: تعلمهم محاولته.

قال: خذ الحكمة من فمي، واعلم يا محمد أنه لا هذه النظرية ولا غيرها من الطرق تعلم الباحث التفكير.

قلت: فما هي الوسيلة إذاً؟

قال: لن تصدقني إذا قلت لك : إن العالم يولد عالماً، وإن الباحث يولد باحثاً، وإن

المفكر يولد مفكراً.

قلت: وما جدوى التفلسف؟

قال: هو كما قلت لك ولا تزال تأبى تصديقي: علم غير نافع.

هكذا ظل أستاذي على عقيدته اليقينية في أن هناك علمًا نافعًا وعلمًا غير نافع، وقد زاد إصراره على هذه النظرية رغم أني كنت اعتقدت أنه عدل عنها يوم حوارنا عن تصميم الآلة الكاتبة وجدوى وضع الحروف تبعا لمعدلات تكرارها، لكنني اكتشفت أن هذا الاقتناع كان اقتناعًا بجزئية، ولم يكن اقتناعًا بالعدول عن مبدأ أو عقيدة.

وحدث ما هو أطرف من ذلك بكثير، إذ حدثت مناقشة ذات مرة بيني وبين أستاذ متوسط على مسمع من أستاذي وكنت أدافع عن إحدى الزميلات، وأدفع عنها ظلما اشتهر به ذلك الأستاذ الذي لم يكن يمانع في الظلم، وأردت إشراك أستاذي معي في هيئة الدفاع فقلت: إن زميلتنا هذه أكثرنا جميعًا إيمانًا بالأفكار العملية لأستاذنا الكبير.. يكفي أنها تتبنى نظريته في العلم النافع والعلم غير النافع.

تهلل وجه أستاذي وسألني: أحقا هذا الذي تقول؟

قلت: نعم.

قال: ومع هذا تدافع عنها؟

قلت: نعم، فإني محب للموضوعية مهما كانت العقيدة السابقة عليها، ولا أكره مخالفيّ إذا كانوا موضوعيين، بل أحبهم وأسعى إليهم، وأنا الكسبان.

قال أستاذي: لم أكن أعلم أن لها هذا الميل، مع أني أذكر مديحك لها في حفل حصولها هي وزملاؤها على الدكتوراه، وسأبدأ في مراقبتها عن كثب.

ومن حسن الحظ أن المراقبة أسفرت عن إيمان الأستاذ بزميلتنا وتوثق علاقة أستاذيته لها، وثقة مفرطة بها، وعطف أبوي لا نهاية له، مع أنها لم تكن تلميذة مباشرة له فيما مضى من الزمان، وقد قابلت زميلتنا كل هذا بكل ما كان في وسعها من وفاء وولاء ، وشاء الله أن تكون هي الأستاذة التي تولت رعايته في أيامه الأخيرة في العناية المركزة .

****

## الفصل العاشر
## فنانان

حدث ذات مرة أن توجهنا لركوب سيارتي فإذا بجهاز التسجيل يعمل بمجرد تشغيل مفتاح الكونتاكت، وإذا بالشريط الذي في الجهاز لمحمد عبد الوهاب، قال: أرني ماذا تسمع لعبد الوهاب؟

قلت: هل تحب أن تراه أم أن تسمعه؟.

قال: بل أحب أولًا أن أرى ذوقك في عبد الوهاب؟

قلت:إنه شريط لعبد الوهاب وهو يؤدي أغنية من أغاني أم كلثوم قبل أن تؤديها هي.

قال: وما الأغنية؟

قلت: قصيدة «أغدا ألقاك».

قال: وماذا على الوجه الثاني؟

قلت: مقطوعة من مقطوعات عبد الوهاب القديمة.

قال: الآن تأكدت ياولد يا محمد أن ذوقك راقٍ بالفعل.

قلت: منك تعلمنا.

قال: شكرا ولكن هل تعرف يا ولد يا محمد أن عبد الوهاب ده فنان.

قلت: أعرف.

قال: وفلان طبال، وذكر اسم مطرب آخر.

قلت: يبدو ذلك.

قال: حاول أن تختبر هذه القاعدة.

ولم يحدث فيما بعد ذلك اليوم أني استمعت إلى المطرب الآخر إلا وتذكرت قول أستاذي ووصفه له بأنه طبال، حتى أنه يحدث عندما أكون في مجموعة ويأتي صوت المطرب الآخر أن انخرط في الابتسام أو الضحك ، حتى يسألني مَنْ هم معي عن سبب ضحكي المفاجئ، وكثيرا ما رويت هذه القصة.

وقد رويت هذا الحوار لوالدي عليه رحمة الله، وكان كما يقال «وهابيا» صرفا، بل كان له ـ رحمه الله ـ شكل عبد الوهاب واسمه وسمته وهندامه، ولكنه مع هذا كله كان يرى أن أستاذي يتجنى على المطرب الآخر، ومع أن والدي ـ رحمة الله عليه ـ كان أكثر إعجابًا من أستاذي بعبد الوهاب وبكل فنه، بل وبشخصية عبد الوهاب، فإنه لم يكن ميالًا إلى قبول رأي أستاذي في هذه المقارنة، ولم يكن متقبلا أبدًا لما كان يصفه بأنه «التجني» من أستاذي في وصف المطرب الآخر.

في مرة أخرى كانت أستاذة القلب في كلية طب مجاورة في زيارة لقسمنا للمشاركة في الامتحانات ، فأبديت إعجابي بأناقة ملبسها في ذلك اليوم، فإذا بالأستاذ يثني هو الآخر على ذوقها، ويعقب إن الله جميل يحب الجمال، وإذا بهما على غير توقع يفتتحان حوارًا طويلًا حول الفن والجمال ومدى انتشار التجهم في الأجيال الجديدة!! حتى أتت أستاذة القلب في الكلية الشقيقة إلى حديث عن شريط جديد لفنان يعزف بآلة واحدة ألحانًا جميلة معبرة، وأنها تدير هذا الشريط الآن في عيادتها، سألها أستاذي عن اسم الفنان أو اسم الشريط فقالت: إنها لا تذكر.

قلت: هل تقصدين جورج زمفر في شريطه على الفلوت؟

قالت وهي حريصة أيضًا على ألا تخطئ: نعم كأنه هو.

قلت: ذلك الذي يختارون منه أجزاء لبعض الثواني الفاصلة في القناة الأولى في المساء دون الإشارة إليه؟

قالت: نعم هو.. هو.

قال: عندك هذا الشريط يا محمد؟

قلت: نعم وسأحضر لك نسخة منه.

قال: متى؟

قلت: غدا إن شاء الله.

في الغد كنت سأساعد أستاذي في عمله في العيادة، فلما دخلت عليه قدمت إليه الشريط فقال: وما ثمنه؟

قلت: لا شيء.

قال بسرعة بديهة: سحت يعني؟

لم أتمالك نفسي من الابتسام العميق الشديد، ودفعني هذا إلى أن أقول: نعم!!

قال وهو يبتسم: أوترضى لي السحت؟

انفجرت مرة ثانية في الضحك وقلت: نعم.

لم يجد بدًا من أن يبتسم ويقول: مادمت تريده سحتا فليكن سحتا!

****

بعد أيام من الحوار السابق وفي عيادته الخاصة نادى عليّ أستاذي من حجرة الكشف الداخلية وقال: خذ هذا البيه في حجرتك (يقصد الحجرة الأخرى من عيادته، وكان ماهرًا في مثل هذا النوع من المجاملة لمساعديه وتلاميذه إذا كان راضياً) وقل رأيك فيه ولا تسألني عن شيء من التفصيلات.. يعني من غير ليه!

عجبت لهذا الأسلوب ولكني لم أتمالك نفسي أن قلت: ولماذا هذا التنبيه المبكر؟

قال: ألم أقل لك لا تسألني ليه؟

قلت: حاضر.

قال وهو متعجب من غبائي: ألم أقل لك: من غير ليه؟

قلت: وهذا ما سوف أفعل.

قال: ولكني لا أقصد هذا، قلت: وماذا تقصد ياسيدي؟

قال: من غير ليه.

قلت: إني لا أفهم شيئا.

قال: أعرف أنك لا تفهم وقد خانك ذكاؤك.

قلت: وهل تعرض ذكائي لاختبار؟

قال: نعم وفشلت فشلا ذريعا أضاع كل رصيدك المتراكم عندي.

قلت موجها سؤالي هذه المرة إلى المريض: وهل رأيتك يا سيدي قبل هذا أو كشفت عليك؟

كأني كنت أستغيث بالرجل لينفي أن أكون قد أخطأت في الكشف عليه أو معاملته

معاملة لا تليق به، فإذا بالرجل يقول في كل بساطة وذوق وأدب: دي أول مرة أتعرف فيها بحضرتك.

طأطأت رأسي وأنا سعيد، ثم قال الأستاذ بعد كل هذا العذاب الذي تصورته قد استغرق دهرا: هل تعرف هذا الرجل؟

قلت: لا.

قال: ياسيدي إنه أخو «من غير ليه»!!

وفي هذه اللحظة فقط أحسست بأنني نجوت أخيرًا من الغرق، فقد كان الشاعر مرسي جميل عزيز كما يعرف الناس جميعا من الزقازيق، وهذا هو شقيقه لا يزال كبعض أفراد الأسرة مقيما في الزقازيق، وكان أستاذي هو طبيبه وصديقه أيضا، بل ربما كان زميله في المدرسة في مقتبل العمر، وفي هذه الفترة كان أستاذي معجبًا كل الإعجاب بمحاولة محمد عبد الوهاب الجريئة في غناء «من غير ليه» وهو في هذه السن المتقدمة، وقد دفعه هذا الإعجاب والحب إلى أن يوقفني هذا الموقف، الذي ضغط فيه هكذا على أعصابي لدقائق خلتها دهراً.

***

كانت لي مع أستاذي بعض حوارات عن الأعمال الفنية، وأحب أن أبدأ بأن أشير إلى نقطة مهمة، وهي أن أستاذي كان قادرًا تمامًا على أن يفصل بين المكونات المختلفة ويتناول كلًا من هذه المكونات بما ينبغي من نقد أو ثناء دون أن ينعكس هذا على رؤيته للعمل الفني كله.

وبالطبع فقد اكتسب أستاذي هذه القدرة المهمة من نجاحه في ممارسة البحث العلمي الذي لا يقوم ولا يمكن إتمامه بدون القدرة على التحليل وعلى الفصل بين العوامل المختلفة ودراسة كل منها منعزلا وعلى حدة، وذلك من أجل الوصول إلى الحقيقة فيما يتعلق بتأثير العوامل المحددة لكل تطور، بما في ذلك الشفاء نفسه، وبما في ذلك الأمراض نفسها.

وليس شرطًا أن يكون المرء مشتغلا بالعلم أو العمل العلمي حتى يمكن له أن يستمتع بهذا الخلق، فكم من زملاء يفتقدون أولياته، ولكن أستاذي لم يكن من هؤلاء، بل كان قادرًا تمامًا على الفصل بين العوامل المتشابكة أو المختلطة، ولم يكن على استعداد لأي

تدجيل فيما يتعلق بالحقائق العلمية، وعلى سبيل المثال فقد دارت مناقشة علمية ذات مرة عن أثر الكحوليات فإذا به يبصرنا بأن العلم الثابت يقتضينا ألا ننكر أن الخمر تساعد على توسيع الشرايين حتى وإن كانت في ذات الوقت تؤذي عضلة القلب، وكان في تلك الجلسة حريصًا على أن يواجه الأمور بوضوح، وأن يقول : إن إيماننا وتديننا ومعرفتنا بحرمة الخمر لا ينبغي لها أن تجعلنا نركز على مضارها بالنسبة للقلب دون أن نذكر فوائدها، وكان يشير أيضًا إلى أن في ضررها على العضلة القلبية ما يكفينا للابتعاد عنها، ولكن هذا لا يمنع من أن نذكر أنها قد تفيد الشرايين المتضيقة بتوسيعها.

على هذا النحو كان أستاذي ينجو تمامًا من خلط الأمور وخلط الأوراق في الأمور العلمية، وكذلك كان يفعل مع الأعمال الفنية، وأقفز هنا لأضرب مثلا بحديثه إليّ في اليوم التالي لحفل افتتاح الأوبرا (عام ١٩٨٨) الذي حضره الرئيس مبارك، وقد قدمت فيه فرقة يابانية متميزة عرضا للكابوكي.. قال أستاذي: إنه لم يفهم من العرض شيئًا ولكنه ظل طوال العرض مبهور الأنفاس من متابعة شيء بشري مهم قد لا تكون له علاقة بالفن نفسه.

قلت: وما هو؟

قال محترزًا قبل أن يبدأ حديثه: إنه ليس معنيًا بأن تكون تقاليد اليابانيات تسمح لهن بكشف أجسادهن وإلي أي حد، كما أنه لا يعرف حدود ما تسمح به عقيدتهن الدينية في هذا الصدد، ولكنه كدارس للتشريح البشري فوجئ بالأمس بشيء مدهش في الفتيات المشاركات في العرض المسرحي الياباني، وهو أنهن جميعا، رغم ضآلة أجسادهن، يتمتعن بصورة مذهلة من تكوين مذهل للعضلة الظهرية الكبرى latismus dorsi بحيث تبدو أوتار وألياف هذه العضلة على صورة تفضل بكثير الصورة التي درسناها لهذه العضلة في كتب التشريح، فكل أليافها وأوتارها قوية ومستقلة وبارزة ومتسقة على نحو مدهش.

وقال أستاذي: إن هذا بالطبع لا يتأتي إلا من تدريب عميق ومتصل على مثل هذا الأداء، ومعني هذا أن الفن الياباني ليس شيئا سطحيًا ولا قريب المنال، ولكنه أداء طويل وتمرين متصل.

وأكد استنتاجاته بأنه حاول أن يبحث بين اللاتي شاركن في العرض عن فتاة واحدة لا تتمتع بهذا «التشريح» المدهش لهذه العضلة الكبيرة فلم يجد، مما يدل على أن هذا الكمال

الإنساني في هذا الجانب المرتبط بالتشريح يتلازم مع تعلم الفن ثم مع أداء الفن، وأنه لم يأت مصادفة كأن تكون بعض أو معظم المشاركات في عرض الكابوكي من اللائي يؤدين رياضة أخرى شائعة تضمن تحقيق هذا النمو العضلي المتسق.

وخلص أستاذي من هذا كله إلى أن الفن الياباني المرتبط بالكابوكي (أو بأي اسم آخر أيًا ما كان) يبدو ناجحًا تمام النجاح فيما نسميه الأداء الحركي أو التعبير التمثيلي، لكنه أيضًا ناجح في التعبير عن معنى إتقان الفن، والعمل من أجل الفن، بل تكوين(!!) الجسم البشري (أو تأهيله)!! من أجل الفن.

ولم يفت أستاذي أن ينبه إلى الفارق بين هذه الجدية المطلقة التي انعكست على أجساد ممارسي الفن، وبين الهزل والتهريج الذي يسيطر على المسرح العربي المعاصر بدون أدنى حاجة إليه لا للإضحاك ولا لغير الإضحاك.

****

من آن لآخر كان أستاذي يسألني عن آخر ما شاهدت أو حضرت من أعمال فنية؟ وأذكر أني لخصت له ذات مرة قصة الفيلم الشهير الذي يحكي قصة حياة الإمبراطور الأخير للصين، وكان يعرض في سينما التحرير القريبة إلى بيت كل منا، فإذا به في وسط حديثي يطلب إليّ أن أتوقف كي يظل محتفظًا بالشوق إلى رؤية الفيلم، فلربما كان تلخيصي للفيلم وروايتي لأحداثه دافعًا له لكي يتكاسل عن مشاهدته، وكان يقدر حتى من قبل مشاهدة هذا الفيلم مدى ما يمكن لأحداثه ومشاهده أن تثير من مقارنات فورية ولاحقة في أذهان المشاهدين. وفي الحقيقة فإنه من قبل أن يشاهد الفيلم كان قد توصل إلى عدد من الحقائق فيما يتعلق بتكنيك إخراجه وصوره ومشاهده وشخصياته، وهو أمر لا يتأتى بالطبع إلا للذين دربوا ذوقهم الفني مرارًا وتكراراً.

****

ولم يخل الأمر بالطبع من ملاحظات متكررة لأستاذي عن كمية الإسفاف التي تحفل بها إعلانات المسرحيات، وكان له رأي وجيه وهو أن هذا الإسفاف لن يقود في النهاية إلا إلى الانحطاط في أداء الشعب لوظائفه الأساسية جميعاً، وكان يبنى رأيه هذا على كثرة ما تتداوله الإعلانات من مشاهد الحياة بحيث لا يتبقى مشهد من مشاهد النشاط البشري إلا وقد تكونت له صورة هزلية يستغلها المهرجون في التعريض بكل شيء في الحياة.

ولم يكن أستاذي يتجاوز الموضوع من دون أن يسألني: هل يحدث مثل هذا في أي بلد محترم؟ هل يحدث مثل هذا في إنجلترا أو فرنسا أو ألمانيا أو أمريكا أو اليابان؟ ولماذا نحن فقط الذين نتميز بهذا الإسفاف؟

ولم يكن أستاذي يتوقف عند هذا الحد، ولكنه كان يضيف أيضًا فقرة من السخرية بالقول الشائع: إن الجمهور عايز كده، ويسأل في رصانة: ولماذا لم يكن الجمهور عايز كده في سنة ١٩٥٠ وسنة ١٩٤٠؟ أم أنه الانحطاط الذي فرض على الشعب؟

*****

# الباب الثالث

## حوارات في الترقي

## الفصل الحادي عشر
## جدوى نظام الطبقات

كان أستاذي يكثر من استعمال لفظ الجاهلية في ميادين مختلفة، وإن جمعها معنى أصلي واحد.

كان أستاذي يتصور العلم نورًا أضاء الحقيقة فإذا بكل ما سبق هذه الإضاءة جاهلية وظلام.

وكان يلذ له أن يتحدث عن بعض الحالات التي أصبحنا نشخصها بسهولة بفضل الآلات الحديثة والتكنولوجيات المتقدمة ثم يقول: كنا في الجاهلية نعجز عن هذا ونضرب أخماسا في أسداس، ونظن أننا أصبنا هدفنا بينما زدنا الموضوع ظلاما.

وعلى خلاف رأي أستاذي في التقدم العلمي كان رأيه في التطور السياسي إذ كان يرى أن السياسة المعاصرة في عهد الثورة تدفع بنا إلى الوراء وإلى الخلف وإلى الأسفل، وكان يأسف للحال العمومية التي صرنا إليها، وكان شعوره في رأيي محصلة إحباط مر به وهو يتفتح على الدنيا في كهولته فيراها أسوأ مما رآها بالأمس وهو يتفتح على صباه وشبابه، ثم إنه أصبح وهو يقترب من الشيخوخة يرى الحياة أصعب وأظلم، وربما كان هذا سببا في عقيدته هذه وحنينه إلى الماضي.

كان أستاذي نموذجًا بارزًا للذين لا يفتأ الحنين إلى العهد الملكي يراودهم، وكان كثير المقارنة بين عهد الثورة وعهد الملكية، ولعله كان يقصد المقارنة بين الشمولية والليبرالية، لكنه كان يؤثر الحديث بالصيغة المعتادة في مصر من المقارنة بين عهدي الجمهورية والملكية، وهو حديث شائع، وكان أستاذي يبالغ في حنينه هذا فيسخر من العهد الحاضر وتصويره لنفسه على أنه «إسلام»، وأن ما قبله «جاهلية».

وكانت لأستاذي أسباب كثيرة في هذا التوجه، ولا أظن كتابي هذا موضعًا لمناقشة كل هذه الأسباب، وإن كان لابد لحواراته أن تتعرض لبعض هذه الجزئيات.

ومن الجدير بالذكر أن أستاذي كان يؤمن بأهمية وجود روح نظام الطبقات حتى في غياب الطبقات نفسها، وكنت أتفق معه في هذا الإيمان وذاك عن عقيدة سابقة على معرفتي به، وكنت كثيرا ما أحدثه عن فكرتي الداعية إلى الارتقاء الأرستقراطي

بشخصيات أعضاء هيئات التدريس في الجامعة من خلال برامج عديدة ومتكررة، بل من خلال الخروج بهم إلى مواطن الحضارة في العالم لاكتساب الحضارة، بالإضافة إلى العلم.

وكان أستاذي أكثر وعيًا مني بهذا المعنى، وإن كنت قد اشتهرت في المحيط الجامعي بأني أكثر منه ومن غيره تعبيرًا عن مدى الحاجة إلى تنمية هذا المفهوم، وذلك بسبب سعة المساحة التي أتيحت لي للحديث والكتابة في هذه الموضوعات.

وفي إحدى المرات كنا نتحدث عن فشل أحد أساتذتنا في إنجاز بعض ما أسند إليه من مسؤولية سعى بنفسه إلى تحملها، وقد بدأ أستاذي الحديث فسألني: ما هو سبب فشل صديقنا في أداء مهمته؟

قلت: لأنه يفتقد المنهج في التعامل مع المشكلات.. هو يظن أن كل واجبه أن يرضي هذا وذاك.

قال: والنتيجة؟

قلت: يرضي هذا ساعة، ويرضي ذاك ساعة، ويعود إلى مراضاة هذا وذاك، ولا يزال يحكي للناس أنه أرضى هذا لكن الظروف تغيرت، ولأناس آخرين أنه أرضى ذاك لكن الرياح جاءت بما لا تشتهي السفن.

قال:لم تفهم سؤالي يا محمد.. إنما سألت عن سبب فشله.. لا عن سبب استمراره في الفشل.. فالذي يفعله هذا هو استمرار للفشل، وسيظل يؤديه متصورا أنه لا يكف عن العمل من أجل الكلية.

قلت: لكن تكوينه العقلي لا يسمح له بأكثر من هذا.

قال: هاأنت تبتعد مرة أخرى عن المنطقة التي أحب أن أطلعك عليها.

قلت: الأمور واضحة، ولو ظل في منصبه عشرين عامًا فسيظل يؤدي بالأسلوب نفسه، وهناك كثيرون مثله سيؤدون بالأسلوب ذاته مع اختلاف في التفاصيل والأغلفة التي يصنعونها حول تصرفاتهم.

قال: وهذا هو جوهر ما أريد أن أدلك عليه.

قلت: لو مرّ هؤلاء بتعليم عام متميز وأتيح لهم أن يمارسوا الأنشطة التربوية من مسرح ورياضة وكشافة ورحلات وخطابة وسباق ضاحية وخروج في سبيل الله، لتزودوا من هذا التعليم بما يسهل عليهم أداءهم لمهمتهم، ولكنهم تعلموا في مدارس بنيت على عجل

ملحقة بالمدارس الأصغر منها، فالثانوي فصول ملحقة بالإعدادي، والإعدادي فصول ملحقة بالابتدائي.. وهكذا، ولم يتح لهذه المدارس ما أتيح لكم في مدارس جيلكم من تعليم وتربية وإتقان ونشاط، ولهذا تراهم يتصرفون بهذا الأسلوب الأبتر.

قال: أنت لازلت يا محمد تتحدث عن المشكلة من واقع تحليلك لها، أي من واقع ما تراه فيها من مظاهر المرض، ومظاهر القصور، ومظاهر الفشل، ثم تستشرف السبيل إلى الصواب فتستبطن ذاتك وتقارن بين إمكاناتك وإمكانات هؤلاء الكثيرين وتشخص السبب.

قلت: وماذا في هذا الأسلوب إن كان كذلك؟

قال: اسمح لي أن أقول لك: إن اتباع هذا الأسلوب مع نجاحه في التشخيص، ونجاحه في وصف العلاج فإنه لن يحل المشكلة.

قلت: تقصد حضرتكم أن التكوين العقلي والوجداني للقيادات الجامعية ليس هو كل المطلوب من أجل أداء أفضل؟

قال: تماما.. هذا ما أقصده، وقد عبرت أنت الآن عما أقصد بأدق بكثير مما يمكن لي أن أعبر عنه.

قلت: فما هو الجانب الفني الذي أهملته في تشخيصي وتريد حضرتكم أن تنبهني إليه؟

قال: ألا تحدس؟

قلت: إذا كان هذا الجانب هو الجانب الإيماني فإن التكوين العقلي والوجداني يتضمنانه.

قال: يا محمد.. هل أنا أجهل هذا؟ هل تعتقد يا محمد أن لحيتي هذه تدفعني إلى تكرار الحديث عن الإيمان بمناسبة وبدون مناسبة كما يفعل أصحابك الحريصون على أن يعرف عنهم أنهم ملتزمون؟

قلت: فماذا تعتقد إذاً؟

قال: هل تذكر حديثك الشيق في الأسبوع الماضي حين زرنا وكيل الكلية لشؤون الطلاب في نهاية اليوم وألقيت على الحاضرين في مكتبه محاضرة طويلة وممتعة عن قدرة نظام التعليم العام الألماني (الغربي) على فرز الطبقات، وعلى حجب بعض طبقات المجتمع من الوصول إلى كليات القمة وإلى مواقع المسؤولية التي تتطلب رقيا والتزاما من

نوع عميق؟ هل تذكر يا محمد كيف استمع إليك جميع الأساتذة لأكثر من ساعة وتركوا عياداتهم من دون أن يتململوا أو يظهروا الرغبة في انتهائك من حديثك؟

قلت: أذكر هذا وأشكر لكم مثل هذا التشجيع.

قال: إذًا كيف فاتك أن هذا هو جوهر ما أريد الحديث عنه في متطلبات هذه المناصب العليا؟ لابد يا محمد من روح الطبقات، وأنا أقولها لك وأجرى على الله، وبدون هذه الروح لن تتقدم هذه الأمة.

قلت: أفيصدر مثل هذا التصريح الخطير عن أستاذ من الإخوان المسلمين؟

قال: من الإخوان المسلمين أو من الآباء المسيحيين أو من الأبناء الشياطين أو من العفاريت الزرق على حد تقسيماتك الجميلة، دعنا نتحدث في جوهر الموضوع، واترك الدوجمات الجامدة الآن، وستفهم بعد قليل أن هذا الذي أتحدث عنه هو أسّ أساسيات التقدم قبل الإخوان وغير الإخوان.

قلت: لكن كلمة الطبقات أصبحت كلمة كريهة ومستفزة لنفوس المصريين.

قال: هم أحرار.. إذا أرادوا التقدم الحقيقي فعليهم بالدواء حتى لو كان طعمه مراً.. وإذا أرادوا الطعم الحلو فعليهم بالحلاوة الطحينية.

قلت: وماذا تفعل في الذين يعشقون الحلاوة الطحينية؟

قال: هي لهم وهم لها.. أما التقدم فشيء آخر.

قلت: وهل يمكن لنا أن نعيد الإيمان بنظام لا نكف عن رجمه؟

قال: هذه هي مهمة السياسيين الشرفاء.

قلت: فإن افتقدناهم؟

قال: فلا داعي للتقدم من أساسه.

قلت: لكن الوعي بهذه الأهمية ضعيف.

قال: وهل أدل على ذلك من أنك نفسك لم تشخصها مع أنك في منتهى الوعي بها.

قلت: والأضعف من هذا الوعي هو إمكان الإيمان بجدوى علاج كهذا.

قال: رجعنا إلى الحلاوة الطحينية.

قلت: دعني أتخابث عليك وأسألك ومَنْ يأكل الحلاوة الطحينية إذاً؟

قال: أهل السجون.

قلت: إن المفارقة أن مجتمع السجون هو المجتمع الوحيد في مصر الآن الذي يأخذ بنظام الطبقات.

قال وقد أعجبته لمحة البديهة الحاضرة: إذا صح كلامك فلن تجد حلاوة طحينية في هذه السجون التي تحترم نظام الطبقات.

قلت: وما أدراك؟

قال: لا يستقيم هذا مع ذاك.

قلت: إني أفهم فكرتك لكني لا أراها الحل الوحيد.

قال: وأنا أعرف ذلك، ولولا هذا لنبهت إليها في كتاباتك وأحاديثك.

قلت: إني أقدم بدائل أكثر عملية.

قال: هي حبوب متناثرة.. لكنها لا تقوم مقام نظام متكامل له مزاياه وأصوله وفصوله.

قلت: وله عيوبه.

قال: دعني أيضًا أرد عليك بألفاظك، ودعني أستعمل تعبيرك المفضل الذي تكرره كثيرًا من أنها العيوب الصغيرة التي تلازم المزايا الكبيرة.

قلت: أتعتقد أننا قادرون على مثل هذا النظام بصرامته؟

قال: لم لا نفعل؟

قلت: يستغرق وقتا.

قال: لم لا نبدأ؟

قلت: الناس متعجلة على النتائج.

قال: سرعان ما تظهر.

قلت: لكنهم يرضون بالمسكنات.

قال: وهم يعرفون أنها مسكنات.. ومعنى هذا أنهم يتمنون شيئا آخر.

قلت: الوعي غائب، والاقتناع مفتقد، والأمل ضعيف.

قال: كل هذا يذوب كما يذوب الثلج في حرارة الشمس.

قلت: وما حرارة الشمس؟

قال: عندما يرون زهو الطبقية ومزاياها، ألا ترى إلى انبهار الجماهير بما يرون من مسلسلات أو أفلام تصور العصر البائد؟

قلت: أري.

قال: ففكر في ضوء رأيي، وحاول التخلي عن معتقداتك التي ورثتها من عهد مؤلم، واستحضر في ذهنك دائما صورة البلاد التي عشت فيها وأحببتها ولازلت تحدثنا عنها في كل حين.

قلت: أستحضرها.

قال: يبدو لي أنك إنما تستحضر ذكراك عن الصورة دون أن تستحضر الصورة وما فيها.

قلت: لكن الفارق بين الظروف هنا وهناك كبير.

قال: رجعنا لكلام الساسة الشعبيين، هذا الحديث هو بداية الانحدار.

قلت: بل هو بداية الاندحار.

قال: مادمت تعرف هذا فما يبقيك في معسكر التهاون؟

قلت: الخوف من القفز بالجماهير.

قال: أنا لا أطلب القفز ولا أتحدث عن الجماهير.

قلت: تقصد أنك لا تستهدف إلا شريحة معينة؟

قال: وهذا هو جوهر الطبقات.

قلت: وفكرة المساواة.

قال: إن الشريحة المستهدفة بالرقي كفيلة بالأخذ بيد المجتمع إذا ارتفعت، وهكذا تتحقق المساواة تلقائيًا في خطوة تلقائية.

قلت: لكن أحدًا لا يصدق ذلك.

قال: رجعنا لكلام الساسة الشعبيين.. مَنْ كان يصدق أن الكهرباء تضيء بلمسة، وأن التليفزيون ينقل ما ينقل، دعك من هذه الدوجمات التي أفسدوا بها عقولكم.

قلت: يبدو لي أن الأمر أكبر من أن يحتمل.

قال: لكن الأمل في الحل لا ينعقد بدونه.. وسترى.

****

كنت كثيرًا ما أجاهد في سبيل إيماني بفكرة ترقية المحيط الجامعي فكان أستاذي يشجعني وفي الوقت نفسه فإنه كان حريصًا على أن يحميني مسبقًا من الإحباط، وقد حدث ذات مرة أن وصل بي الأمر إلى العصبية المفرطة من أجل إقناع إحدى لجان الكلية بفكرة معينة، فإذا بأستاذي بعدما سمع من أحد الزملاء قصة حواري الحاد يسأل عني حتى وجدني أمرّ مع زملائي في الرعاية المركزة فقال : إنه يتحدث من عيادته الخاصة بالتليفون ، وإنه يطلب إليّ أن أمر عليه ، ويؤكد عليّ ألا أعود إلى القاهرة إلا بعد المرور عليه للأهمية القصوى، وذلك من دون أن يحدثني عن الموضوع الذي سيحدثني فيه، ولما أخبرته أني لا أنوي العودة قبل منتصف الليل قال: فتعال إذًا الآن مادام عندك وقت في الزقازيق تقضي فيه برامجك الأخرى.

وذهبت إليه لتوي فلم يفتح لي موضوعًا ولم يخبرني بما وصل إلى مسامعه عن احتدادي في اجتماع ذلك اليوم، وإنما طلب إليّ أن أجلس ثم قال لي: يا محمد.. خطر في بالي اليوم أن من واجبي أن أحكي لك حكاية للتاريخ شهدتها بنفسي ربما تطلعك على حقيقة من حقائق التقدم، ثم تدفق في رواية أن أحد أعمامه كان مهندسا وصل إلى منصب وكيل وزارة الأشغال فيما قبل الثورة، وهو منصب كبير جداً، وأن هذا العم كان. على حد تعبيره. فلاحا حقيقيا، لكنه كان مع كل خطوة يخطوها في السلك الوظيفي يرتقي بسلوكه الحضاري في كل ما يتعلق بالحياة حتى وصل به الأمر إلى أنه كان له جدول فني لحضور حفلات الأوبرا والغناء، فإذا كان الخميس الأول من كل شهر فإنه يلبس ملابس رسمية ويتأهل لحضور الأوبرا لا يحول بينه وبينها أي عذر، وهكذا كان يفعل في الخميس الثاني في حفل آخر، وهكذا. وأخذ أستاذي يقص عليّ طبائع «الباشوات» الحقيقيين، وكيف أنها في الحقيقة طبائع قابلة للاكتساب، بل إنها لا تأتي إلا بالتدريب وبالتدريب الشاق أحيانا، وبالالتزام المفرط في كل التفصيلات.

ولم يكن أستاذي يسمح لي طوال حديثه أن أقاطعه، بل كان برفق شديد يضع يده على فمي كلما هممت بالكلام، فلما انتهى من حديثه التفت إليّ وقال: لست أدري هل أقول لك لا تتعب نفسك حتى لا تكون آراؤك بمثابة حرث في البحر، أم أقول لك: واصل الطريق.. ولكني على كل حال أبرأت ذمتي بأن رويت لك صورة من صور العهد «البائد» كما

يسمونه، وكان لابد لي من أن أبرئ ذمتي بعدما سمعت عما حدث لك اليوم، ولكن على كل حال خذ بالك من نفسك!!

لم أكن قد أدركت لماذا يروي لي أستاذي هذا كله إلا متأخرا حين أشار إلى الاجتماع الذي انعقد في ذلك اليوم ، ولهذا السبب فإنه لم يكن يريد لي أن أقاطعه برواية ما حدث لأنه كان يعرف ما حدث بالفعل.

*****

يقودني هذا إلى العودة إلى ما كان أستاذي يعبر عنه من حزن شديد ومرارة أشد من وصف الثورة للعهد السابق عليها بالعهد البائد، وكان لا يفتأ يكرر هذا الوصف بكل سخرية ومرارة وتعجب، وحدث ذات مرة بعد مطلع القرن الحادي والعشرين بسنتين أن صرح مسؤول كبير أمام أحد المجالس النيابية بأن الحكومة الحالية تحاول «إصلاح أخطاء خمسين سنة»، وكان هذا في حد ذاته اعترافًا جريئاً، لكن أستاذي عقب على هذا التصريح بقوله: إنه كان يلزمه تغيير كلمة واحدة ليضع «جرائم» بدلا من «أخطاء».

والواقع أن أستاذي كان مغرمًا بالسخرية من كل مَنْ تسول له نفسه أن يصور بدايات الأمور على عهده هو ملغيا كل ما سبقه، وهو الخلق الذي شخص كثير من المؤرخين بداياته بأنها تعود إلى عهد الفراعنة.

وكان يفعل هذا (أي السخرية) حتى مع بعض موظفي مكتبه وهو وكيل للكلية حين كانوا يشيرون إلى نظام سابق يعتقدون أنه كان خاطئا وأن أستاذي هو الذي أصلحه، وكانوا عندئذ يقولون له ما يقوله الموظفون التقليديون في مثل هذه الظروف من أن القواعد كانت تقول بكذا إلى أن أصلحها سيادته أو عدلها فجعلها تقول بكذا، فإذا به في هدوء شديد يرد عليهم ويقول: تقصدون أن هذا كان أيام الجاهلية، وكأنه كان بهذا التصرف يحثو التراب في وجوههم على حد ما يقول التعبير العربي القديم.

ولم يكن يخفى على أي لبيب أنه كان يسخر من النفاق الزائد بطريقة مهذبة، وكذلك كان يفعل في كل ما يعرضه أي طبيب منا ناسبا الفضل إلى الوضع الجديد، فإذا أشار الطبيب إلى أن المريض كان يتعاطى أدوية خاطئة قبل أن ينتقل إلى قسمنا ويتعاطى الدواء الصحيح، كان أستاذي يعلق في التو واللحظة بأن هذا الخطأ كان في أيام الجاهلية، ولم يطل بنا الزمن لنعرف أنه كان يسخر بشدة من دون أن يبدو ساخراً، وهكذا كان يحدثني في كل

أمر من الأمور التي يظن صغار أولى الأمر أنفسهم وقد أصلحوها بينما هم يفرطون في الادعاء بالإصلاح بلا مبرر.

وكنت إذا وقفت في طريق سيرنا (بالسيارة أو على الأقدام) لأستطلع رأيه فيما أعتقد أنه آية من آيات الفن المعماري أو الإنشائي شكرني على هذا التوقف، وزادني علمًا بما في القطعة الفنية من جمال أدركه هو ولم ألتفت إليه، ثم استدرك متحسرًا على تراثنا الذي ضيعناه ولا نزال نضيعه، وهو يعجب من أمرنا.

وقد وصل به الأمر في ذلك إلى أن سألني ذات مرة: هل قرأت عن شعب فعل في تراثه ما نفعله الآن؟

قلت: لا.

قال: يا محمد، إنني أظن ما اتهم به التتار والمغول يهون أمام ما نفعله الآن، فعلى كل حال كانت مبررات الحروب تقتضي ما يفعلونه إن صح أنهم فعلوه، ولكن ماذا يكون عذرنا أمام التاريخ؟! ثم كان يستطرد في هذا المعنى إلى أن يقول: إنه حتى «الإعدام» لا يمكن إلا أن يكون عقوبة مخففة على أولئك المسؤولين عما حاق بحياتنا وقيمها من تدمير في السنوات الخمسين .

****

## الفصل الثاني عشر
## الشخصية السوية

في بداية عملي مع أستاذي بعامين احتجت منه إلى تزكية من خلال تحرير استمارات تزكية من التي نتقدم بها إلى جامعات ومراكز البحوث في الولايات المتحدة الأمريكية لإتمام رسائلنا العلمية أو بحوثنا فيها فقال: اكتب ما تشاء وسأوقعه، فكتبت كل الاستبيانات والاستمارات حتى إذا أتيت إلى ورقة أخيرة تتعلق بالتقييم الرقمي آثرت أن أتركها له، لأنها لن تكلفه أي وقت، فهو سيضع أرقامًا في خانات تمثل تقديره لي في كل صفة من الصفات الكبرى العشر بدرجة تتراوح ما بين ١ و١٠، وكانت كل صفة كبرى مكونة من صفات صغرى تتراوح ما بين ٥ و١٠ صفات، وقلت في نفسي: إن هذه فرصة لمعرفة تقديره الحقيقي لي في هذه الصفات. ولم يفت أستاذي فهم هذه الإشارة، وقال: على بركة الله، ثم بدأ ملء الخانات، وكانت كل صفة من الصفات العشر .كما ذكرت .تشمل صفات فرعية تتضافر لتكون الصفة الكبرى، وعلى نظام الاستبيانات الأمريكية كان كل شيء محسوبا بدقة شديدة، وبدأ أستاذي يضع الدرجات، فإذا به يعطيني الدرجات النهائية في كل صفة من الجدية والمصداقية والأمانة والكفاءة والدأب والذكاء وحسن معاملة الآخرين.. إلخ. لكنه توقف عند صفة فرعية واحدة (تمثل اثنين في المائة من التقدير العام) وأنقصني درجتها وهي الصفة الخاصة بما نسميه روح النكتةHumour . Sense of

وقال لي: هذه الصفة ضعيفة جدًا عندك يا محمد ! ولن أخالف ضميري وأعطيك درجتها ولا نصفها، وهكذا أعطاني صفرًا فيها في مقابل الدرجات النهائية في بقية الصفات، وهكذا أصبح مجموع درجاتي في النهاية ٩٨٪.

كنت سعيدًا ومنتشيًا بالطبع، ولكن سني في ذلك الوقت لم يؤهلني لفهم المعنى الذي قصده أستاذي، وكل ما كنت قد استطعت إدراكه أنه ربما يقصد أني مهذب أو بعيد عن استعمال الألفاظ السوقية أو ما إلى ذلك، وهكذا كنت مغرورًا وجاهلًا في الوقت ذاته، وظننت أن غياب هذه الصفة مما يرفع من قدري حتى لو أنقصني بعض الدرجات، وكنت أحدث نفسي دائما أنه إذا كانت القاعدة البشرية أنه لا أحد كامل، فنعم الحظ أن يكون النقص الموجود في شخصيتي في مثل هذه الصفة.

ولكن حدث بعد عدة شهور من هذه الواقعة أن صرحت لي فتاة كنت أحبها بأبرز عيوبي، فكان منها أني لم أتعود الجلوس على المقاهي والغرز، ومن حسن الحظ أنها سارعت إلى شرح معنى هذا العيب الذي شخصت وجوده في شخصيتي، وكانت ثقافتها مزيجًا من ثقافة أجنبية غالبة وثقافة عربية مدعمة، وقد عجبت لهذا القول وأن يصدر عنها هي بالذات، فإذا بها تأخذ عجبي هذا على أنه تأكيد لما ذهبت إليه من تشخيص صحيح لدرجة أنني .على حد قولها .لا أعرف العيب ولا طبيعته، وفي اليوم التالي قالت لي: ألم تلاحظ أن شقيقك أحمد يفوقك قدرة على استخلاص العبرة وإطلاق النكتة، ولم تكن قد رأته وإنما كانت تسمع مني تعليقاته على بعض ما نتناوله من الأمور في مناقشاتنا، ثم كانت لها تجربة غير مباشرة معه حين تطوع بالكشف في مجال تخصصه على إحدى شقيقاتها.

قلت: بلي.

قالت: هذا هو ما أقصده، إنه فيما يبدو أكثر منك معاشرة لطوائف الشعب المختلفة وعلى سبيل المثال: الممرضات والمساعدون في حجرات العمليات.

قلت: أظن الأمر كذلك.

قالت: بل هو كذلك!

ثم سألتني: هل قيمك أحد أساتذتك الأجانب أو المصريين في استمارات تقييم المرشحين لوظيفة من الوظائف؟

وهنا تذكرت قصة الاستمارة التي حررتها منذ شهور ورويت لها القصة.

قالت: لم أخطئ، وأستاذك هذا أستاذ عظيم.

قلت و أنا أريد استفزازها : ولكنه ملتح.

قالت: وهذا ما يؤكد أنك لا تفهم في النكتة ولا في الطبيعة البشرية.

قلت: وما علاقة هذا بذاك؟!

قالت: فاسأل أستاذك إن كنت شجاعا كما تزعم.

ذهبت إلى أستاذي وسألته الأمان ورويت له ما حدث فلم يضحك ولم ينفعل، لكنه علق تعليقا جميلا لا أزال أذكره وقال لي: إن فتاتك تريد أن تقول لك إنها تتحملك كثيرا

وتتحمل تغابيك أكثر.

قلت له: وما علاقة هذا باللحية؟

قال: وهل تظن أن خفة الدم موجودة في مسام الذقن فإذا استطالت اللحية أخفتها!

قلت: ومن أين أدركت فتاتي كل هذا؟

قال: لو لم تكن من مستواك العقلي ما أحبتك.

قلت: ومَنْ أدراها أنك ستقف في صفها؟

قال: هي لا تدري، ولا يحزنون، لكنها متأكدة من أن شغفك بها يحيل كل حديث عنها إلى إيجابيات.

قلت: وما أدراك؟

قال: غدا تنضج بك التجربة والسن وتعرف.

****

من حسن حظي أن إدراك الحقيقة قد حدث بعد فترة قصيرة جداً، فقد تصادف بعد شهرين من هذا الحديث أن ذهبت إلى عيادة أستاذي للعمل معه ففوجئت به موجودًا قبل الموعد المحدد لبدء العيادة، وإذا به قد حضر مبكرا ليستقبل أحد زملائنا من أحد الأقسام الأخرى، وكانت لزميلنا رغبة في خطبة ابنة أحد أصدقاء أستاذي ولكن الرغبة لم تتم، وكان زميلنا يشكو من شيء عرفت فيما بعد ما قد يجلبه من أسي، وهو أن أحد الزملاء تطوع بتعكير العلاقة بينه وبين أهل الفتاة من دون أدني مناسبة لهذا التعكير، لكنها كانت فيما يبدو صورة من هواية بعض البشر الذين يسوؤهم أن يسعد الناس!!، وإذا بأستاذي يخرج من موضوع هذه العلاقات المتشابكة إلى حديث عن أن الحب يعمي ويصم، وأن الحب يبني بيوتا من الأوهام وأن المحب يعجب بصفة واحدة ويبني عليها إعجابا بصفات أخرى ليست موجودة ولكنه يفترض وجودها بناء على وجود الصفة الأولى.

وظل أستاذي يضرب أمثلة في غاية الروعة من حياته وحياة زملائه، وكانت حيوات خصبة بالفعل، وبالطبع فلم يكن زميلنا قد أتى لسماع مثل هذا الحديث، وبالتالي فإنه لم يصغ إليه ولم يستوعبه بينما كنت أنا . وأنا بعيد عن المشكلة .أتأمل في هذا الحديث الذي جاء نتيجة المصادفة البحتة، فلما انصرف زميلي سألت أستاذي: هل هذا الحديث يندرج في إطار ما أشار إليه منذ شهرين أو ثلاثة حين حدثني عن النضج العاطفي؟

قال:نعم.

قلت: ولماذا تبخل عليّ به؟

قال: عما قريب ستكون أستاذ الأساتذة في هذه الموضوعات.

قلت: ولماذا يتوقع هذا؟

قال: هذه سنة الله.

قلت: ولكن هذا لم يحدث حتى الآن.

عندئذ قال لي حكمة بالغة العمق والتعبير والتصوير وهي أن المستقبلات Receptors كانت مغلقة وقد تفتحت، فليس مهما إن كانت قد تفتحت مبكرا أو متأخرا.

في اليوم التالي قابلت زميلي الشاكي فإذا به يتعجب من أن أستاذي أخذ يحادثه في موضوعات بعيدة عما ذهب للشكوى منه، ولم أكن قد حضرت الجزء الأول من لقائهما وإنما حضرت الجزء الأخير، قلت لزميلي: إن عادة أستاذي أن يفتح موضوعًا مخالفًا للموضوع الذي نتحدث فيه إذا لم يكن راغبًا في أن يتحدث فيما نحن فيه من موضوعات.

قال: لكنه ليس مضطرا إلى هذا، فإنني ذهبت إليه في طلب محدد وهو أن يلوم من أخطؤوا لا أن يحلل لي مدى الصواب والخطأ في اختياري وإصراري عليه.

قلت: لعله يريد أن يبرئ ذمته منك، ولهذا فإنه يشير إليك بما سيذكره وستذكره أنت في زمن تال من أنه كان قد لمح لك بوجود بعض العيوب أو المثالب فيما كنت تظنه صوابا مطلقا.

سكت زميلي وقال: الأيام بيننا.

وبعد سبع سنوات ذكرني زميلي بالقصة كلها، وقال لي: إنك كنت على حق.

قلت: بل تقصد أستاذي.

قال: لا أنا أقصدك أنت فإني لم أفهم منه ما عناه.

قلت: كأنك تؤكد حاجة الأستاذ إلى معيد أو مساعد.

قال زميلي ساخرا: ها أنت قد أصبحت أستاذا، أفأنت الآن بحاجة إلى معيد، إنها القدرة على التعبير.

قلت: ومَنْ أدراك أن أستاذي لا يحب الرمز الغامض؟ إن هذا ديدنه!!

قال زميلي وقد بدأ يدرك الحق: حتى في هذه الموضوعات.

قلت: بل في مثل هذه الموضوعات!

قال: وماذا كسب؟

قلت: وماذا خسر؟

قال: عندك حق ولكني في حيرة كيف استطعت التكيف مع أساليبه؟

قلت: ومَنْ أدراك أنني حتى الآن قد استطعت التكيف؟

قال: حقا.

قلت: نعم.

قال: كنت على وشك أن أحسدك وأن أعجب بعبقريتك فإذا بي أرثى لك وأشفق عليك.

قلت: بل تغبطني.

قال: علام؟

قلت: على بقائي مستمتعا بعنصر التشويق رغم مرور كل هذه السنوات، أليس في هذا سر السعادة كلها.

قال: وما هو؟

قلت: سر السعادة ألا ينضب معين التشويق.

قال: لنا جلسة أخرى في الغد، ولم أكن أدري أنه قد انتوى أن يذهب من توه إلى أستاذي ويسأله عما قصده من حديثه القديم، فإذا بأستاذي يتظاهر له بأنه لا يذكره (أي لا يذكر زميلي)، ولا يذكر أنه حاوره على الإطلاق.. ولم تمض ساعة إلا وكان زميلي يطلبني بالتليفون ليسألني: ألا تزال تذكر الحوار واللقاء الذي تم بيني وبين أستاذك منذ سبعة أعوام؟ وبدا لي أنه بعد حديث أستاذي وإنكاره الشديد للوقائع بدأ يقنع نفسه أن ذلك اللقاء لم يتم من الأساس، فقد أجاد أستاذي التعبير عن أنه لا يذكر شيئا، ولا شخصا، ولا شكوى، ولا حوارا، ولا لقاء حتى حسب زميلي نفسه يعيش بعض الضلالات! وأنه ربما حاور أستاذا آخر غير أستاذي.

وحسبما تعلمت من أستاذي فإني لم أشأ أن أجعل زميلي يعيش معاناة أكثر مما هو فيه، ولهذا فقد استأذنت زميلي في أن نلغي موعد الغد معتذرًا بسفر طارئ، وكان من حسن الحظ أنه استجاب .بسرعة .إلى هذا الطلب المريب مني! لأنه ظن نفسه في موقف ضعيف!!

وفي أول لقاء لي مع أستاذي أنهيت إليه في رفق شديد أنه شكك زميلي في نفسه بما أنكر من حديث حقيقي.

قال أستاذي: وماذا كنت تظنني أفعل؟

قلت: تجبر خاطره.

قال: أي خاطر؟ وأي جبر؟ إنما تقصد إحياء الموتى.

قلت: أوصل الأمر إلى هذا الحد؟

قال: بل إنه وصل إلى حد نفخ الروح في التماثيل.. هل تظن لنفخ الروح في التماثيل جدوى؟

قلت: أهذا رأيك في حب الشباب؟

قال: إنما هي ضلالات مبكرة.

قلت: والحب؟

قال: الحب هو ما يبقي لا ما يومض.

قلت: وذكرى الوميض؟

قال: يتكفل بها الرماد.

قلت: لكن الشاعر يقول : إنه يرى تحت الرماد وميض نار.

قال: وهذا في حد ذاته دليل على الضلال.. إلا إذا أردت أن تغير العلم وتعريفاته.

وظل أستاذي على هذه العقيدة حتى توفاه الله.

****

كان أستاذي يؤمن أن النجاح في الحب لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال عوامل النجاح التي لخصتها المعادلة الخاصة بالماء والنار، فإذا كان الزوجان مائيين نجحت العلاقة، وإن كان أحدهما كذلك نجحت العلاقة، أما إذا كان كلاهما ناريًا فإن العلاقة

تفشل، فإذا افترضنا أن كل احتمال من الاحتمالات الأربعة يمثل ٢٥٪ فإن الناتج النهائي يقف بالفشل عند حدود ٢٥٪ فقط، وهو حد معقول.

وكان أستاذي ينسب إلى حميه، وكان رجل أعمال ذكيا، هذه النظرية ويسعد بنسبة هذه النظرية إلى هذا الرجل المجرب.

دار حوار بيني وبين أستاذي حول هذه المعاني ذات مرة، فإذا به ميال إلى القول بفكرة أن الإخفاق في الحب أكثر من النجاح فيه، وإلى أن الحب الذي يتولد عن المعاشرة الحسنة غالبًا ما يفوق في صموده وفي خلوده الحب الذي بدأ قبل الزواج.

ثم قال لي أستاذي: هل تدرى شيئًا عن تجربتي الأولى في الارتباط؟

قلت: لا.

قال: هل قرأت في أهرام الأسبوع الماضي أن زوجة عميد إحدى الكليات المرموقة سببت له مشكلة كبيرة؟

قلت: نعم قرأت الخبر، هي زوجة فلان، عميد الكلية الفلانية.

قال: أتعرفها؟

قلت: لا.

قال: لكنك تعرف خالها.

قلت: مَنْ هو؟

قال: هو صديقك فلان، وكان هذا الرجل مهنيا عظيما، ومثقفا كبيرا، نائبا لرئيس الوزراء، وعضوا في مجمع اللغة العربية أيضا.

قلت: أكانت هذه السيدة هي مشروع ارتباطك الأول؟

قال: نعم.

قلت: أحدس أنها كانت ملكة جمال، فعائلته بل قريته هي إحدى مواطن الجمال في إقليمنا في الدقهلية.

قال: هي أكثر من ذلك.

قلت: وما الذي أفشل التجربة؟

قال: قلت لك كل شيء ثم تسألني؟ بالطبع أفشل جمالها التجربة، وتكفل بالباقي

التعويل على نفوذ خالها.

قلت: ولابد إذًا أنك سعدت بالنجاة من التجربة.

قال: وإلا كنت أنا اليوم في الموضع الذي فيه الزوج!

قلت: لكني أذكر أني استشرتك ذات مرة في موضوع مشابه فأثنيت على قيمة الجمال.

قال: هذا من حقك.

قلت: لكني كنت أسألك رأيك لا حقي.

قال: لكنك كنت في نظري لازلت غرا.

قلت: وهل اختلف الأمر؟

قال: باختلاف الزمن.

قلت: كأنك تريد للعقل وحده أن يحكم الزواج.

قال: لم أقل هذا أبداً.

قلت: أشم هذا من نقدك لكثير من مشاعر القلوب، وانطباعات الأعين.

قال: هذا هو ما يفهمه كثيرون من تعليقاتي مع أني لا أقصد بها إلغاء دور القلب.

قلت: بل إنك تنحيه جانبا.

قال: المشكلة يا محمد أن حصر الناس تفكيرهم في الازدواجيات الشائعة تجعلهم يتصورون أن كل شيء ضد العقل هو مع القلب، وهكذا يجعلون النزق والخطأ والجنون وغيرها أحكاما للقلب لا لشيء إلا لأنها ليست أحكام العقل، والأولى بهم أن يصنفوها تحت عنوان «أحكام لا قلبية ولا عقلية».

قلت: أيعني هذا أنك تؤمن بدور القلب؟

قال: لو لم أكن أؤمن بدوره ما حاورتك.

قلت: فماذا كنت تفعل إذًا في سؤالي؟

قال: كنت أقول لك: لقد قالوا من قديم الزمان: القلب وما يريد، وبهذا أكفي نفسي مئونة مناقشاتك.. المرهقة.

قلت: أتنكر أن القلب يريد ويدفع صاحبه إلى ما يريده.

قال: أنكر.

قل: فما الذي يدفعنا إلى أن نفعل ما نهوى؟

قال: الجانب الآخر من العقل.

قلت: تعني أنه ليس الجانب الأول؟

قال: نعم.

قلت: أما أنا فأعتبر الجانب الآخر من العقل هو القلب.

قال أستاذي: إنكِ بدفاعك عن القلب ألغيت وجوده تماما.

قلت: هذا هو ما أعتقد.

قال: فما تفعل إذًا في هذا العضو الذي نعالجه، ونداويه، ونداديه، ونرفع اسمه فوق عياداتنا، وعلى تذاكرنا الطبية، وعلى كروتنا الشخصية؟

قلت: ما هو إلا المضخة.

قال: ونحن؟

قلت: وما نحن إلا مهندسو المضخة.

قال: وفي أي تخصص من تخصصات الهندسة الكبرى تقع هندسة المضخة؟

قلت: في الهندسة الميكانيكية.

قال: الآن علمت اهتمامك الحثيث بالهندسة الميكانيكية، واستشهادك بها مع أنه لم يكن يعنيني عنوان الفرع الذي تنقل عنه، وكنت أكتفي بذكاء الأفكار التي تنقلها، وإني أشهد أنك كنت أحس بها يحسه بعض مستمعيك الذين لا يعرفونك فيحدسون أنك أستاذ في هذا الفرع.

قلت: فهل يمكن لك أن تتوسط في منحى الأستاذية في الهندسة الميكانيكية؟

قال: دعني أتأكد أولا إن كان علاج المضخات يتبع الهندسة الميكانيكية أو لا.

قلت: أتشكّ في قولي؟

قال: بل ربما حصلت لنفسي على هذه الأستاذية قبل أن أتوسط لك فيها.

قلت: أتري حالنا يكون أفضل لو تحولنا إلى أساتذة في الهندسة؟

قال: أفضل بكثير.

قلت: لم؟

قال: نشخص دون أن تستنزف الآلات وجداننا،

ونعالج دون أن تعصي الآلات أوامرنا.

ونؤجر دون أن يسمم المرضي أبداننا.

******

# الفصل الثالث عشر

## التهذيب .. والبراجماتية

كان أستاذي مهذبا بطبعه ، وكنت ولازلت أقل منه تهذيبا ، وكان يتعجب في رقة شديدة وبطريقة غير مباشرة كيف أكون أقل منه تهذيبا بينما المعطيات تدل على العكس من ذلك، وكنت أقول له: إن هذا الاختلاف اختلاف جيل من ناحية، واختلاف مسؤوليات مبكرة من ناحية أخرى، ولم يكن أستاذي يوافقني على السبب الأول وإن وافقني إلى حد ما على السبب الثاني.

وأذكر في هذا الصدد أكثر من قصة طريفة، كان قسمنا في الدور الرابع، وبينما كنت في مكتب رئيس القسم وأنا مدرس مساعد جاءني عامل من طرف أحد أساتذة الجراحة الخاصة طالبًا مني أن أستمع إلى بعض ما يريد أن ينهيه إليّ وذلك من شباك مكتب رئيس القسم، بينما هو في فناء الكلية، ذلك أن التليفونات كانت معطلة، وكذلك المصاعد، وبينما أنا أستمع من خلال الشباك إلى ما يريد هذا الأستاذ إذا بيد أستاذي تربت على كتفي حين دخل مكتبه ووجدني أتحادث من خلال الشباك.

وإذا بأستاذي يسألني: ماذا اضطرك لهذا؟

قلت: كما ترى أرسل إليّ الساعي ووقف تحت الشباك.

قال: ما كان أحراك أن تقول للساعي بمنتهى اللطف إنك تدعوه للتفضل بمقابلتك.

قلت: نعم، ولكن وقتي ضيق، فالحوار الذي يدور من خلال الشباك في دقيقتين سيأخذ ربع ساعة إذا صعد وجلس.

تعجب أستاذي واشمأزّ وكأنه يريد أن يقول إن هذا هو العذر الذي هو أقبح من الذنب، ونظر إليّ بعطف فوجدني أقول: إني أعرف أنه عذر أقبح من الذنب، وأنك لا تتوقع مني أن أكون عاجزا إلى هذا الحد، ولكن ماذا أفعل؟

قال: كن كالسيف.

قلت: ولكن هؤلاء جميعا أكبر مني.

قال: لو اعتقدت ذلك لأكلوك.

قلت: فإنك لا تحميني.

قال: ولن أحميك.

قلت: فما العمل؟

قال: مادمت في وضع سابق عليهم أدبيًا ومعنويًا فصمم على أخذ حقوقك البروتوكولية كاملة حتى ولو خسرت اليوم وغدا.. وحتى لو اضطرك هذا إلى التسول المادي.

قلت: هل تستقيم الكرامة والعزة مع التسول المادي؟

قال: لن يحدث التسول المادي لمعتز بنفسه، لكني أصور لك ما يغري النفس البشرية حين تريد أن تقنع نفسها بقبول الدنية فتتنازل عن كل شيء تدريجياً.. ولا أراك تصلح للتنازل، وإنما أراك تصلح رمزًا لعزة النفس في سلاسة.

قلت: أشكرك.

قال: شكري أن تلتزم بنصيحتي، وسعادتي أن أراك وقد كسبت من وراء اتباع النصيحة.

قلت: سأفعل إن شاء الله.

وظني أني فعلت هذا حتى مع أقرب الناس إلى أستاذي نفسه.

****

**القصة الثانية**: ذهبنا لحضور اجتماع مشترك بين بعض الأقسام في الكلية من أجل توزيع المهام الدراسية، وإذا ببعض الأساتذة يدلون ببيانات غير صحيحة، وأنا أغلي من هذا الباطل الذي يقال، وأميل على أستاذي وأقول له: إن هذا الذي يتحدثون به باطل، فيقول لي: بل هو ظاهر البطلان، فلما جاء علينا الدور تركني أتكلم، وبعد دقائق قاطعني أحد الأساتذة فعمدت إلى الصمت حتى إذا ما انتهى من كلامه بدأت كلامي مرة ثانية دون أن أعلق بأي شيء على مقاطعته وكأنها لم تكن شيئا مذكورا، ثم بدأ رئيس الجلسة يسألني فيما قاطع به الأستاذ الآخر وأنا أجيب رئيس الجلسة دون أن أنظر ناحية الأستاذ المقاطع.

فلما انتهى الاجتماع قال أستاذي: الآن أستطيع أن أموت وأنا مطمئن عليك.

قلت: ولكن هذا كلفني من أعصابي وكظم غيظي وإقفال فمي على لساني.

ضحك أستاذي وقال: يبدو أن عندك ميلا إلى الانتكاس بعد الشفاء.

قلت: لا ولكنني من أجل السلوك المهذب استعنت بوجودك بجانبي وكنت أكز على أسناني.

قال: نعم كنت أراك، وإذا أردتني معك في كل اجتماع قادم حتى تتخلق بالتهذيب الكامل على نحو ما فعلت اليوم فأنا على استعداد.

قلت: أفتراني كنت عند حسن ظنك؟

قال: وأكثر.

ثم أردف يقول: وبصراحة إنني نفسي لو كنت بمفردي لكنت قد تجاوزت في كلامي مع هؤلاء.

قلت: إذًا فأنا معذور لو تجاوزت.

قال: لا يسمح لك وضعك المتميز بهذا وأنت علم واعد!!

قلت: ربما سمح سني فأنا لازلت غرا.

قال: ولكنك أديب ومَنْ منا أديب؟ ولن يسامحك أحد لو نبا لفظك.

قلت: أهم واعون إلى هذا الحد؟

قال: إذا كنا لن نعول على وعيهم.. فهل نعول على انعدامه؟

****

كان أستاذي يتمتع بقدر كبير من الحياء، أو قل ، إنه كان من الذين يتمتعون بالقدر الأكبر، كان حياؤه في تصرفاته كما كان في نظراته، ولم يكن يرتاح إلى أن يؤدي دورًا يتعارض مع الحياء الطبيعي الذي تربى عليه، وكما نعرف من الحياة فإن الحياء في كثير من الأحيان يقودنا إلى أنواع متعددة من الخسائر أو التكاليف التي يمكن الاستغناء عنها بالتخلى عن الحياء المطلق أو المفرط مع الحفاظ على الحياء نفسه.

وعندي من الأمثلة كثير على هذا المعنى، وربما كان من السهل بأن أبدأ بقصة المادة اللاصقة المسماة «برت» التي صنّعتها ألمانيا.. كانت هذه المادة بمثابة إعجاز في تحقيق الغاية المرادة منها، فهي تساعد على لصق أكيد وفعال .وفي الوقت نفسه .فإنها لا تسبب أي أذي للمادة الملصوقة ولا للمادة الملصوق عليها الرسم، وهي تخلو من كل الآثار الكيميائية والفيزيقية الضارة التي كانت ملازمة للمواد اللاصقة السابقة عليها، وربما يتعجب القارئ من مثل هذا المديح لهذه المادة، والقارئ معذور وبخاصة إذا لم يكن قد

شهد عصر الصمغ الذي لا يلصق(!!) وفي الوقت ذاته يفسد المواد الملصوقة وأرضياتها، ونحن في تخصصنا في طب القلب (على سبيل المثال) كنا نحتاج إلى مادة لاصقة لا تطغى على الشريط الحراري الخاص برسم القلب الكهربائي عندما نلصقه على ورق لنحتفظ به أو لنجري عليه الامتحانات أو لنضمنه بحوثنا العلمية أو رسائلنا الجامعية.. وهكذا فإنه عندما ظهر «برت» كان فتحا عظيما، وهكذا بدأت أرشد كل زملائي إليه، لكن الحال مع أستاذي يختلف، فالأولى، مع كرمه الدائم معي، أن أحضر له عينة من هذه المادة السحرية الجديدة وبخاصة أنه كان ولا يزال مغرمًا بلصق رسومات القلب النادرة أو الصعبة وإعدادها للتدريس وللامتحان، وكم فسدت أو تلفت منه رسوم نادرة بسبب المواد اللاصقة القديمة.

كنت واثقًا أن أستاذي سيثني في اليوم التالي الثناء كله على المادة الجديدة وسيشكرني عليها، وبخاصة أنه بطبعه المغرم باستكشاف الجديد لن يصبر عليها وعلى اختبارها، وبخاصة .مرة ثالثة .أننا في ذلك اليوم كنا قد صادفنا بالفعل رسم قلب كهربائيًا نادرًا وقال أستاذي مخاطبا رسم القلب ومتغزلا فيه : «ستكون أنت يا جميل من أول ما نجرب عليك المادة اللاصقة التي يقول محمد عنها : إنها سحرية».

وجاء اليوم التالي وكنت طوال ذلك اليوم مع أستاذي في عيادته لكنه لم يشر إلى الموضوع من قريب ولا من بعيد.

كان الحياء الذي يتمتع به أستاذي يجعلني أعامله أيضا وأنا متمتع بقدر كبير من الحياء.. وهكذا فإني من واقع الحياء لم أستطع أن أسأله عن انطباعه عن المادة الجديدة.

ثم مرت الأيام ونسيت الموضوع تماما.

وبعد حوالي ثلاثة أسابيع إذا بأستاذي أول ما دخلت العيادة يقول لي: سامحني.

قلت: لماذا؟

قال: سامحني أولا وسأقول لك.

قلت: لماذا؟

قال: وهل هناك احتمال ألا تسامحني؟

ارتبكت وقلت: العفو!!

قال: بل سامحني أولا.

قلت في ابتسام: قد فعلت مضطرا.

قال: هل تذكر المادة اللاصقة السحرية؟

قلت: البرت.

قال: هي تلك.

قلت: نعم.

قال: لماذا لم تذكر لي طريقة تشغيلها؟

قلت: وماذا حدث؟

قال: هل تعدني ألا تسخر مني؟

قلت: ما الأمر اليوم؟ سماح وعدم سخرية.. إني خائف على نفسي.

قال: لا تخف، وما دمت قد وصلت إلى هذه المرحلة من الاضطراب أو تمثيل الاضطراب فلا يليق بي أن أتعب أعصابك أكثر من هذا، والقصة أنني عندما أخذت منك إصبع البرت هيأت نفسي ليلة طويلة من ترتيب رسومات القلب. فلما بدأت استعماله وجدته منتهيا!! فرميته من توي في صندوق القمامة.. وظلمتك.. وقلت : إنك أحضرت لي إصبعا منتهيا كعينة.. وبعد أسبوعين وفي ظل حاجتي الشديدة إلى المادة اللاصقة سألت صديقي الحاج حسن (صاحب مكتبة كبيرة في الزقازيق) عن صمغ جيد فقال لي: إن هناك مادة جديدة كنتَ أنتَ الذي أرشدته إليها وإلى استحضارها من القاهرة، ولأني لم أكن أذكر اسم المادة فقد سألته أن يريني عينة منها، فإذا بها المادة التي أشرت بها عليّ نفسها وأحضرت عينة منها وقال لي الحاج حسن : إنها متوافرة في أحجام مختلفة فقلت: نجرب الأصغر فلما عدت إلى البيت في المساء وجدت الإصبع وكأنه منته، فقذفت به هو الآخر، واستعوضت الله، فلما كان صباح اليوم إذا بالحاج حسن يسألني عن انطباعي عن المادة اللاصقة فأجبته بما حدث فإذا به يقول : إنه نسي أن يذكر لي كيف يعمل هذا الإصبع اللاصق وأنه يعمل كإصبع الروج تديره من أسفل كلما استعملته لتبرز على سطحه المادة اللاصقة، وتكرر هذا التحريك حتى ينتهي الإصبع..

ولهذا السبب فإني أطلب منك السماح، لأني ظلمتك.

قلت وأنا أبتسم: لكني بالفعل أستحق هذا الظلم لأني لم أوضح هذا المعنى.

قال أستاذي في تواضع: ربما حدث هذا لأني أنا لست على مستوى التكنولوجيا.

قلت: لا.. الخطأ خطئي وأنا أستحقُّ ما حدث.. ولكي أكفر عن هذا الخطأ فسأروي لك بقية التعليمات.

قال: وهل في الأمر تعليمات أخرى.

قلت: إن درجة تشبع المادة الملصوقة بهذا اللاصق تتحدد حسب رغبتك من اللصق! فإذا أردت لصقا مؤقتا يسهل فكه بعد حين فما عليك إلا أن تخفف الضغط، أما إذا أردت تثبيتًا أكثر ، فإن عليك أن تزيد الضغط، ولك أن تتذكر في هذا المقام قول أبي العلاء المعري مخاطبًا غرور الإنسان حين يقول:

خفف الوطء فإن أديم هذه الأرض من أعين ساحرة الإحورار.

****

لا ينتهي هذا الفصل من دون أن أروي قصة ذات مغزى.

فتح أستاذي قلبه وحكي لي في ذلك اليوم موقفا وجد نفسه فيه ذات يوم ولكن الحلم هو الذي أنقذه منه، كانت العادة أن يتقدم أستاذ كل فرع من تخصصات الباطنة بسؤال لأستاذ الباطنة العامة المكلف بوضع امتحان البكالوريوس، وكان أستاذي يفعل هذا بسلاسة وبصفة مستمرة، وفي ذلك العام الذي اشتعلت فيه الفتن في الكلية فوجئ برئيس قسم الباطنة العامة يدخل عليه مكتبه في الصباح ويسأله: هل هذا هو المظروف الذي يحوي السؤال الذي يقترحه؟ وأجاب أستاذي بالطبع: نعم، فإذا بأستاذ الباطنة يمزق المظروف أمام أستاذي قطعا قطعا وينصرف.

وبعد أقل من ربع ساعة فوجئ أستاذي بمسؤول كبير في الكلية يتصل به في التليفون ويسأله عما حدث فإذا بأستاذي في منتهي الهدوء يجيب هذا المسؤول بأن شيئا لم يحدث، ولكن المسؤول أخذ يقص عليه ما حدث بالتفصيل فلم يكن من أستاذي إلا أن قال: إن أستاذ الباطنة هو بمثابة ابني الكبير وليس بيننا ما يستدعي الضيق ولا الغضب من مثل هذا التصرف، ولم يكن في وسع المسؤول الكبير إلا أن يصمت على مضض عندما فشلت محاولته التي بذل من أجلها الغالي والنفيس .. وهو الذي كان يريد بأية طريقة أن يظهر سطوته كرئيس على أستاذي مع أن أستاذي كان يسبقه بها لا يقل عن عشر سنوات في الأستاذية وأكثر منها في السن.

****

## الفصل الرابع عشر
## ثورة الشك

خاض أستاذي معارك انتخابية كثيرة طيلة الفترة التي عملت فيها معه عن قرب، منها انتخابات نادي هيئة التدريس في الجامعة، وعضوية مجلس الشعب، ونقابة الأطباء، وعمادة الكلية.. إلخ، وبالجملة فقد كان أستاذي .على حد تعبير بعض زملائنا. لا يترك انتخابات إلا ودخلها، والواقع أن هذه المشاركة في الانتخابات لم تكن على هوى أستاذي تماما، وإنما كانت نوعا من أنواع الالتزام الحزبي كما يقال في أدبيات السياسة.

ولاشك أن معظم هذه الانتخابات مرت في صورة قريبة من المباريات الرياضية إلا انتخابات عمادة الكلية في مرتها الثانية (بالنسب لأستاذي) فإنها تركت آثارًا سيئة وممتدة في نفسية أستاذي على نحو ما نرى في هذا الكتاب .

أما انتخابات نوادي هيئة التدريس والنقابة وما إليها فقد كانت تمر بسلاسة مهما كانت نتيجتها، ولم يكن الفوز حليفًا دائمًا لأستاذي، لكنه كان كثيرا ما يحقق الاكتساح .

أما انتخابات مجلس الشعب فقد شهدت طرفة تاريخية سنستعرضها في موضع آخر ، وسنكتفي هنا بأن نروي قصة أستاذي مع انتخابات العمادة.

حين اكتمل عدد أساتذة الكلية إلى أكثر من عشرة أساتذة وحل موعد تجديد العمادة في ١٩٨٥ ، كان اسم أستاذي من الأسماء المطروحة نظرًا لفوزه بأعلى الأصوات في انتخابات نادي أعضاء هيئة التدريس التي أجريت قبل عام.

سألت أستاذي: هل سيخوض انتخابات العمادة كما يقولون؟

قال بسرعة وهدوء: بالطبع لا .

قلت: والشائعات؟

قال: سرعان ما تتبخر.

قلت: لكنك لم تعلن أنك لن تخوض الانتخابات.

قال: لأني فعلًا لن أخوضها.

قلت: فلماذا لا نعلن؟

قال: لن أعلن، وأرجوك ألا تعلن.

قلت: هل هناك احتمال أن تعدل عن رأيك؟

قال: لا.

قلت: فلماذا لا نوضح هذا؟

قال: إن إعلاني في حد ذاته مناورة، وإن مجاهرتي بعدم الرغبة لن تنم إلا عن رغبة مكبوتة، والأفضل أن نترك الأمور هكذا.

قلت: إلى متى؟

قال: سرعان ما تصحح الأمور نفسها فلا تقلق.

وبالفعل فقد مضت الأمور على أن أصبح أستاذي يمثل أبرز الأساتذة المؤيدين لضرورة استمرار العميد الذي أوشكت مدته الأولى على الانتهاء، بينما رشح وكيلاه نفسيهما في مواجهته، وهكذا أصبح من المنطقي أن يحل أستاذي في محل أحد الوكيلين عندما تجرى الانتخابات ويفوز العميد بالتجديد، وعلى الرغم من أن أحد الوكيلين بذل جهودًا انتحارية من أجل الفوز بالمنصب فقد كنا نحن شباب أعضاء هيئة التدريس نعرف أنه من الصعب عليه وعلى غيره، بمن فيهم أستاذي، أن ينافسوا العميد المتميز العالم الجليل، وهو بلا شك أفضل عمداء كليتنا حتى الآن التزاماً، وأداء، وفهماً، وحزماً، وأمانة، ورقياً، وعلماً، وعطفاً، ويكفيني في هذا الصدد مثل ضربته حين كنت عضوًا في لجنة المكتبات وتوليت حصر أعداد الدوريات العلمية فوجدت فترة هذا العميد العظيم هي الفترة الوحيدة التي استقام فيها توريد كل أعداد الدوريات العلمية دون قطع للاشتراك، أو إهمال في تزويد المكتبة بالأعداد، وهذا مثل عميق للدلالة على انضباط الأداء واهتمامه بالمقومات الأساسية لكلية تشتغل بالعلم.

بعد عام واحد أصبح عميدنا نائبا لرئيس الجامعة لشؤون التعليم والطلاب.

وهكذا كان لابد من انتخابات جديدة كان أستاذنا أبرز المرشحين فيها هو والوكيل السابق الذي لم يفز في الانتخابات الماضية، ولم يكن فوز أستاذنا صعبا ولا كان سهلا، وإنما كان الأمر متوقفًا على مخاض اللحظات الأخيرة أي على مؤامرة كبيرة تستلزم إعادة ترتيب الأوراق، وسرعان ما وجد الوكيل السابق طريقه إلى مناورة ذكية، أو بالأحرى وبالأدق: خبيثة، كانت كفيلة بإعادة ترتيب الأوراق، ومن ثم بفوزه تبعا لترتيبات

اللحظات الأخيرة.

في واقع الأمر لم أكن سعيدًا على الإطلاق بفوز هذا الرجل من ناحية، ولا بعدم فوز أستاذي من ناحية أخرى، ولا بالمؤامرة التي تمت من ناحية ثالثة، وذلك لأن أحد الأساتذة الأعزاء عليّ كان طرفًا فيها، وهكذا كانت النتيجة محبطة على ثلاثة محاور، عز عليّ أن يشارك أستاذ طيب أحبه في مؤامرة، وأن يكون أستاذي ضحية لهذه المؤامرة، وأن تكون نتيجة المؤامرة هي وصول المنافس لمنصب العميد، وهكذا وجدتني في حالة من الضيق النفسي الشديد، ووجدتني أقود خطواتي إلى عيادة أستاذي.

وجدته قد سبقني إلى العيادة بدقائق معدودة ولم يبدأ أي كشف بعد.

سألني: هل وراءك شيء مستعجل في القاهرة أو الزقازيق؟

قلت: الطب الروتيني فقط.

قال: هل عندك مرضى كثيرون اليوم في القاهرة؟

قلت: لا أعرف، لكني في الأيام التي آتي فيها إلى الزقازيق لا أبدأ عملي في العيادة مع المرضي قبل التاسعة، وأقلل ما استطعت من الكشوف التي تطلب الحجز مؤجلًا لها إلى اليوم التالي، فإذا وصلت مبكرا فإني أستهلك بعض تلال الأعمال الأخرى التي ورائي.

قال: هل تريد أن تترك خبرًا في القاهرة لشيء وراءك أو ارتباط مسبق غير المرضي؟

قلت: نعم.

قال: تفضل.. التليفون عندك، ريثما أعيد ارتداء ملابس الخروج.

قال هذا، وخلع المعطف الأبيض، و«شوز» العيادة، وارتدى جاكت الخروج وحذاء الشارع، وقال لمساعده: لن نعود إلا بعد ساعتين على الأقل، وقاد خطواتي إلى أفخر مطعم سياحي في الزقازيق حتى نتناقش على الغداء.

قال أستاذي: أراك مبتئسا!.

قلت: أرتب الأسباب حسب باعثيتها على الابتئاس، وذكرت له الأسباب الثلاثة حسب ترتيبها.

قال: بينك وبين الرجل شيء؟ يقصد الأستاذ الذي فاز بالعمادة.

قلت: كل خير.

قال: فلماذا تتخوف منه؟

قلت: سيشيع جوًا من الفوضى يصعب إصلاحه طيلة خمسين عامًا على الأقل ريثما ينتهي الجيلان اللذان سيتأثران برغبته في السيطرة والمظهرة!

قال: لكنه مشهور بقدرته على ضبط الكنترول والطوابير.

قلت: هذا هو النظام المظهري، وبقدر حرصه عليه ونجاحه فيه فإنه سوف يخرب كل شيء بني في هذه الكلية بتشجيعه أخلاقيات الدسائسية ، والوصولية، والانتهازية، والشللية، والمظهرية، وهي أخلاق سلبية خمسة نجت منها كليتنا على مدى عهود العمداء الثلاثة الأولين، وستبدأ في التسلل إلى كياننا هذا الذي أحبه.

قال: لعلك تتجنى لأنك تقارنه بالعمداء الثلاثة الأولين، وكلهم أحباؤك.

قلت: لا وجه للمقارنة.

قال: لكننا الآن مؤسسة يصعب على فرد واحد أن يفعل فيها ما تتنبأ به من هذه الأمراض الخمسة.

قلت: كل مؤسسة قابلة للفساد مادامت في طور شبابها.

قال: فإن وصلت إلى الشيخوخة.

قلت: استعصت على الفساد كما تستعصي على الإصلاح.

قال: لا فارق إذاً؟

قلت: بل تحتاج المؤسسات أن تستغل شبابها في الحلال لا في الحرام.

قال: الآن فقط فهمت ما تقصده! ويبدو أنك على حق.. لكن خبرني: هل تتكلم عن عقيدة، أم عن خبرة بالتاريخ، أم عنهما معاً؟

قلت: أكذب عليك إذا أنكرت أن دافعي بل زادي هو الخبرة بالتاريخ فحسب.

قال: نسأل الله النجاة.

قلت مسرعاً: ومع هذا فالزملاء يعولون على بقائك في منصب الوكيل؟

قال: يعولون عليّ ماذا؟ إني أنوي في نهاية هذا الغداء أن أرسل معك باستقالتي من الوكالة لعمك (يقصد: رئيس الجامعة).

قلت: أنا تحت أمرك بالطبع، لكني لا أوافق.

قال: إنك تناقض نفسك، كيف تبدي في الرجل ما أبديت من آراء لا أجرؤ أنا على التلميح بها لأقرب الناس إليّ، ومع ذلك تطلب مني العمل معه وكيلا؟ هل تظنني أصلح ما أفسده الدهر؟

قلت: ربما.

قال: كيف؟

قلت: قد يغيب فترات طويلة تتولى فيها الأمر.

قال: لن يحدث، فهو يريد أن يستمتع بكل دقيقة من أيام هذه السلطة التي عاش أحلامًا طويلة في الوصول إليها.

قلت: ربما يغيب نهائياً.

قال: المناصب الأعلى منه مشغولة بالطب وليس إليها من سبيل.

قلت: فذلك حق مؤيديك عليك.

قال: ماذا تقصد؟

قلت: أنت سيد العارفين أن بعض مَنْ أيدوك سيدفعون ثمن هذا التأييد من أرزاقهم وجاههم.

قال: أعرف.

قلت: ووجودك في موقع الوكالة ربما يخفف بطش العميد بهم.

قال: ربما.. وربما لا.

قلت: لو مارست صلاحياتك كلها فسيكون من الصعب أن يجور عليهم.

قال: أفهم هذا، لكني ربما لا أكون قادرًا عليه.

قلت: من أجل مَنْ أيدوك؟

قال: إن أيدوني من أجل المبدأ فبها ونعمت، وإن كان من أجل حماية مصالحهم فالله الغني.

قلت: هل تنوي الترشيح مرة أخرى؟

قال: أين نحن من المرة الأخرى.

قلت: الأيام تمر سريعا.

قال: لكنك يا محمد تريد أن تضعني في دائرة السياسيين الذين يمارسون العمل على الدوام، فهم إما في المعارضة، وإما في الحكم.

قلت متخابثاً: وأنت، فيما يبدو، تريد أن تعيش دور الزعيم الفرنسي ديجول وتتمنى أن يستدعيك «الشعب» حين يرى ألا صلاح للأمر إلا بعودتك.

قال: كان عملاقا.

قلت: أرأيت؟

قال: رأيت ماذا؟

قلت: أنت متمثله.

قال: ألم يكن عملاقا؟

قلت: بلي.

قال: فما الضرر في استحضار ذكره الحسن؟

قلت: هذا ما قصدته.. لكن الظروف مختلفة.

قال: فيم؟

قلت: بعد سنوات سيقفز إلى مقاعد المصوتين في انتخابات العمادة والصالحين لها أفراد كثر من جيل جديد يرى نفسه أحق باللعب وأقدر عليه.

قال: أمامهم وقت.

قلت: قد بدؤوا وستكون السنوات الخمس القادمة كافية لوصول عدد منهم إلى مقاعد الأستاذية يفوق عدد الأساتذة الموجودين حاليا.

قال: ما لي ولهذه الحسابات الصارمة؟

قلت: هذه هي الحقيقة.

قال: وهل تغير موعد الانتخابات لتكون كل خمس سنوات بدلا من كل ثلاث؟

قلت: في حالتنا يمكن القول بأنه تغير.

قال: كيف؟

قلت: لأنك نفسك لن تقبل أن تدخل الانتخابات مع العميد الحالي حين يكون في التاسعة والخمسين بعد ثلاث سنوات.

قال: ومن أين تأتي السنة الخامسة؟

قلت: هو من مواليد ديسمبر، وبذلك يمتد عمله إلى نهاية العام الدراسي التالي.

قال: ومن أين جئت بالرقم الذي تزعم فيه أن العدد سيتضاعف؟

قلت: بل أزعم أنه سيفوق الضعف.

قال: ما دليلك؟

قلت: من الطبيعي أن أغلب مَنْ وصلوا الآن إلى أستاذ مساعد سيكونون أساتذة بعد أربع سنوات.

قال: وما عدد هؤلاء؟

قلت: يفوق عدد الأساتذة الحاليين، بل إن بعض قدامى المدرسين الحاليين سيكونون أساتذة في الانتخابات القادمة.

قال: كيف؟

قلت: يصلون إلى أستاذ مساعد خلال هذا العام، ثم يصلون بعد أربعة أعوام إلى درجة أستاذ.

قال: لكن هؤلاء منتخبون لا مرشحون.

قلت: ما لم تتحمل الظروف السيئة فسوف يكون العميد القادم من هؤلاء الذين لم يمروا حتى بتجربة التصويت من قبل!!

قال: أتظنهم يلعبون دوراً مؤثرًا إلى هذا الحد في الانتخابات القادمة؟

قلت: أكرر لك زعمي أن العميد سيكون منهم إذا لم تحافظ على موقعك في الوكالة، وإذا لم تثبت لمريديك أنك مكافح من أجلهم.

قال: لكن هذا ليس من طبعي.

قلت: من أجل مثالياتك التي تتقدم من أجلها لمثل هذه المواقع تستطيع أن تتحمل بعض الأذى النفسي.

وظللنا نتجادل في هذا الأمر طيلة ساعة وصلنا في نهايتها إلى أن يستمر وإلى أن يؤجل

رفع استقالته.

لكنني فوجئت بعد شهرين بأستاذي رئيس الجامعة وهو يشير إليّ أن انفرد به بعد خروج ضيوفه، وينهي إليّ أن أستاذي بعث إليه باستقالة، ويؤسفني بالطبع أن أشير إلى أن الرسول الذي جاء بالرسالة كان يلعب ضد أستاذي وأستاذه، مع أنه كان من تلامذته الأولين، وقد طلبت إلى أستاذي رئيس الجامعة أن يؤجل قبول الاستقالة فصادف ذلك هوى في نفسه، وكأنه كان يخبرني لأطلب منه ذلك الطلب، وقد أنهي إليّ أنه يعتزم ذلك وأنه يعول عليّ في إقناع أستاذي بالرجوع عن هذا القرار.

وبعد حوار طويل مع أستاذي على غداء آخر تمكنت من إقناعه بسحب استقالته، وبالانتباه إلى انتقاء الرسل الذين يبعث معهم بمثل هذه القرارات.

وفي أثناء سفرة قصيرة إلى الخارج تقدم أستاذي باستقالته الثالثة، وقد ذهب بها إلى رئيس الجامعة مباشرة... لكن الرئيس أعطانيها عند عودتي ، وعدت بها إليه مباشرة.

ثم حدث موقف من مواقف الخلافات أيقنت بعده أن من الظلم لصحة أستاذي أن ألح عليه في البقاء، فلم ألح عليه في تأجيل استقالته الأخيرة التي قبلت بعد قرابة عام عمل فيه وكيلًا لمنافسه.

بعد أربع سنوات من استقالة أستاذي حلت انتخابات عمادة جديدة وكنت لظروف سفري إلى أمريكا بعيدًا بعض الشيء عنه، لكن جاءت النتيجة مخيبة لكل الآمال والتوقعات التي بناها أستاذي على هذه الانتخابات، وليس هذا موضع رواية تفصيلات ما حدث في هذه الانتخابات، فهو مما يخرج عن موضوعات هذه الحوارات، لكني أذكر أن أستاذي طلب مني ذات يوم أن أمر عليه في العيادة قبل أن أعود إلى القاهرة، وما إن وصلت حتى دعاني إلى الغداء كالمعتاد، وعلى الغداء سألني: ما هي قصة أبي موسى الأشعري؟ إني أريد أن أسمعها منك أنت وبألفاظك أنت.

قلت: باختصار شديد وجدت الكلية كلها عقب الانتخابات مباشرة تتحدث عن أن مساعدك الأول اتفق، مع إحدى الجبهات المناوئة في انتخابات العمادة، اتفاقا كانت نتيجته أن ضاعت نتيجة انتخابات العمادة التي كانت مضمونة لكم فانتقلت من سيادتكم في اتجاه آخر لم يكن متوقعًا بحسابات السياسة، ووجدت الهجوم عليه شديداً، ومع أني أكثر الناس تعرضا لظلمه ، ومع أنه لا يكفّ عن إيذائي والعمل ضدي وتشويه سمعتي ،

فإن انتماءنا لقسم واحد ولأستاذ واحد جعلني أبحث له عن مخرج يعترف بالخطأ لكنه لا يستلزم الإدانة، هكذا أردت تصوير الأمر من وجهة نظر منصفة له فقلت بعد تفكير: إن تصرفه كان في إطار تصرف أبي موسى الأشعري.

قال: ومن الذي شبهه إذًا بيهوذا الأسخربوطي؟

قلت: بعد أكثر من أسبوع من هذه الواقعة استدعاني أستاذ المسالك الثالث بالتليفون كي أقابله في مكتب صديقه وكيل الكلية العزيز على لأمر مهم، وقال لي على ملأ من الأساتذة بمجرد دخولي: يا محمد... كن أمينا، ولا تجامل أصدقاءك وأساتذة قسمك على حساب التاريخ، إن زميلك الذي أتم التحالفات على حساب أستاذك لم يتصرف تصرف أبي موسى الأشعري، وإنما تصرف تصرف يهوذا الأسخربوطي.

قال: وكان هذا على مشهد من كثيرين.

قلت: أستطيع أن أتذكر منهم فلانًا وفلانًا وفلاناً، وعددت سبعة أساتذة ثم استعدت صورة تلك الجلسة التي لم يكن قد مضى عليها كثير من الوقت وتذكرت ثلاثة آخرين كانوا في ذلك المكتب الذي كان يعج بأعضاء هيئة التدريس يتبادلون التحيات والآراء والحكايات.

قال أستاذي: وأنت لازلت على رأيك في أنه أبو موسى وليس يهوذا؟

قلت: نعم لا أزال على رأيي.

قال أستاذي: وهل تدخل غيركما في تأليف هذه التشبيهات الموحية؟

قلت: مبلغ علمي أن «الإبداع» فيها اقتصر على شخصي، وعلى أستاذ المسالك الثالث، وبقية الأدوار أدوار رواة أو محبذين لهذا الرأي أو ذاك.

قال أستاذي: لكنك لا تزال على رأيك في أنه أبو موسى وليس يهوذا.

قلت: يظهر من سؤال حضرتك أنك تستريب فيما وصلك من روايات.

قال: وما هي الروايات التي وصلتني؟

قلت: أحدس أن يقول بعضها بأني غيرت رأيي.

قال: والبعض الآخر؟

قلت: أحدس أن ينسب إليّ تشبيه زميلنا الكبير بيهوذا بدلا من أبي موسى.

قال أستاذي: حدساك صائبان.

قلت: وأنت ماذا ترى؟

قال: ماذا ترى أنت أنني أرى؟

قلت: تعطيني الأمان.

قال: أعطيتك.

قلت: يبدو أنك بدأت تقتنع بأن زميلنا لعب دور يهوذا.

قال: لماذا؟

قلت: من هذا الذي نراه من طبيعة علاقته بالمجموعة التي وصلت إلى السلطة.

قال: ولماذا أيضا؟

قلت: إن ساعدني حدسي من مجرد سؤالك فلربما أن علاقته بك قد تأثرت.. وأصبح يتباعد عنك في ظل قربه من السلطة.

أطرق أستاذي بأسف وقال: هو ذاك.

هنا فاجأت أستاذي وقلت: وما العمل؟

قال: ما العمل في ماذا ... أنت تتحدث عن رأي لا عن موضوع.

قلت: لا.. ما العمل إذا سُئلت حضرتكم عن اعتقادكم في هذا الموقف.

قال: وهل السؤال مطروح؟

قلت: إذا كانت الروايات قد وصلتك أنت نفسك على نحو ما تحدثنا فيها الآن فهذا يعني أن السؤال قد أصبح مطروحًا وبشدة، وسيكون الحدث التالي في سلسلة الشائعات أن يوجه السؤال إليك أنت نفسك باعتبارك صاحب الشأن.

قال: وكيف سيسأله الناس؟

فقلت: أقصى ما فيه من صراحة أن يقابلك الآن أحدهم فيسألك هل تعتقد أن فلانا أبو موسى أو يهوذا؟

قال: وماذا تفعل لو كنت مكاني؟

قلت: أقول كما قال الرئيس مبارك عندما سئل عن تفضيله لسياسات السادات أو عبد

الناصر؟

قال: ماذا قال؟

قلت: قال: إن اسمه حسني مبارك... وهكذا تقول إن اسمه: فلان، وتذكر اسمه الأصلي.

قلت: هذه إجابة نموذجية يا محمد.. وإني أشكرك عليها.

قلت: بل اشكر رئيسنا.

قال: إنما تعترف الوقائع بالفضل للمؤرخين من أمثالك، فكم من أقوال حكيمة ضاعت بعد أن صرح بها أصحابها، وأراهنك أن مبارك نفسه نسى .

قلت: لكن هذا لن يغني عنك إلحاح المتطفلين.

قال: وما أكثرهم!! وما أكثرهم!!

قلت: فماذا سوف تقول لهم؟؟

قال أستاذي بعد تفكير استغرق منه دقيقتين أو أكثر: سوف أسألهم هل هو مسلم أو يهودي؟ وبالطبع يجيبون أنه مسلم فأقول لهم : إذًا هو أبو موسي.

قلت: فماذا تفعل إذا تخابث أحدهم وقال : إنه يهودي؟

قلت: أقول إذًا فهو يهوذا.

وكان في هذا القول دليل قاطع على أن أستاذي قد بدأ يشك!! وكانت كل الظواهر تدل على أن له الحق في كل ذلك الشك. وظلت ثورة الشك تتأجج في نفس أستاذي.

******

# الفصل الخامس عشر
## قيمة اللون الأسود

بعد يومين اثنين من أحد الانتخابات التي لم يوفق فيها أستاذي كنا سنحتفل في القسم بإحدى المناسبات الاجتماعية، وكنا في حيرة كيف نوفق بين المناسبة الاحتفالية وبين عدم توفيق الأستاذ، وطمأنت زملائي إلى أنني أفكر في كلمة تتجاوز الموقف وتحل المشكل... وأخذت أفكر حتى هداني الله إلى فكرة من أفكار البيان والتعبير، وهي أن التجارب الحزينة في حياة أستاذي السياسية والعامة تمثل ذلك اللون الأسود، الذي لابد من وجوده في اللوحة الفنية، وأن هذا اللون جزء مكمل لعناصر الجمال، وأن الجمال لا يمكن أن يتحقق إذا استبعدنا اللون الأسود من اللوحة مادام أحد عناصرها ذا لون أسود.. وألقيت الكلمة التي دارت حول هذا المعنى، فإذا بأستاذي يسألني على الملأ: هل سبقك أحد إلى هذه الفكرة العبقرية؟

قلت: على ما أعلم لا.

قال: وعلى ما أعلم لا.

قلت: فلماذا السؤال؟

قال: إنما قصدت أن أعترف لك بالفضل، لأن الفكرة أعجبتني وبهرتني.

قلت: الفضل لك.

قال: كيف ذلك؟ هل أنا الذي كتبت لك الكلمة؟ هل غششتك؟

قلت: لا.. بل أنت الملهم.

قال: الله أكبر (وكانت هذه عادته)، وأين الإلهام فيّ أو مني؟

قلت: ألست أنت الذي خضت المعارك وتحملت وطيسها ونتائجها؟

قال: بلى.

قلت: وأنت الذي أوحيت لي بها تأملته فيها فخرجت به؟

قال: بلي.

قلت: فأنت الملهم.

قال: لو سمعك واحدًا من المتنطعين لسفك دمك.

قلت: هل تعلم أن هناك مصطلحا فنيا يدور حول ملهمات الفنانين المشاهير؟

قال: نعم أدرك المعني دون المصطلح.. أوتريدني أن أكون منهم على آخر الزمان؟

قلت: هذا إذا أصبح لي شأن.

قال: بل لقد تأكد هذا لك منذ زمن بعيد.

قلت: إنها مجاملة مشكورة.

قال: لماذا تأبى أن تعترف بقدرك؟ أهو تواضع؟

قلت: بل أقلدك.

قال: في ماذا إن شاء الله؟

قلت: في اعتذارك عن فكرة أن تكون ملهمي.

قال: إذا كان الأمر كذلك فأنا ملهمك في هذه اللوحة! أيرضيك هذا؟

قلت: نعم.

***

يجدر بي هنا أن أروي ما حدث في انتخابات مجلس الشعب ١٩٨٧ حين هنأنا أستاذنا بالنجاح في الانتخابات، لأنه كان على رأس قائمة تحالف الإخوان المسلمين مع حزبي العمل الاشتراكي والأحرار، وهي القائمة التي تسمى في الأدبيات أحيانا بتحالف حزب العمل ، وأحيانا أخرى بتحالف الإخوان المسلمين.

وقد حصلت قائمة حزب العمل على نسبة أصوات تؤهل للحصول على واحد فقط من المقاعد الانتخابية عن دائرة الزقازيق، وهكذا فهمنا وفهم الناس جميعًا أن هذا المقعد سيكون من نصيب أستاذنا، لأن اسمه كان أول اسم في القائمة، وهكذا أعلنت الجماهير واللجان الإدارية فوز أستاذي، وانهالت عليه تلغرافات التهنئة، لكن وزير الداخلية العتيد والعنيد في ذلك الوقت صمم على التفسير القانوني الذي يجعل هذا المقعد من نصيب مرشح العمال تطبيقا لقاعدة أن للعمال ٥٠٪ على الأقل من المقاعد.

وهكذا أصبح أستاذي ومعه أكثر من عشرين آخرين في دوائر أخرى في جميع أنحاء الجمهورية فائزين خاسرين، فهم الأوائل ولكن قرار وزير الداخلية جعل الثواني من

حزبهم هم الفائزين، وقد أقام هؤلاء دعاوى قضائية وقاموا بمسيرات إلى مجلس الشعب، لكن المجلس نفسه حل كما نعرف وأجريت الانتخابات مرة أخرى عام ١٩٩٠.

في كل الأحوال فإن كثيرين قدموا التهاني بصور مختلفة لأستاذي في وقت نجاحه، كما ذكرت، لكنهم لم يعرفوا بقية ما حدث بعد هذا، وكيف يعرفون القصة وهم قد أرسلوا له برقيات التهنئة (أو بوكيهات الورد، وبالفصحى: طاقات الورد، حتى لا يقال: إن عضو مجمع الخالدين لا يستخدم الفصحى) وتلقوا شكره على التهنئة، وكنت أقص على أستاذنا بعض قصص هؤلاء من أساتذة كليات الجامعة الأخرى فيبتسم لهذا الحظ الذي جعله عضوا في البرلمان في نظرهم رغم أنف وزير الداخلية، إلى أن جاء يوم سبت كنت قد ذهبت فيه إلى أستاذي مبكرا جدا لأصطحبه في سيارتي إلى الزقازيق، وكان ذلك اليوم هو اليوم الأول في امتحانات الدراسات العليا، ومن ثم فلابد من وجودنا في اللجنة قبل التاسعة لتوزيع ورقة الامتحان على طلاب الدكتوراة، وبعد أن اتصلت بشقة أستاذي من خلال الإنتركوم فوجئت في مواجهتي بنقيب المحامين الأشهر الأستاذ أحمد الخواجة يخرج من باب المصعد ليتوجه إلى سيارته، وكان لي شرف معرفته، كما أنه كان يعرف علاقتي بأستاذي، وإذا بالنقيب يسألني بطريقة مجاملة: آه.. اليوم السبت.. عندكم مجلس، ومن حسن حظي أنني ظننت أن النقيب يتحدث عن مجلس القسم فإذا بي في تلقائية شديدة أقول له: بل اليوم هو أول أيام امتحانات الدراسات العليا، ولابد من الوجود مبكرا، فإذا بالنقيب يقول: على كل حال الامتحانات أهم من مناقشات البرلمان البيزنطية.. ربنا يعينكم ويوفقكم، واستقل سيارته التي كان السائق منتظرا بجوار بابها الأيمن حتى يجلس النقيب وانطلق.

وبعد هنيهة فكرت فيما قاله النقيب فاكتشفت أنه كان يقصد بالمجلس مجلس الشعب لا مجلس القسم، وإذًا فنقيب المحامين الأشهر جار أستاذي في العمارة لا يزال يعتقد، مثله مثل آخرين كثيرين، أن أستاذي قد فاز بعضوية مجلس الشعب وأنه يمارس حقوق هذه العضوية، ولم يكن هناك ما يمنع من أن يظل الأستاذ الخواجة على هذا الاعتقاد، شأنه في هذا شأن أساتذة الكليات الأخرى الذين لم يلتفتوا إلى حقيقة أن أستاذي لم يدخل البرلمان على الرغم من هذا الفوز(!!).

بعد دقيقة أخرى كان أستاذي قد جاء، فقد كان كعادته منتظرًا بكامل ملابسه، فلم يستغرق الأمر غير نزوله بالمصعد، وفي حب شديد وتهذيب واضح، وتمثيل أوضح، وكما

لو كنت سائقا حقيقيا انصرفت إلى الباب الأيمن الخلفي ففتحته على الرغم من أن أستاذي لم يكن يركب إلا في المقعد الأمامي حتى لو لم أكن أنا الذي أقود السيارة، كان يجلس بجوار السائق ويقول لي: هذا مكاني، وأركب أنت في مقاعد الوزراء، وهكذا فإنه فوجئ بهذه الحركة المسرحية، وقد قلت له: حضرتك تحب تذهب إلى الكلية أم إلى مجلس الشعب؟

فقال: ماذا نفعل في مجلس الشعب؟

قلت: اليوم السبت بداية جلسات هذا الأسبوع البرلماني (افتح قوسا لأذكر للقارئ أن المجلس يجتمع ثلاثة أيام أو أربعة في أسبوع ثم يترك الأسبوع التالي ويعود للاجتماع في السبت الثالث، أي أنه لا يجتمع كل سبت بل سبتا بعد سبت).

ضحك أستاذي وقال: هل عينوك عضوا من العشرة المبشرين؟

قلت: لم يخل بعد مكان أحد من المعينين.

قال: فلم نذهب؟

قلت: لأن جارك يعتقد أنك تحضر الجلسات.

قال: مَنْ تقصد؟

قلت: الأستاذ النقيب!

قال: كيف ذلك؟

فقصصت عليه ما حدث.

قال أستاذي: معني هذا أنه لا يزال حتى يومنا هذا على هذا الاعتقاد؟

قلت: وربما يطلب منك خدمة تؤديها لأحد أتباعه باعتبارك نائبا ذا سطوة ونفوذ.

قال أستاذي: الله أكبر.

وكانت هذه عادته حين يصل إلى النشوة في المفارقة في القصة التي تروى له!.

***

# الباب الرابع

# حوارات في الارتقاء

## الفصل السادس عشر
# ضريبة الأستاذية

قبل أن أروي هذا الحوار أبدأ بالحديث عن إيماني المطلق بأن الأستاذ الحقيقي لا يمكن أن يصل إلى الأستاذية الحقة إلا إذا كان يتمتع ضمن ما يتمتع بكرم حقيقي، وإني أزعم أنه بدون هذا الكرم الحقيقي لا ينال أي عالم أو مدرس متميز إلا ما هو أقل من الأستاذية الحقيقية التي تتطلب كرما وعطاء بلا حدود.

ومن حسن حظي أنني اكتسبت من عشرتي لأستاذي حبا للكرم، وقدوة فيه، وقد كان كرمه يعبر عن نفسه في صور كثيرة، كان يحب أن يهادي تلاميذه المقربين بما يراه أهلا للهدية، كنت في اجتماع ثقافي علمي في القاهرة لمجموعة من الأساتذة فتطرق الحديث في الاستراحة إلى ياميش رمضان، فوجدوني صامتا، فسألني أحدهم: وأنت ماذا فعلت؟ ألأنت مضرب عن الياميش لسبب طبي أو غذائي.. رجيم؟

قلت: لا... ولكن أستاذي كفاني مؤونته واشترى لي كما اشترى لأولاده.

شهقت إحدى الأساتذة الحاضرات وقالت: يابختك بأستاذك، وأخذت تقص هذه القصة على كل مَنْ تقابل حتى أصبحت القصة حديث الموسم.

****

أعود وأقول :إن أستاذي كان يتمتع بقدرة على العطاء، والحق أن كرمه وعطاءه كانا محصلة تدين وتحضر وتربية وتفكير أيضا.

وكما كان أستاذي لحسن حظي عالمًا حقيقيًا ومحبًا للعلم، فإنه كان ينفق من أجل هذا الحب، وكما كان أستاذي محبًا للأستاذية الحقة، فإنه كان ينفق أيضًا عن سعة من أجل هذا الحب، وكنا نرى فيما يفعله من أجل هذا وذاك أمرًا بديهيًا لابد لنا جميعًا أن نقلده فيه، لكن خيبة أملنا سرعان ما حلت حين وجدنا سلوكًا متناقضًا على طول الخط في عهد زميلنا الذي تولى رئاسة القسم من بعده، فإذا الأستاذية مغنم بل منجم للاسترزاق والتربح الذي لا نهاية له، وإذا كل الواجبات تتحول إلى استثمار يعود عليه وحده بالنفع المضاعف.

كان كرم أستاذي يتجلى بوضوح شديد في معلم مهم من معالم الحياة الجامعية، ذلك

أننا حين تُعقد الامتحانات أو تُناقش الرسائل نعتمد في مشاركة زملائنا من الأساتذة في الجامعات على حبهم أو تقبلهم لأداء مثل هذه الوظائف الجامعية الروتينية المرهقة، مع ما قد تتطلبه من السفر ولا نعتمد على مكافآت مجزية ينالها هؤلاء الأساتذة لقاء مشاركاتهم في هذه الأعمال المجهدة المستغرقة للوقت، لكننا في المقام الأول والأخير نعتمد على ذلك المعنى الذي يسمي بالعشم وعلى تبادل المسؤوليات، فكما أن أستاذ القاهرة يذهب ليشارك في امتحانات الإسكندرية، فكذلك يذهب أستاذ الإسكندرية للمشاركة في امتحانات القاهرة.. ويصل الأمر ببعض جامعاتنا إلى أن تبذل جهدا منظما من أجل تيسير السفر والإقامة على الأساتذة الذين يتفضلون بالمشاركة في هذه الأعمال الجامعية المتكررة، وعلى سبيل المثال فإن جامعة أسيوط تكلف شباب أعضاء هيئات التدريس وبعض الموظفين بحجز عربات كاملة من قطار الصعيد كل موسم كي تستوعب الأساتذة المسافرين لامتحانات الدكتوراه، وإذا بعربة القطار تضم على سبيل المثال ستة من أساتذة الجراحة من جامعات مختلفة، وستة من أساتذة الباطنة، وثلاثة من أساتذة النساء، وثلاثة آخرين من أساتذة جراحة العظام، وأربعة من أساتذة القلب، وأربعة من أساتذة التخدير.. وهكذا.

أما فيما يتعلق بنا فقد كان أستاذي مسؤولا لفترة طويلة لا عن امتحانات قسم القلب وحده، وإنما عن امتحانات الباطنة الخاصة بأقسامها الستة (القلب .الصدر .العصبية . النفسية .المتوطنة .الطب الطبيعي)، وأذكر أنني كنت مساعده في دورتين من دورات هذه الامتحانات، وأن عددا لا يستهان به ممن أدوا الامتحان في هاتين الدورتين قد أصبحوا لا أساتذة فحسب ، ولكن رؤساء أقسام وأعضاء في اللجان العلمية الدائمة لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين.

كان دأب أستاذي في هذه الامتحانات ، ينمُّ عن كريم أصله، ونبل طبعه، فقد كان حريصا على أن يستضيف كل الأساتذة المشاركين على أفضل طعام متاح في أفضل مطعم في الزقازيق، وكان يفعل هذا بإخلاص وحبٍّ شديدين مع كل أستاذ من هؤلاء الزملاء الذين كانوا يعتزون به، وكان كثيرون يحاولون الاعتذار بضرورة وجودهم في القاهرة مثلا في ساعة معينة، فيرد عليهم بأن الأمر لن يستغرق إلا أقل من ساعة، فقد رتب كل الأمور بحيث يبدأ الطعام بمجرد وصولهم إلى المطعم.

والحق أن هذا التصرف لم يكن هو التصرف الوحيد في إكرام هؤلاء، فقد كان أستاذي

يبذل جهدًا كبيرًا في ضيافتهم طوال وجودهم في لجان الامتحانات، وكان تعبيره المشهور: إنّه لابد من البحث عن أفضل «حاجة حلوة» وأفضل «حاجة حادقة».. وكان كلما افتتح محل جديد لمثل هذه المخبوزات حرص على أن يسأل عنه أو يجربه بنفسه كي يعرف مستواه، وكان يقول : إن المصريين يهتمون بالبدايات اهتماما يفوق اهتمامهم بالسمعة، وهكذا كنا ننتقل بين كبريات المحلات لنستغل مزاياها التي ترتبط بافتتاحها لأول مرة أو بتجديدها لنفسها بعد طول زمان: تسيباس بعد تطويره، ولابوار، ولامندين، وشانتي، وماديرا، وجروبي .. إلخ، وبالطبع فإن مثل هذه المخبوزات على الرغم من روتينيتها إلا أنها إذا كانت جيدة بعثت السعادة واللذة، وإذا كانت سيئة ؛ فإنها لا تسبب الضيق النفسي فحسب، لكنها تسبب نزلات معوية شديدة، والعادة أنه إذا لم يبذل في انتقائها اهتمام مثل اهتمام أستاذي تكون غير طازجة وغير جيدة.

وكان أستاذي ينفق على كل هذه الضيافات من جيبه الخاص، وندر أن ترك لي ولغيري الفرصة كي نقوم ببعض هذا الواجب، بل إنه لولا الحياء منا كان يبحث عن وسيلة ليكافئنا بها مكافأة مباشرة أو ليعوضنا بها تعويضا مباشرا عن استهلاك سياراتنا في استحضار الأساتذة من القاهرة أو غيرها من العواصم.

والواقع أننا لم ندرك حجم هذا الخلق في أستاذنا إلا في عهد خلفه الذي كان حريصًا على ألا يجود بمليم واحد من جيبه الخاص على أية وظيفة يتولاها، وقد كنا نقول: إنه وصل في هذا الأمر إلى حدود لم يتفوق عليه أحد فيها في التاريخ الإنساني كله.

❋❋❋

وكان أستاذي، رغم معاناته الصحية، حريصا مرة بعد أخرى على أن يرد الفضل لمن يشاركونه عناء الامتحانات في الزقازيق، وأذكر مرة كنت معه في العيادة صدفةً فإذا به يتلقى دعوة للمشاركة في امتحانات طنطا في نهاية الأسبوع، فسألني: هل أتمكن من صحبته؟

قلت: لقد ارتبطت بموعد.

قال: لا عليك.

وطلب أحد تلاميذه ممن يكبرونني وبدأه ، فقال له: يا فلان إن «السيد» نادانا ولابد أن نلبي نداءه.. والأستاذ الآخر لا يدرك معنى ما يقوله أستاذي، وأستاذي يعيد «تلحين»

المعنى بينما الأستاذ الآخر غير مدرك للمعنى من الأساس لكنه محرج وأستاذي يستلذ بحرج تلميذه إلى أن سأله: ماذا يقصد بالضبط؟

ضحك أستاذي وقال لتلميذه: ألم تشاهد حلقة الأمس من المسلسل المأخوذ عن ثلاثية نجيب محفوظ؟

قال: بلى.

قال: ألا تذكر أن الحسين نادى زوجة سي السيد فذهبت لزيارته؟

قال: أذكر.

قال: فكذلك نحن مطالبون بزيارة السيد البدوي في طنطا.

قال الأستاذ الآخر: لماذا؟

ضحك أستاذي وقال: ولماذا يذهب الناس لزيارة السيد البدوي؟ ولماذا لا نفعل مثلهم؟ ألم تشتق نفسك لزيارة السيد ونوال نفحاته؟ وظل أستاذي يكرر هذه المعاني وهو يحس بضجر تلميذه على الطرف الآخر من التليفون، فلما بلغ الضجر منتهاه قال أستاذي: حتى نمتحن طلاب الدكتوراه.

قال الأستاذ الآخر: ولِمَ لا تقول هذا سيادتكم من الصباح.

قال أستاذي: قد قلته.

فعجب الأستاذ الآخر وقال: لا أظنني سمعت شيئًا من هذا.

وابتسم أستاذي ابتسامة ذات معنى.

****

حين أصبح أستاذي عضوًا في هيئة التدريس التزم بالاشتراك في دورية علمية كانت في الوقت الذي عين فيه في الجامعة (١٩٧٢م) كافية لاطلاعه على الاتجاهات الحديثة في العلم والبحث العلمي، والطب والعلاج الطبي، والتقدم الهندسي والتكنولوجيا في مجالات الأجهزة الطبية المساعدة على التشخيص والعلاج، ولم يكن للأجهزة في ذلك الوقت دور كبير في العلاج على نحو ما أصبح لها فيما بعد.

وكان أستاذي حريصًا على الاحتفاظ بأعداد هذه المجلة الدولية في عيادته، ثم إنه وجد بعدما كثرت أعدادها وتعددت الموضوعات المهمة في هذه الأعداد أن الأولى به أن

يحتفظ بها في الدولاب الرئيسي في مكتبه في القسم، وفيما بعد فإن القسم توسع توسعات كثيرة، وأصبحت المكتبة التي في حجرة الأستاذ غير قادرة على الاحتفاظ بكثير من الأوراق الإدارية والعلمية في الوقت نفسه، ومن ثم فإن أستاذي سألني الرأي بطريقة موحية، وهكذا كلفني بأن أحصر هذه الأعداد وأسجلها في قوائم، وأن أطلب إلى العميد قبولها كهدية في مكتبة الكلية، وقد تفضل العميد فأشر على هذا الطلب بالعرض على لجنة المكتبات، وكان يرأسها رئيس قسم الأطفال في ذلك الوقت، وقد وافقت اللجنة على قبول أعداد متفرقة من مجلات متعددة كانت مكتبة أستاذي تحتويها، وقد بلغ عدد هذه الأعداد قرابة مائة وخمسين عددا، ولازلت أحتفظ في أوراقي بالقوائم التي سلمت بها هذه الأعداد المتفرقة من المجلات.

وكان لتوجه أستاذي هذا أثر القدوة في أول تلاميذه حصولا على درجة الدكتوراه، وكان ذا أخلاق جيدة، فقد ظل هو الآخر مشتركا في مجلة علمية دولية، لكن تلميذه الثاني الذي تولى رئاسة القسم من بعده مباشرة كان يرى في مثل هذا التصرف سفها لا ينبغي لماله أن يضيع فيه، ولم يكن هذا هو السفه الوحيد في نظره، وإنما كانت هناك تصرفات مفيدة وكريمة كثيرة جدًا لا ينظر إليها ذلك الرئيس إلا على أنها نوع من السفه الذي لا يليق به، وهو الذي تعود على توفير كل مليم، وعلى عدم الإنفاق مطلقاً.

ولما كان أستاذي قد حصل على درجة الدكتوراه من قصر العيني الذي حصل منه أيضا على البكالوريوس وعلى دبلومي الباطنة والقلب، فإنه كان مشتركا في مجلة قصر العيني الطبية، وقد اكتشفت بنفسي من مراجعة قوائم اشتراكات المجلة أنه كان ضمن عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة من المشتركين في هذه المجلة من خارج قصر العيني، وقد ظل أستاذي يحتفظ باشتراكه في هذه المجلة حتى عهد قريب، بينما دفعه ارتفاع تكاليف الاشتراك في المجلة الدولية (كما دفع غيره) إلى أن يتكاسل عن تجديد هذا الاشتراك.

ومن الإنصاف أن أوضح للقارئ أن قرار الأستاذ بالتوقف عن الاشتراك في المجلة جاء بعد حوار عن تكاليف الاشتراك في مجلة علمية طبية، ولتصوير الأمر بطريقة بسيطة ، فإننا إذا افترضنا أن هذا الاشتراك يكلف مائة دولار في العام (كرقم قياسي) فإن المائة دولار في عام اثنين وسبعين (حين بدأ أستاذي الاشتراك فيها) كانت تكلف أستاذ القلب المصري أربعين جنيها في المتوسط، أما اليوم فإنها تكلف نفس الشخص ستمائة جنيه

مصري، أي أن التكلفة تضاعفت ١٥ ضعفاً، فإذا افترضنا أن التكلفة العالمية (أي تكلفة الاشتراك في المجلة والبريد) تضاعفت ثلاثة أضعاف فإن التكلفة المصرية تضاعفت تسعين ضعفاً، وعلى حين كان أجر كشف المريض في ذلك الوقت المبكر خمسة جنيهات، فإنه اليوم يوازي ثلاثين جنيها في المتوسط، أي ما يعادل ستة أضعاف قيمة الكشف منذ ثلاثين عاما.

وهكذا أصبح الأستاذ مطالبا بأن يدفع ما يكلفه تسعين ضعفا من دخل تضاعف ستة أضعاف فقط!

على هذا النحو كان يدور الحوار بيني وبين أستاذي، فإذا به يستدرك ويقول: لكنك يا محمد نسيت أهم عنصر في الموضوع.

قلت: وما هو ؟

قال: معدل تدفقات المرضى على الأطباء.. ألا تذكر ما رويته لك عن الفارق بين معدلات هذه الأيام ومعدلات الأيام التي بدأت فيها العمل في عيادتي.

****

كان أستاذي محبا للبحث العلمي وقادرا عليه وراغبا فيه، لكن ظروف المؤسسة الجامعية لم تكن لتسمح له بأن ينجز فيها أكثر مما أنجز من بحوث تقليدية متعددة تدور حول ما تدور عليه بحوث الجامعة المصرية في عهدها الحالي، الذي يتميز في المقام الأول بصفة أنها جامعة الأعداد الكبيرة فحسب.

على سبيل المثال، وليس الحصر، لاحظ أستاذي في أثناء عمله في عيادته أن بعض مرضاه المصابين باضطراب في نظم القلب، ضمن أمراض أخرى، يتحسنون بدون سبب منطقي ظاهر، فلما كثّف دراسته على مرضاه وأخذ يفحص الخصائص الخاصة لكل مجموعة منهم، وجد ارتباطا بين تعاطي أحد عقاقير الملاريا وبين التحسن في اضطراب نظم القلب، وهكذا بدأ دراسته على الآثار المحتملة لهذا العقار فيما يتعلق بعلاج اضطراب نظم القلب، لكن هذه الدراسة كانت بحاجة إلى دراسات واسعة المدى وأخرى طويلة الأمد، فضلا عن معامل قياسات دقيقة ثم دراسة أخرى للآثار الجانبية المحتملة لمثل هذا العقار إذا ما استخدم كعلاج لاضطراب نظم القلب.. وكما يعرف معظم القراء فإن هذه الدراسات ينبغي أن تجري في البداية على ما يسمي «حيوانات

التجارب»، وبالطرق العلمية الدقيقة لمثل هذه الدراسات. وقد تستمر الدراسة الواحدة أكثر من عشر سنوات حتى تصل إلى نتيجة علمية ذات قيمة، ولكن النظام الجامعي المصري لا يتيح (في المتوسط) للبحث الواحد إلا عاما واحدا فقط، أو عامين على أكثر تقدير، ويطلب عددا مناسبا من البحوث للترقية الأولى إلى أستاذ مساعد، وعددا آخر للترقية الثانية إلى أستاذ.

ولأن أستاذي كان مؤمنا بالبحث العلمي ومدركا لمتاعبه وتكاليفه، فإنه كان على خلاف كثيرين من تلاميذه لا يكلف الباحثين (من طلاب الدكتوراة والماجستير) من أمرهم رهقا، فإذا وجد العدد الذي حدده المشرفون الآخرون لعينة البحث كبيرا اقترح تخفيضه، وإذا وجد القياسات أو المعاملات أو المعدلات التي ستجري كثيرة اقترح الاكتفاء ببعضها دون البعض الآخر، بل إنه كان ممن يشجعون الأخذ بالفكرة التي تجعل الجداول الكبرى الرئيسية للرسالة على هيئة ملاحق، وتكتفي في تسجيل النتائج بجداول المقارنات العمومية.

وأذكر بهذه المناسبة حوارا دار بيني وبين أستاذي حول رسالة لم تحظ بقبوله، فما كان منه إلا أن انسحب من أن يكون عضوا في لجنة مناقشتها، وقد انسحب مبكرا عند تحديد لجنة الحكم، ومال عليّ في مجلس القسم وقال: ليبوء بها غيري.

قلت: أو تظن أحدا سيبوء بها أو بصاحبها؟

قال: وما تظن؟

قلت: سيتفرق دمه بين القبائل.

قال: نعم هو ذاك، أردفت: وسيكون لك نصيب.

قال: لكنه سيكون ضئيلا.

قلت: هل تعرف أن هذا خلاف فقهي قديم.

قال: زدني.

فقصصت عليه (مع مقدمات حافلة بالادعاء) قصة الخلاف الفقهي الذي نشب في خلافة عمر بن الخطاب حول جماعة اشتركوا في قتل طفل صغير لامرأة، وكان منهم المرأة وعشيقها ومَنْ عاونوهما على هذا الإثم، وكان بعض الفقهاء من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم يرون أن النفس بالنفس، وأنه لا يجوز قتل جماعة في مقابل قتلهم فردا

واحدا، لكن عمر بن الخطاب بما جبل عليه من حاسة العدل والحق، وبما ألهمه الله اعترض على مثل هذا التفسير وقال قولته المشهورة التي لا تزال ترن في آذاننا جميعا: لو أن أهل اليمن كلهم اشتركوا في قتله لقتلتهم جميعا به.

قال أستاذي في حب بالغ: إني أحفظ مقولة عمر ومعناها ودلالتها العبقرية، لكني لم أكن أعرف القصة التي وراءها.

أردفت عائدا إلى موضوعنا الأصلي وقلت: لو أننا أخذنا بروح عمر ما وصل العلم والبحث العلمي في بلادنا إلى ما وصل إليه.

قال أستاذي: أتذكر قول عمر وهو بعيد عنا ولا تذكر قول سعد باشا وهو قريب منا؟ كان أستاذي يريد أن يلفت نظري إلى قول سعد باشا: «مافيش فايدة»، وهو ما تروي بعض الروايات أنه قال يوم حضرته الوفاة فأدرك أنه مقبل على نهايته وقال هذه المقولة لزوجته صفية زغلول، لكن المتشائمين انسحبوا بالقول على مجمل الحياة السياسية في مصر.

قلت: يا سيدي لو كان الأمر أمر قرب وبعد، فالأولى بنا أن نتذكر قول مَنْ مات بعد سعد زغلول بخمس سنوات وشهرين.

قال: ومَنْ هو؟

قلت: أمير الشعراء.

قال: وماذا قال؟

قلت: قال: سلموا لي على محمد (وكان يقصد الموسيقار الأستاذ محمد عبد الوهاب) الذي تبناه وصنع منه ما صنع.

وكان أستاذي يعرف هذه القصة بالطبع وهو المعجب المتيم بكل من عبدالوهاب وشوقي!! فلما انتهيت قال: مادام الأمر أمر قرب وبعد فإني أدلك على قول لمَنْ هو أحدث من هؤلاء جميعا.

قلت: ومَنْ القائل؟ قال: ليس يهمك أن تعرف مَنْ القائل لأنه فولكلور.

قلت: وما القول إذاً؟

قال: أو لم تدركه؟ ألم تسمعهم يقولون: سلم لي على المترو!!

قلت: إن هذا القول قديم من قبل أن يعرف الفلكلور أن هناك مترو.

قال: فليكن، فلن يبلغ القول أبلغ من هذا في الدلالة على العبث!!

وأردف أستاذي مباشرة يسألني: هل كان صديقك توفيق الحكيم يدرك أن هذا السلام على المترو هو المعادل الموضوعي لمسرح العبث؟

وكان أستاذي إذا جاء ذكر توفيق الحكيم لا يتحدث عنه إلا بهذه الصفة، فقد كان في تحليله لأحاديثي المطولة قد استنتج أني متيم بالحكيم إلى أبعد حد، وهو المعنى الذي لا يتحدث عنه العلماء من أمثال أستاذي إلا بأنه «الصداقة».

قلت: أو تستخدم حضرتكم مصطلحات من قبيل المعادل الموضوعي؟

ضحك أستاذي وقال: لا تظنني أستاذك بعيدا تماما عن الأدب، إنما هو يتواضع في حضرتك فحسب.

ألجمتني الإجابة فاعتذرت فقال: لا يهمني أن تعتذر، ولكني أحب أن أعرف هل كان الحكيم يؤمن بمثل هذا؟

قلت: أظنه كان كذلك.

قال: وما دليلك؟

قلت: يا طالع الشجرة؟

قال: أويكفي هذا دليلا؟

قلت: بلي.

قال: فلم؟

قلت: لأنه يدل على اتجاه كبير، ومادام المرء قد فضل الاتجاه الكبير فإنه يعرف طريقه.

قال: وإن لم يفعل؟

قلت: فإنه يكون باحثا عن طريق بعينه، أما الاتجاه أو الطريق الكبير فإنه بكبره دال على نفسه.

قال: أتظن الحكيم فعل هذا في مسرح العبث الذي تظاهر بالانضمام إلى ركابه؟

قلت: نعم.

قال: كنت أنا الآخر أظنه كذلك قبل أن ألقاك.

قلت: أتأذن لي في سؤال خبيث؟

قال: افعل! لكن لا تتهم نفسك مقدما.

قلت: أشكرك شكرين، لكني أحدس أنك كتبت أدبا في وقت من الأوقات.

قال: ما دليلك؟

قلت: لا يسأل عن التقنيات الأدبية بمثل هذا التعمق إلا مَنْ مرّ بالتجربة.

قال: هو ذاك.

قلت: هل لي أن أسألك أن تطلعني على بعض ما أنجزت؟

قال: بل الأولى أن أقص لك طرفة.

قلت: ألها هذه القيمة؟

قال: وأكثر.

قلت: فإني مشوق، فقص عليّ أنه كانت له محاولات شعرية فجاء لفظ «الرفيق» فيها عرضًا على هيئة منادي فتحمس لها زملاؤه اليساريون تحمسا فاق الوصف بسبب كلمة واحدة.

وسرعان ما أردف أستاذي فقال: ومن يومها عرفت المعاني الحقيقية للانتماء والنقد المذهبي.

قلت: لكن يبدو أن الأمر في إبداعك يفوق هذا.

قال: دعك من هذا جميعه، فإني قد حاولت مرة أخرى فلم أفلح.. وحاولت ثالثة فوجدت أني أكون كاذبا لو قلت: فلم أيأس.

******

## الفصل السابع عشر
## توثيق المفارقة

كان أستاذي قادرًا على استكشاف عناصر التاريخ في كثير من الوقائع التي تمر بنا، سواء أكان هذا العنصر نمطًا أم حدثًا أم مفارقة، وإني أذكر له كثيرًا من المواقف الجميلة في هذا الصدد.

حدثته ذات مرة أني رويت له أني أرسلت مائة خطاب إلى الجامعات الأمريكية من أجل اختيار جامعة أو مركز أستمتع فيه بمنحة السلام التي حصلت عليها؟ كتبت العناوين على الكمبيوتر وقصصتها ولصقتها على الأظرف، وحدث أن اللصق الذي كان على أحد هذه الأظرف كان ضعيفا أو مؤقتا فوصل الخطاب إلى أمريكا بدون عنوان للمرسل إليه.

قال: وكيف عرفت القصة؟

قلت: أعادوه إليّ!!

قال: هذا طبيعي، فاسمك مكتوب على ظهره كمرسل.

قلت: الحق أنه لم يكن مكتوبا على الظرف، وإنما كان مكتوبا في الرسالة الداخلية المطبقة فوق بعضها، لكنهم بوسائل القراءة الذكية قرؤوا الاسم والعنوان وكتبوه على المظروف وأعادوا إليّ الظرف في القاهرة!!

عند هذا الحد شرع أستاذي يحدثني عما شهده من عظمة البريد المصري فيما قبل الثورة حين كان الخطاب يصل في نفس اليوم في بعض المناطق إلى المناطق الأخرى، وفي اليوم التالي على أقصى تقدير ثم أخذ يعدد بعض شكاواه من البريد في هذه الأيام وهو يستطرد ويقول: إنه على كل حال أحسن حالا مما كان قد وصل إليه من انهيار في الستينيات والسبعينيات.

قلت لأستاذي: هل لك في شيء من الأنباء الباعثة على الأمل والطموح؟

قال: أخشى أن يكون الطموح زائدًا فأصاب بالإحباط.

قلت: لك أن تحكم بعدما تسمع.

قال: هات ما عندك.

قلت: لقد ظللت مشدوهًا إلى ما أسمعه عن صورة البريد المصري فيما قبل الثورة حتى قرأت عن البريد الإنجليزي في تلك الفترة فزالت دهشتي.

قال أستاذي: وماذا يتوقع أن يزيل دهشتك؟

قلت: هو ما أدهشني؟

قال: وما أدهشك؟

قلت: كان موزع البريد في لندن يمر على الموقع الواحد ست مرات في اليوم في ساعات محددة ومعروفة.

قال أستاذي وقد تهلل وجهه: ست مرات في كل يوم.

قلت: نعم.

قال: ومعنى هذا أنني من الممكن في اليوم نفسه أن أصل في مراسلاتي معك إلى قرار يقتضي أخذًا وردًا وأخذًا وردًا وأخذًا ورداً؟

قلت: نعم.

قال: إذًا فالاندهاش الذي تتحدث عنه لا يفي للاعتراف بهذه العظمة.

قلت: ومع هذا كله فإن التقدم لم يقف عند حدود البريد، وإنما تسارع إلى البرق، والتلكس، والفاكس، والبريد الإلكتروني.

قال أستاذي: الملاحظ يا محمد أن لكل وسيلة من هذه الوسائل ميدانها الذي لا تزاحمها فيه الوسائل الأخرى (وقال الكلمة بالإنجليزية Domaine)، لكن العجيب أن بعضها قد بقي على الرغم من صعوباته التكنولوجية.

قلت: لعلك تقصد التلكس؟

قال: بل التلغراف أيضاً.

قلت: مبلغ علمي أن التلغراف يملي الآن بالتليفون، وربما يرسل بالفاكس أيضاً.

قال: هل تذكرني إذًا بتكنولوجيا التلكس وكيف يعمل؟

قلت: بطريقتي.

قال: قل.. وأنا أسمع... وأمري إلى الله.

قلت: الفاكس تليفون وماكينة تصوير معاً.

قال: هذه أفهمها.

قلت: والتلكس تليفون وماكينة كاتبة معاً.

قال: الآن تذكرتك وأنت تشرح هذا الشرح منذ سنوات حين بدأ الناس يستخدمون الفاكس. لقد كان هذا قريبًا جدًا أليس كذلك؟!

قلت: هي رفاهية لم نعرفها إلا بعد معاناة طويلة.

قال: وهل نستحقها؟

قلت: لا أدري.

قال: أخشى ما أخشاه أن نعبث بهذه الوسائل فنحيلها عذابًا لأنفسنا وللأمن كما هو الحال في كل تقدم ندخل إليه.

قلت: وأنت الذي تقول هذا.

قال: أنا الذي أقول هذا.. هل تعتقد أنني راض عما تفعله التنظيمات السياسية السرية؟

قلت: لا.. ولكن التصريح بمثل هذا الذي قلته يجلب المتاعب.

قال: هي مجلوبة مجلوبة.. من هؤلاء وهؤلاء.

ثم أردف قائلاً: هل نعود إلى البريد؟

قلت: وهل تأذن لي في رواية طرفة جديدة؟

قال: تفضل.

قلت: تأتيني بصفة أسبوعية رسائل من إدارة للبيئة في منظمة دولية تابعة للأمم المتحدة والعنوان مكتوب بالإنجليزية، وفي كل مرة تتم ترجمة العنوان بنفس الخط اليدوي ويأتيني الظرف.

قال: وماذا بعد.

قلت: طلبت هذه الهيئة مني أن أرشح لها بعض مَنْ ترسل لهم هذه المطبوعات بصفة دورية فرشحت عميد كلية الإعلام بجامعة القاهرة، وعميد معهد الدراسات البيئية بجامعة عين شمس وآخرين.

قال: وماذا حدث؟

قلت: أتت الخطابات في نفس الأظرف التي تعود الموظف القائم بمهمة فرز البريد المركزي في القاهرة على أنها مرسلة إليّ فإذا به يترجم كل هذه الأسماء والعناوين الجديدة إلى اسمي وعنواني وتكون الكتابة بالإنجليزي: الأستاذ الدكتور عميد كلية الإعلام جامعة القاهرة الأورمان .جيزة، بينما الترجمة بالعربي د. محمد الجوادي ص .ب ١٧٨ الزقازيق، ويأتيني الظرف كل أسبوع مع ظرفي. كما تكون الكتابة بالإنجليزي: الأستاذ الدكتور عميد معهد الدراسات والبحوث البيئية .العباسية .عين شمس، وتكون الترجمة العربية لهذا العنوان: د. محمد الجوادي ص.ب ١٧٨ .الزقازيق، ويأتيني الظرف.. هكذا... وهكذا تتعدد الأظرف القادمة لي كل أسبوع.

قال: ماذا تفعل في هذا البريد؟

قلت: من آن لآخر أجمع هذه الأظرف وأرسلها لأصحابها.

قال: ألم تحتفظ ببعضها على سبيل الذكرى؟

قلت: أية ذكرى.

قال: اسمع كلامي واحتفظ بنموذج من هذه الخطابات، وبعد سنوات ستقدر قيمة نصيحتي.

قلت (وكنت لا أزال قليل التجربة): مع أني لا أظن فائدة لهذا فإني بما جبلت عليه من طاعة سأنفذ نصيحتك.

قال: وأنا أرجو مرة ثانية أن تسمعه، بمعني التنفيذ لا بالمعنى الفسيولوجي للسماع.

قلت: أفعل إن شاء الله.

وقد فعلت.

ومن حسن حظي أني لازلت أحتفظ ببعض الأظرف التي لها قصص من قبيل هذه القصة الطريفة!! ولست أبالغ إذا قلت : إن هذه القصة تكررت فيها بعد أكثر من عشر مرات في رسائل وبرقيات.

****

لم تمر شهور إلا وحدث ما هو أكثر طرافة، وكان أستاذي أكثر سعادة وهو يكرر رواية هذه القصة لأصدقائه، واحدًا بعد الآخر، مردفًا بالقول إني أستحي من روايتها مع أني

صاحب الحق في روايتها، والقصة أن الهيئة المسؤولة عن منتدي «سالزبورج» الذي كنت قد حضرته في العام السابق على ذلك العام أرسلت لي، كعادتها، استمارات ترشيح لمن أرى أنهم قد يفيدون في حضور برامج المنتدي للعام الجديد، ورشحت ضمن مَنْ رشحت أحد الأساتذة في كلية من كليات جامعتنا وكان يشغل منصب العمادة، وكان مدير مكتبه يفتح الخطابات الواردة ويلخص ما فيها ويعرضها بالتلخيص، فإذا ما أراد الأستاذ الاطلاع على تفاصيل وجد الملف مرفقا بالتلخيص، كان الورق على عادة ملفات منتدى سالزبورج وعلى عادة مراسلات الأجانب كثيرا، وبه استمارات وتفصيلات... إلخ، وقد فهم مدير المكتب، وكان رجلا له حظ من النباهة، الموضوع على أنني مرشح بفتح الشين ولست مرشحا بكسر الشين، وأعد مذكرة بأن الأستاذ العميد يرشحني لحضور هذه الندوة، وضمّن هذه المذكرة تزكية كاملة لي عبر فيها عن شعور العميد تجاهي وكان ذلك العميد يحبني بالفعل، كما كنت أحبه، ونظرا لأن مثل هذه المشاركات لابد أن تمر بالجامعة لصدور القرار الخاص بها، فقد أعد المذكرة وعنونها بأنها للعرض على الأستاذ الدكتور رئيس الجامعة، لكن العميد بثاقب نظره رأي الأمر محتاجًا إلى دراسة، ولأنه يثق بي ولأنه كان مشغولا جدا عن أن يقرأ الورق المرفق فقد أشر في ورقة خارجية بأن أقرأ المذكرة والورق وأعدل ما أشاء مع استعداده التام لكل تزكية مطلوبة منه.. وهكذا اتصل بي مكتب العميد لأطلع على المذكرة وأراجعها!

بعد الظهر كنت في العيادة مع أستاذي، وأتيح لنا وقت قصصت فيه القصة عليه وقلت له: إني في موقف صعب جدًا مع الطرفين، حياء من هؤلاء الذين زكوني بينما أنا الذي زكيتهم.. ولا أدري ماذا أفعل، هل أعتذر عن هذا الترشيح وأبين الحقيقة للعميد؟ هل أترك الأمور تمضي في طريقها ثم أوقف إرسال الخطاب؟ هل أبدأ قصة جديدة من الحديث عن القصة كما هي لا كما سارت عليه؟

قال أستاذي وهو يبتسم: احرص على ألا تكرر تجربتي مع ال «برت»... ولا تجربة رسائل الأمم المتحدة.

قلت: وماذا أفعل؟

قال: ليس هناك غير حل واحد: احك القصة كلها لصديقك العميد.

قلت: ولكنني لن أفعل.

قال: ولم؟

قلت: لأنك علمتني الحياء.

قال: لن تخسر شيئا.. والحياء خير كله

..............................................................

ولم أكن قد حكيت هذه القصة حتى يومنا .

*****

## الفصل الثامن عشر
## مهارة التمويه

عنّ لي في إحدى المناسبات أن أسأل أستاذي عن جدوى الغموض في التصرفات السياسية والإدارية، وقد توسلت إلى هذا السؤال بحيلة طريفة وسهلة فقد شخصت السبب في فشل أحد السياسيين البارزين، وأرجعته إلى الوضوح الزائد، وأردفت ذلك بسؤال أستاذي: هل تعتقد أنني على صواب؟

قال: بل الصواب ما قلت، ولقد كان في حاجة إلى درجات كثيرة من الغموض.

قلت: لكن السياسة تتطلب قدرًا كبيرًا من وضوح الرؤية.

قال: هذا في حالة الزعامة، أما في الحالات التي نراها الآن والتي لا تصل السياسة فيها إلى أكثر من مجرد تسيير الأمور، فالغموض مطلوب.

قلت: لكن الوضوح الزائد يجلب مشاركات شعبية إيجابية لا غنى للسياسي عن فائدتها.

قال: لكن هذا المكسب الذي تتحدث عنه لا يساوي شيئا الآن، إذا ما قورن بالقدرة على الاستمرار في الموقع ذاته.

قلت: وهل هذه قيمة في حد ذاتها؟

قال: نعم.. حين ينخفض مستوى وجوه السياسة من زعماء إلى مسيرين للأمور فحسب، تصبح القدرة على تسيير الأمور لزمن أطول أفضل المعايير المتاحة لتقييم كفاءة السياسيين.

قلت: لكن هذا لا يقود إلى التقدم.

قال: لم يعد التقدم مطلوبا، ولم يعد إيقاف التخلف مطلوبا، وإنما أصبح المطلوب هو الاستمرار والاستقرار.

باغت أستاذي وسألته: أيمكن أن يكون هذا مثلا مذهب جماعة راديكالية بطبعها .

قال: أنا لا أتحدث عن جماعة راديكالية أو معتدلة ، لكن إذا أردت مني الدفاع عن مشروع هذه التهمة التي وجهتها لتوك فإن بوسعي أن أقول لك : إنهم جزء من المجتمع

ولن يضمنوا النجاح في سياساتهم إذا لم يراعوا إستراتيجيات المنافسين والمحاربين لهم.

قلت: لكن هذا يجعلهم جزءا من النسيج الذي هو بحاجة إلى تغيير.

قال: سواء جعلتهم جزءا من النسيج أم من الصياغة فليس أمامهم من سبيل غير هذا التكيف.

قلت: وهل الغموض جزء من التكيف؟

قال: هو أهم الأجزاء.

قلت: وماذا يحدث لو أنهم أعلنوا بيانهم السياسي صريحا؟

قال: سيكون هذا البيان هو نسيج مواد الاتهام التي توجه إليهم؟

قلت: كيف يمكن لبيان سياسي أن يكون دليلا على اتهام؟

قال: أراهنك أنك لو أتيتني بأي سطر من أي برنامج سياسي لأي حزب في العالم (بما في ذلك الحزب الجمهوري الأمريكي والحزب الديمقراطي الأمريكي) وأعطيته لمعاوني أجهزة الأمن المصرية لنجحوا في تحويله إلى دليل اتهام قاس يقدم صاحبه إلى محكمة أمن الدولة العليا.

قلت: أفهم من هذا أن هذه الأجهزة تغلبت على ثقة الجماعات الراديكالية في نفسها؟

قال: إذا كنت تريد إثبات ذلك فلا مانع عندي.

قلت: لكننا بهذا نظلم الفكرة الراديكالية.

قال: هذا هو الواقع.

قلت: ومع هذا فإن الإخوان لا يكفون عن كسب أرض هنا وهناك.

قال: يكسبون بالغموض، وتضيع منهم الأراضي الأخرى إذا ما اتبعوا السياسات التي تصفها أنت بالوضوح.

قلت: أيدركون هذا؟

قال: كما يدركون الشمس والقمر.

قلت: ما بال هؤلاء الإصلاحيين من زملائنا الأطباء الذين وصلوا إلى مواقع متقدمة في الإخوان والذين لا يكفون عن مخاطبة العلمانيين بما يرضيهم، بل مخاطبة اللادينيين بما يطمئنهم.

قال: لهم أجر ومثوبة.

قلت: ربما يصلون إلى مقاعد القيادة في الجماعة.

قال: ربما.

قلت: وساعتها؟

قال: دع ساعتها لساعتها، فلكل حال حالة، ولكل مقام مقال.

قلت: هذه هي أكثر المقولات التي تحظى بهجوم أعداء الإخوان.

قال: أعرف ذلك، وأعرف أن أصحابها معذورون لكنهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً، ولو صدرت إليهم الأوامر بمديح الإخوان لمدحوهم.

قلت: أهذا ممكن؟

قال: ربما.

قلت: فهل من أسباب أو حيثيات؟

قال: كأنك تريد مني التخلي عن الغموض.. وتريد منهم التخلي عن الغموض.

قلت: وماذا في هذا؟

قال: دعني أسألك سؤالًا مباشراً: هل يمكنك التخلي عن حب الاستطلاع؟

قلت: لا.

قال: وهم كذلك لا يمكنهم التخلي عن حب الغموض.

قلت: لكن حب الاستطلاع هو أساس المعرفة.

قال: ويبدو أنك لم تفهم بعد أن حب الغموض هو أساس السلطة.

***

كان أستاذي معروفا بيننا بالقدرة على التمويه الذكي أو المحترف أو ذي المهارة العليا، وكان يتمتع بقدرات تكتيكية عالية، وكان يستغل هذه القدرة في إدارة معاركه الانتخابية والسياسية أيضا، كما كان يوظفها في كثير من المواقف الشخصية والعائلية، وعلى سبيل المثال فإنه كان يتمتع بقدرة فائقة على تغليف رأيه وهدفه، أو فلنقل إبداء رأيه وإخفاء هدفه، أو فلنكن أكثر دقة ونقول: بث رأيه وهدفه مغلفًا بأكثر من ثلاث طبقات من الأغلفة الواقية، فهذا غلاف واقٍ من شبهة الحرارة، أو دفء المشاعر المحبة أو الكارهة،

وهذا غلاف واقٍ من شبهة الحزبية الصارمة التي تصل في بعض الأحيان إلى العنصرية القاتلة، وهذا غلاف واقٍ من الندية أو التنافسية مع اتساع نطاق هذه الندية أو التنافسية.. وهكذا.

وربما تبدو المسألة صعبة على الفهم، ولكني سأحاول تبسيطها للقارئ العادي من أمثالي وأنا أعترف أني أنا نفسي لم أكن أفهم المسألة على هذا النحو، ولم يتح لي أن أفهمها إلا بعد سنوات من عشرتي لأستاذي.

ولنأخذ على سبيل المثال موقفًا أثر فيَّ وفي نفسيتي تأثيرا قاسيًا على الرغم من أني لم أكن طرفًا مباشرًا فيه، فلربما يكون هذا الموقف أكثر تعبيرا عما أريد أن أعبر عنه.

كان ذلك الموقف قد اتخذه أستاذي حين أشار بعدم ملاءمة زواج أحد زملائنا الأفاضل المثاليين من ابنة صديق له.

كان أستاذي يحب زميلنا هذا ما في ذلك شك، وكان يشاركنا الرأي في أنه بلغ درجات عليا من الكمال الروحي والخلقي والنفسي، وعلى أنه النموذج الأمثل للطبيب الملتزم، والمهني الجيد، ولم يكن أستاذنا يلقى بالا كبيرا لتحفظ بعض زملائنا الكبار على هذا الزميل بأنه ليس له حضور قوي، أو بالمعني الشائع كارزما.

مع هذا الإيمان الشديد من أستاذنا بزميلنا فإنه في لحظة واحدة أفصح عن رأي قاس، وهو أنه لم يكن يرى أن صديقنا هذا بكل مزاياه هذه يصلح للزواج من ابنة صديقه.. وهكذا وقف ضد مشروع هذا الزواج لسبب لا ندريه، ولم يكن أستاذي في الوقت نفسه قادرًا على أن يصرح لنا بهذا السبب، ولا أظنه كان قادرًا على أن يصرح به لصديقه وهو الذي رشح هذا الزميل كي يساعد ابنة صديقه في الدراسة على هيئة درس خصوصي من الطبقة الثالثة، أي خصوصي خصوصي خصوصي، ولا يعجبن القارئ من هذا الوصف المتكرر بكلمة خصوصي ثلاث مرات، فالأولى هي جزء من المصطلح، والثانية تعني أن الدرس يكون خاصا بها وحدها، والثالثة تعني أن هذا الدرس فيما تحتاجه هي وليس في كل المقرر، أي أنها تحصر النقاط التي تحتاج إلى فهمها ويتولى زميلنا توضيحها بما فيه الكفاية.

ونعود إلى ما فعله أستاذنا حين سئل عن زميلنا كخطيب متقدم لابنة صديقه، وقد سأله صديقه بالطبع أو فلنقل إنه أنهى إليه أن علاقة ما نشأت بين المدرس الشاب وابنته

وأن العلاقة وصلت إلى قرب نهايتها الطبيعية، وكان الرجل الصديق سعيدًا بهذا، وكان يود أن يشرك أستاذنا في السعادة، لكن أستاذنا لأسباب لا نعلمها جيدًا لم يكن يحبذ أن يمضي هذا الموضوع إلى نهايته الطبيعية، وهنا أدركت أنا والمقربون ما اشتملت عليه طريقة أستاذنا من تقديم رأيه على هيئة جرعة واحدة فعالة جدًا فإنه غلف الرأي للمرة الأولى بأن لجأ إلى العزف على فكرة أن زميلنا متفوق زيادة عن اللزوم، وأنه يتمتع بخلق عظيم، وأنه لا يدري لماذا لا يقدره الناس رغم كل هذا التفوق والخلق والأصل الطيب، إلا إذا كان ذلك راجعًا إلى أن هذا الزمن ليس زمن الناس الطيبين، هذا هو الغلاف الأول.

لكن أستاذي لم يكتف بأن يقدم هذا الرأي هكذا، على الرغم من أنه يكفل توصيل الرسالة الكفيلة بنسف المشروع، وإنما غلف أستاذنا هذا الرأي في غلاف ثان فقال: إنه حدث منذ عام أن سأله أحد أصدقائه عن هذا الشخص زوجا لابنته فأجابه بهذه الإجابة لكن السائل ذا الحظ العاثر أو الذي هو والد فتاة ليس لها في الطيب نصيب، فضل لابنته زميلًا آخر، لأنه كان يتمتع بالقدرة على الحضور رغم أنه يقل في تفوقه وتدينه عن الأول محل السؤال.

ولم يكتف أستاذنا بهذه الصياغة المعقدة التي تكفل تقديم الرأي ذي الغلافين هكذا لصديقه، وإنما أضاف أستاذنا غلافا ثالثا في صورة ذكية، وهي البدء بإظهار تمنع عفيف عن الإجابة المباشرة والفورية قال فيه : إنه يرجو أن يعفى من السؤال... لماذا؟ فلا يجيب ، ولكنه بعد تمنع يقول: لأنه حدث أن سئل منذ عام وأجاب لكن طرفا آخر أقنع السائل القديم بأن أستاذي يتحيز لتلميذه الذي يفتقد الحضور رغم تفوقه وتدينه، وهكذا فإن السائل صرف النظر عن زميلنا الأكثر تفوقا وتدينا وفضل عليه الأقل تفوقا وتدينا، ولكن زميلنا لا يعرف الحقيقة فيما مضى على هذا النحو، ويظن أن أستاذي هو الذي عوّق زواجه، ولهذا فإن أستاذي لا يريد أن تتكرر التجربة مع الشخص نفسه لمرة ثانية وهو لا يتحمل جرحا ثانيا.. وأولاد الحلال كثيرون!!.

وهكذا فإنه بعد هذا الغلاف الثالث تصبح الجرعة فعالة وتصبح المسألة محسومة، فقد أبدى الأستاذ رأيه ولم ينسبه إلى نفسه، بل نسبه إلى الآخرين، واحتاط حتى لا ينقل الرأي على أنه رأيه ولا على أنه هو الذي رواه، لأنه لا يريد أن يجرح تلميذه، ولا يريد أن يبدي رأيه.. وفي الوقت نفسه فإن أستاذي أكد بكل ما أمكنه ما لا يهم والد العروس سماعه،

ولا التأكد منه ولا من حجمه من حبه لزميلنا وتقديره لحظه العاثر!!.

هذا هو أبسط مثل لما كان أستاذي يفعله حين يريد أن يبدي رأيًا من آرائه الكثيرة، ولن أطيل على القارئ بذكر أمثلة معقدة من آراء أستاذي، ولكنني أكتفي في هذا المقام بذكر مثلين على قدرته على «توصيل الرسالة الإعلامية» كما نقول في علوم الإعلام والميديا الحديثة.

المثل الأول: حدث أن دار حوار عابر بيني وبين مجموعة من أساتذتي كانوا بمثابة زملاء ورؤساء لأستاذي، وقد دار هذا الحوار على مائدة غداء، وكانت الآراء التي يرددونها (لمجرد تضييع الوقت ) تقترب من الزندقة ولا نقول من الكفر، وقد انفردت بمواجهة هؤلاء جميعًا بما أعتقد أنه الصواب، وكان انفرادي بمواجهتهم يمثل نموذجًا للشجاعة الأدبية والفكرية، ووصلت القصة إلى أستاذي، وأراد أستاذي أن يعبر عن تقديره للرأي الآخر، الذي كنت حامل لوائه دون أن يقدرني بما أستحق، نظرا لشجاعتي وقوتي ونجاحي في المحاولة في النهاية، وإذا بأستاذي يسألني في دهشة: كيف أقول كذا وكذا؟ وأخذ ينسب إليّ أقوالهم القريبة من الزندقة، ثم يردف بأن يقول: إن الصواب كذا وكذا.. وينسب الصواب إلى نفسه، كل هذا في مونولوج طويل وأنا فاغر فمي للدهشة من جزئيتين، الأولى: أن الحوار قد نقل بحذافيره في نفس اليوم مع أن الحاضرين كانوا ثلة، والجزئية الثانية: أن الأبطال قد تغيرت مواقعهم، حتى إن أحدهم. وهو أنا. قد وضع في الموقف المسرحي المضاد على طول الخط لما كان عليه موقفه في الحوار الذي حدث.

وأستاذي يروي الحوار ثم يزيد عليه أن يدعو لعباد الله الصالحين الذين ملؤوا كتب التراث ردًا على هؤلاء الزنادقة ويبدي إعجابه بعلم الذين حفظوا هذه الردود للأجيال.. وأنا لا أزال فاغرًا فمي من الدهشة، وبعد ساعتين كاملتين بلا جدال تعطف أستاذي عليّ بقوله: كنت أتوقع منك أن ترد بمثل هذا الرد، وعندما أجبته بأني فعلت هذا بالتمام والكمال قال ضاحكا: ولكن الذي بلغني عكس هذا... وتجهم، وتركني وانصرف إلى حجرته المجاورة في عيادته، وقد صعد الدم في رأسي حتى أوشك مخي أن ينفجر، وهو لا يفعل شيئا غير التجاهل.. ولم يعد في وسعي أن أقول شيئا، وهو لا يتدارك الأمر وإنما يناقشني في ضغط هذا المريض، وفي نبض الآخر، وفي حاجة الثالث إلى تحليلات، وحاجة الرابع إلى قثطرة، وعدم حاجة الخامس إلى دخول الرعاية المركزة، بينما أنا الذي أصبحت في حاجة ملحة إلى دخول هذه الرعاية!!.

وحتى وقت كتابة هذا الحوار لم يتكرم عليّ أستاذي صراحة بذكر أنه كان يعرف

الحقيقة، وأنه يعرف أنني أنا الذي كنت أقول الصواب.. ولكنني كنت أميل إلى التأكد أنه يريد أن يقول ذلك.

وليس عندي حتى الآن ما يؤكد معرفته للحقيقة إلا جزئية واحدة هي أن القصة كانت تتعلق بحوار بين طرفين ولم يكن أفراد الطرف الثاني في رأي أستاذي ومعرفته أكثر مني تدينا أو تمسكا بالدين والتراث أو فهما لحقائق الفلسفة والتاريخ.

****

المثل الثاني: للتغليف المزدوج أو الثلاثي الذي كان أستاذي يؤديه بمهارة وتلقائية، كان يتعلق برأيه في قيادة جامعية كان على خلاف معها بحكم انتمائه السياسي والأيديولوجي، وبحكم عضويته في مجلس إدارة نادي هيئة التدريس، لكن هذه الشخصية مدت له يدها بعد أن تمكنت من كل ما كانت تريد تحقيقه، ولم يكن أستاذي ولا الجماعة التي ينتمي إليها سعداء بحالة الجفاف والمحاصرة التي نجحت هذه القيادة الجامعية في فرضها عليهم.

وهكذا فإنه مع أول ضوء أخضر أبدى أستاذي قبولًا وسعادة وارتياحًا وكنت قد اصطحبته إلى هذا اللقاء، وحرصت على أن تكون مهمتي منحصرة في دور أقرب إلى دور قائد السيارة فقط دون أن أحضر اللقاء، رغم أني كنت أنا الذي توليت ترتيب اللقاء بحكم ما عُرف عني وما أحبه من ميل للتوفيق، ومن علاقة جيدة بالطرفين كليهما، لكني وجدت أن من الأفضل أن أبقى في سيارتي دون أن أحضر اللقاء، لكن أستاذي أبي عليّ البقاء في السيارة فوصلنا إلى حل وسط أن أبقي في مكتب من مكاتب إدارة الجامعة بعيدا عن السيارة وعن المكتب الذي من المفترض أن يتم فيه اللقاء... وقد كان.

وبعد اللقاء وجدت أستاذي مستبشرًا بما توصل إليه، أردفت بالسؤال عن رأيه في هذه القيادة الجامعية فإذا به يجيبني من فوره بأنه «فلاح زى حالاتنا»، وعبثا حاولت أن أستخرج منه أية كلمة تنم عن تقدير أو عن نقد، فقد اكتفي بهذا الوصف الذي كان يعتقد أنه الوصف الجامع المانع الشامل الكامل الكفيل بأن يغطي كل الانتقادات وكل الثناءات في الوقت نفسه. على أني كنت لا أزال في حاجة إلى أن أرى رأيه في عدوه وقد تغير بعض الشيء، وكان أستاذي في كل محاوراتي التالية يلجأ إلى أن يقول: ألم أقل لك إنه فلاح زى حالاتنا.. وكان هذا رده إذا ذكرت ميزة وقلت: أليس كذلك، وكان هذا رده أيضا إذا ذكرت عيبا وقلت: أليس كذلك، وهكذا كان أستاذي في حالة حرص على إمساك العصا من الوسط!!.

## الفصل التاسع عشر
## حوارات الامتحانات

كان أدائي لامتحان الدكتوراه نوعًا من أنواع الحوار المتقدم بيني وبين أستاذي، كانت في هذا الحوار درجة كبيرة من درجات التحدي المحسوب من الطرفين، كان الحوار بين طبعين مختلفين، وأداءين متعارضين، وربما يحتاج الأمر إلى ضوء سريع يكفل فهم طبيعة هذا التناقض، وها الحوار من بعده.

كان التفوق المبكر ولا يزال بمثابة مشكلة حقيقية، في مصر، لي ولغيري من الذين تمتعوا به، فالأنظار متجهة دومًا إلى تحقيق أي فرصة لآخر ليحل محل المتفوق المبكر، والأنظار متجهة دومًا إلى البحث عن الفرصة المواتية للشماتة فيه، هذا فضلًا عن الحديث المتكرر عن العيوب البارزة في شخصية كل متفوق مبكر، مع أن هذه العيوب قد تمثل مزايًا في حد ذاتها، ومع أنها تسهم في صناعة هذا التفوق، ولست أنكر أن مجتمعنا المصري لم ينم بعد القدرة على الإفادة من المتفوقين، ولا الحفاظ عليهم، ولا استثماراتهم.

وأعترف أنني عانيت في هذا السبيل بأكثر مما عانى غيري، لكنني أعترف أيضا أن معاناتي هذه قد زودتني بمناعة رهيبة ومبكرة بحيث أصبحت في كثير من المواقف لا أتوقع إلا الغيرة، أو الحقد، أو الحرص على التقليل من قيمة الفوز، أو محاولة إلقاء الضوء على التالين خصما من رصيدي.

لكني أعترف أيضا، وهذا هو الأهم أنني لقيت أضعاف هذه الآثار السلبية من آثار إيجابية مشجعة تمثلت في التشجيع، والتقدير، والاعتراف، والتتويج، والتكريم، وحسن السيرة، وعطر السمعة، والثناء الجميل، والامتنان العميق، والدعاء الصادق، والاحتضان الدافئ، وقد تفاعلت كل هذه الإيجابيات مع كل السلبيات الأخرى، وكانت النتيجة بفضل الله في مصلحتي، وفي مصلحة صعودي واستمراري.

ولست أنكر أن الذين يعرفون بالتفوق المبكر كثيرًا ما يستعدون الآخرين عليهم بمواقف كفيلة بأن يكون هذا الاستعداء قاسيا، وربما أقفز مباشرة إلى مثل شائع في ممارساتنا للامتحانات أو التشخيص في حالات المؤتمر أو الكونسلتو، فقد تعلمنا جميعا ولازلنا نعلم ألا نقفز إلى تشخيص محدد تماماً، وإنما ينبغي علينا في مثل هذه الحالات أن

نشير إلى التشخيص «العريض» الذي يشمل تشخصينا وتشخيص الحالات القريبة الشبه به، وذلك للإيحاء بخلق العلماء الذين لا يتسرعون، وإنما يتثبتون وهو خلق مطلوب بلا شك، والإيحاء أيضا بخلق الأطباء الذين لا يندفعون، وإنما يتمهلون، وهو خلق مطلوب بلا شك، وللإيحاء ثالثا بخلق الأساتذة الذين لا يحصرون أنفسهم في نطاق ضيق بينما القماشة العريضة كفيلة لهم بإبراز قدراتهم على المقارنة، والاستنتاج، والمناقشة، والوصول إلى الحقيقة.

مع كل التقدير لهذا الفهم المتمكن مني ومن غيري من المجتهدين المجدين الذين وصلوا إلى مرحلة الدكتوراه ثم إلى الأستاذية، فقد كان هناك عرق نابض لا يكف عن البروز في تصرفات بعضنا في لحظات كثيرة، ولهذا الموقف أكثر من قصة طريفة.

حدث في أحد اجتماعاتنا في مجلس القسم بعد أن وصلت إلى الأستاذية أن صممت على رأي معين، وقلت: إنه الحل الوحيد والرأي الوحيد والاختيار الوحيد، وكان معظم الحاضرين يرون رأيي ويعتقدون صوابه، إلا أن بعض زملائنا الكبار كانوا يرون رأيا آخر لاعتبارات مرحلية، ولم يسمح ضمير أستاذي له أن يوافق هؤلاء، وإنما انحاز إليّ ثم قال: أوصيكم برأي محمد إذا صمم عليه، فما كان من أحد زملائنا المحبين إلا أن توجه إليه بالسؤال: لماذا؟

قال أستاذي: لقد كان ورقبته في المشنقة يصمم على الصواب، مع أنه كان من السهل عليه أن يلجأ إلى الأساليب التي يتطلبها التظاهر بالعلم والحكمة.

عندئذ أردفت: وقد دفعت الثمن أضعافًا مضاعفة تفوق الإعدام!!

قال أستاذي: ولم لا تقول إنك نلت المجد كما لم ينله غيرك؟

قلت: أفلم يكن هناك بديل ثالث؟

قال: لا.. ولا أكذبك القول إن أحدًا لم يكن يتوقع منك أن تواصل طريقك في الصمود والواثق والتحدي السافر إلى النهاية.

قلت: لم يكن أمامي غير هذا.

قال: بل كانت كل الطرق مفتوحة أمامك لإنهاء مشكلتك والتخلي عن طريق المجد الذي أردته.

قلت: لم أكن أعرف هذا.. كنت أعرف أنه لا حل أمامي إلا هذا الطريق الذي سلكته

فبقيت فيه.

قال: هذا من فضل الله عليك يا محمد، فاذهب لوالديك فقبل أيديهم لأنهما ربياك على العزة، فلو عرفت أن هناك طرقا أقصر لسول لك الشيطان سلوكها.

قلت: وهل كنتم تعرفون ذلك؟

قال: عن نفسي لم أكن أتوقع لك كل هذا الصمود.

قلت: مادمت قد قلت هذا فإني أصدقك القول إنني أيضا لم أكن أتوقع كل هذا الصمود من نفسي.

قال: لكني الآن أدرك أنك كنت قادرًا على ما هو أكثر منه.

قلت: وما الدليل؟

قال: أرى مغريات الدنيا حولك كثيرة، وأعرف عن يقين أنك اعتذرت عنها بلطف.

قلت: إنما هو في رأي الناس عجز.

قال: وما أعجزك؟

قلت: يرون النتائج تدلهم على هذا فلا يحكمون إلا به.

قال: ثم يرون النتائج تدلهم على نقيضه فيحكمون بالصواب، ألا ترى أنك محاط بهالات من التقدير الحقيقي كلما مضيت في حياتك وفي طريقك؟

قلت: لا أظن الأمر كذلك، وإنما أظنه خليطًا من مجاملة، ومن رد لمجاملة، ومن تقدير حقيقي، ومن تقدير يستمد جذره من تقدير عمومي.

قال: وماذا تريد أكثر من ذلك؟ أتريد إيمانا كإيمان البشر بالمقدس؟

قلت: لست أدري.. لكن نفسي قلقة في مجتمعها.

قال: وعن قريب تهدأ هدوء الواثقين.

قلت: تقصد هدوء العاجزين.

قال: ليس لي أن أجاريك في لغتك.. لكني أستطيع الآن أن أغلبك وأقول لك هدوء المترفعين.

قلت: لك الفوز يا سيدي في كل معركة.. وملت على يده فقبلتها.

****

بعد أسبوع واحد من هذا الحوار كنا في أحد مؤتمرات جمعية القلب، وحضر وزير الصحة، وكان أستاذًا لجراحة القلب، وأراد أن يكرم رئيس جمعيتنا بكلام عن كفايته فقال: إنه لا يزال يذكر حتى الآن أن الدكتور علي رمزي، وهو مدرس، كان يصمم على التشخيص في مواجهة أستاذه الأكبر الدكتور علي عيسى، وكان يتحدث بأسلوب القصر عن فيلم من الأشعة السينية فيقول: إنه ليس إلا حالة ضيق الصمام الأورطي!! فيقول له أستاذه: فكر في تشخيص آخر فيكرر عبارته.

ما إن انتهينا من جلسة الافتتاح هذه ووقفنا مع بعضنا حتى سألني أكثر من زميل من زملائنا التالين: هل كنت تتعامل مع أستاذنا بهذا الأسلوب الذي تحدث الوزير عن أن الدكتور علي كان يفعله مع أستاذه؟!

قلت: في الحقيقة كنت أفعل ما هو أرذل من ذلك وأشق على نفس أي أستاذ.

قالوا: وهل هناك ما هو أرذل من هذا؟

قلت: نعم.. أن يكون هذا في الامتحان، وأن يكون هذا في حالات لا تتحمل هذا الحكم القطعي البات والحاسم.

ووعدت زملائي أن أحكي لهم في المساء بعض الأمثلة من حياتي مع أستاذي.

وآثرت أن أبدأ فأروي لهم قصة أول حالة طويلة امتحنت عليها في امتحانات الدكتوراه المتعددة التي أديتها:

كانت حالة صعبة جدا بكل المقاييس، فقد كانت من حالات تشوه إيبشتين، وهي حالة «خِلْقية» نادرة، وقد صادفها أستاذي في عيادته مصحوبة بالفحوص الصدوية (فوق الصوتية) الحديثة فآثر أن يمتحنني عليها، وكان في مثل هذا القرار قاسيا إلى أبعد الحدود بالمقارنة بظروف الامتحانات في ذلك الوقت، لكني لحسن الحظ لم أكن أتعشم فيما هو أفضل من ذلك.

كانت معنوياتي في ذلك اليوم هائلة، وكان ذهني صافيا إلى أبعد الحدود، وكنت عائدًا من الولايات المتحدة بكل ما يمكن أن يحمله العائد منها من علم حديث، وإلمام جيد، فضلًا عما أتيح لي من وقت للمذاكرة الهادئة على مدى ساعات طويلة مخصصة للمذاكرة وحدها من دون مسؤوليات ولا اتصالات، وكان هناك في حياتي في تلك الفترة ما يسعدني بحيث إنني في نشوة سعادتي لم أكن مأخوذا بامتحان أو بغير امتحان.. كنت كمن

يقول عنه التعبير العام «طائرا من الفرحة»، وهكذا كان وقع المصاعب عليّ في مثل هذا اليوم يسيرا، بل إنه يمكنني القول إنه لم يكن لها وقع على الإطلاق، ولست أبالغ في هذا.

أخذت أقلب في حالة المريض التي لا تبدو فيها أية علامة ظاهرة تدل على تضخم في القلب، لا في البطين الأيمن، ولا في البطين الأيسر، لكن الحالة مع هذا كانت تنطق بالشكوى من أعراض الفشل القلبي.. وبشيء من التأمل فإنه كان من النوع الأيمن.. هكذا وفقت إلى أن أحصر تشخيصي في هذه الصيغة، وهي الصيغة التي كنت قد توصلت إليها لتدريس هذا المرض للطلاب، وإذا بأستاذي يفاجأ تمامًا بتشخيصي الدقيق للحالة، وهو ما لا يعني عنده إلا شيئا واحدا وهو أني حصلت على كل الفحوص التي أجريت للحالة، وكان أستاذي يحتفظ بهذه الفحوص التي أجريت بناء على طلبه ومشورته وفي خلال فترة قصيرة قريبة لا تزيد على يومين، ولم يكن أحد قبلها يعرف تشخيص هذه الحالة، وكنت بخبرتي بأستاذي وبالحالات المرضية قد أدركت ما يدور في خاطره فآثرت أن أتريث في "مهاجمة أفكاره " ريثما تتكشف لي توجهاته من خلال أسئلته، وكان أستاذي كالعهد به رزينا، فبدأ بسؤالي عن بعض العلامات الإكلينيكية التي أثبتها في تقريري Sheet عن الحالة وأنا أتصنع الرغبة في إثبات أهمية ما سجلت، وأتصنع التريث الذي لم يكن من عادتي في مثل هذه الأحوال.. وإذا بأستاذي فجأة يقطع حبل أفكاره ويهاجمني (ويهاجم نفسه قبلي) بسؤال مباشر كنت أتوقعه منه تماما، وإذا به يقول: ولماذا حصرت نفسك في أن تكون الحالة إيبشتين واستبعدت كل الأسباب الأخرى لهبوط القلب الأيمن؟ وكان هذا بالضبط هو ما أنتظره منذ الصباح على حد تعبيرنا الدارج.

وهنا أجبت أستاذي بثقة شديدة: إن هذه الحالة لا تشخص بالاستبعاد، ولا بالحدس، وإنما باليقين.

فتح أستاذي فمه دهشة من هذا الجنون المطبق على تلميذه، وكان هذا أيضًا هو ما أنتظره منه، فإذا بي في هدوء أقول للأستاذ: هل تعطيني الأمان وأنا أقول لك؟

قال: هل أعطيك الأمان على اعترافك بأنك عرفت الحالة من فحوصها مع أنّ الامتحان أن تعرفها بدون الفحوص؟ هل أعطيك الأمان على اعترافك بالغش الذي لم نعهده فيك قبل هذا أبداً.. هل هذا هو ما تعلمته في أمريكا؟

قلت: وهل تظن تلميذك كذلك؟

قال: لا أظنه، ولكنه هو الذي يظن نفسه أو يصورها.. وإلا فما معنى تشخيصك؟ وما معنى سؤالك؟

قلت: المعنى غير هذا تماما.

قال أستاذي في عصبية شديدة قضت وقتيًا على ما تعود عليه من رزانة ووقار: فما هو المعنى إذاً؟

قلت: فكرة إبداعية.

قال: أوصل إبداعك إلى إينشتين ؟

قلت مع ابتسامة خفيفة: لكنه لم يصل إلى إيبشتين .

ضحك أستاذي ضحكة خفيفة لم يكن منها مفر وقال: إياك أن تقول إنهما أقارب.

قلت: هي من قبيل قرابة أبوقراط وسقراط.

ضحك مرة ثانية وكان ضحكه في هذه المرة من القلب، ثم أعاد القناع الجاد على وجهه وقال: هات ما عندك.

قلت: إذا وجدت حالة فشل قلب أيمن ولم تجد معها أمارة على تضخم في البطين الأيمن فهي إيبشتين.

قال: أعد، فأعدت العبارة مرة بالفصحى، ومرة بالعامية.

قال أستاذي: هل يمكن لهذه العبارة أن تقال بالإنجليزية؟

قلت: نعم.

قال: فقلها.

وكنت أعرف أنه قد يهاجمني من باب قواعد اللغة الإنجليزية فاحتطت لهذا قدر ما استطعت، لكني حرصت على أن تكون الصياغة مصرية حتى تبدو القاعدة من اختراعي لا من اختراع الإنجليز أو الأمريكيين الأصليين.

وهنا قال أستاذي منتبهاً: إنه إنجليزي مصري.

قلت في ابتسامة: بل زقازيقي كذلك.

قال: وما قصة هذه القاعدة المبتكرة؟

قلت: هي من ابتكارات تلميذك.

قال: بلا سند؟

قلت: إلا الحقيقة.

قال: أو تقرّ بأنها بلا سند.

قلت: بل أتجاوز النقاش كله لأقفز إلى ناحية أخرى.

قال: أو يعرف الأدب مثل هذا؟

قلت: بل إن أغاني أم كلثوم تعرفه.

قال: تريد أن تنجح بأم كلثوم ...هات ما عندك لكني لن أرحمك لو لم يكن المثل دالا على الفكرة.

قلت: المسألة لا تستأهل رحمة ولا عقابا، فالسيدة أم كلثوم تقول: قالوا المحبة قدر.. أنا قلت جمعنا، ومعنى هذا أنها تقفز من مناقشة فكرة قدرية المحبة لتثبت الحالة الأهم وهي أن القدر (أو غيره) قد جمعها بحبيبها.

قال أستاذي: وتريد تطبيق هذا المبدأ على نقاشي لك في قاعدتك المزعومة؟

قلت: نعم.

قال: فماذا دعاك إليها؟

قلت: ما دعاني إليها داع.

قال: كيف توصلت إليها؟

قلت: أو تريدني أن أتنازل عن سر الصنعة؟

قال أستاذي: أقول لك كما قالت أم كلثوم: ... إن كان في الأمر سر.

قلت: فإن لم أتنازل؟

قال: تثبت عليك التهمة المنطقية وهي أنك غششت الحالة.

قلت وقد وصلت إلى ذروة النشوة: لكن هذه ليست مسؤوليتي، فالبينة على من ادعى.

قال: هذا صحيح، لكن الأصح منه أنه على حد علمي أنه لا أنت ولا غيرك ولا أنا نفسي نستطيع الوصول إلى تشخيص مثل هذه الحالة على أنها تشوه إيبشتين إلا بالحصول على فحوصها.

قلت: ولكني قلت لك القاعدة التي ساعدتني.

قال: وما المانع أن تكون أنت قد «ركبت» هذه القاعدة أو «ألفتها» لتوك وأنت على ذلك قدير.

قلت: أو يسمح جو الامتحان بمثل هذا الإبداع؟

قال: في العادة لا يسمح... ولكنه معك أنت يسمح.

قلت: ألا يكفي هذا للدلالة على إمكان توظيفي للإبداع في مثل هذا التشخيص؟

قال: لا يكفي.. ولا تضيع وقتي ووقتك.

قلت: وما جدوى الوقت للمحكوم عليه بالإعدام؟

قال: وهل عرفت أن الحكم قد صدر؟

قلت: إنه يبدو كذلك (وكنت أشير إلى القرار المعهود في مثل هذه المواقف وهو الرسوب المحكوم علينا به من قبل أداء الامتحان، لكن اللياقة لم تكن تسمح لأي منا أن يصرح بمعرفته من قبل لمثل هذه النوايا، فالتصريح في حد ذاته يزيد من حجم الإيذاء المتوقع).

قال: ألأنك اقترفت ما يستحق الإعدام؟

قلت: بل لأني اقترفت ما يستحق أكثر منه.

قال: أتهين المحكمة؟

قلت: بل أثبت لها رأفتها.

قال أستاذي: والمحكمة تستجيب لطلبك إذًا وتدعوك لأن تبرئ نفسك.

قلت لأستاذي: هل تسمح بقلم وورقة؟

قال: هما معك.

قلت: أقصد أن تسمح لي باستعمالهما.

قال: من حقك.

قلت: فالقصة هكذا، ورسمت في لمح البرق رسوما كروكية تثبت طريقتي في التشخيص.

قال أستاذي: لكن السؤال لا يزال قائما.. ولكن كيف وصلت إلى هذا؟

قلت في هدوء وتواضع كفيلين بتوتير أستاذي: بالتكويد.

قال: أعرف التكويد... لكن ما علاقته بما نحن فيه؟

قلت: المسألة في منتهي البساطة تعتمد على قاعدة معروفة وهي أن الشيء إذا اعتمد في وجوده على أركان كثيرة فإنه يمكن وجوده حتى إذا افتقد بعضها.

قال: هذا صحيح.

قلت: فإذا كانت هذه القاعدة في ذهننا دائما فبوسعنا عندما نكتب عن كل حالة أن نقول في التعريف: إنها تنال هذا التشخيص حتى لو افتقدت ركنا منه، لكن العلم الحديث أو التأليف العلمي الحديث يعطى للمؤلف الفرصة ليقول هذا بالتحديد وليس بالقاعدة المجردة.

قال: هذا صحيح وقد حدثتني أنت عنه.

قلت: ويظل هذا قائما حتى لو لم تكن الحالة التي ينطبق عليها هذا القانون قد وجدت في الأدبيات التي سجلها مَنْ قبلنا.

قال: هذا كله معقول على الرغم من صعوبته على مَنْ لم يدرسوا الفلسفة وعلى مَنْ يكرهونها، ولا تنس أنهم كثيرون.

قلت: أعرف هذا.

قال: لا تتوهني وعد إلى سؤالي واذكر لي ما الذي جعلك تؤلف هذا كله في حالات هبوط القلب الأيمن؟

قلت: إنها رياضة عقلية.

قال: قد فهمت إنها رياضة وتباديل وتوافيق واحتمالات من تلك التي تتحدث عنها كثيرا، ولكن ما الذي جعلك تختص هبوط القلب الأيمن والإيبيشتين بالذات بهذه الرياضة؟

قلت: ومَنْ قال ذلك؟

قال: الحالة.

قلت: لا.. إن عندي قوانين مشابهة للفصول الأخرى من كتاب القلب.

قال: هات أحدها.

قلت: تريد قوانين في الكهرباء، أم في الميكانيكا؟

قال: مادمت قد فعلت كأهل البقرة فهات مثلا من هذا ومثلا من ذاك.

قلت: لكن وقت الامتحان لا يسمح.

قال: يسمح.

قلت: سيجور على وقتي في الحالة القادمة.

قال: ليس هذا من شأنك.

قلت: ستعجبك الفكرة وتغبطني عليها.

قال: أو تحتاط بخبثك فتقول تغبطني بدلا من أن تقول اللفظ الذي تقصده وهو تحسدني.

قلت: الفضل لك في تعليمي هذا.

قال: بل الفضل لوالدك وعدّ إلى الموضوع.

قلت: إني ما قصدت إلا الحقيقة حتى لو أن الأسلوب بدا مهذبا.

قال: وهل عندك دلائل على حسدي لك من قبل؟

قلت: أستغفر الله.

قال: فكفر عن ذنبك.

وفيما بعد كان أستاذى إذا شرح فشل (هبوط) القلب الأيمن ذكر قاعدتي هذه، وقال للمقربين ذات مرة: إن الذي ألف هذه القاعدة عبقري نصف مجنون في لحظة لا يمكن أن يتم فيها تأليف إلا من شخص حكم عليه بالإعدام، و أراد أن يتحدى قاضيه بلا جدوى.

***

## الفصل العشرون
## الإنفاق على الصحة

كان أستاذي يرى بوضوح أن عصر ثراء الأطباء وتربعهم على قمة السلك المادي بين طبقات المجتمع قد انتهى منذ زمن بعيد، هو زمن بداية الانفتاح الاقتصادي ونهاية النظام الاشتراكي، وبعيدًا عن المصطلحات فإن هذا الزمن وبالتحديد منذ ذلك الحين الذي كان الكشف فيه بجنيه واحد فقط، لكن الجنيه نفسه كان يتكرر كثيرا في اليوم الواحد، وكان يشتري ما لا تشتريه المائة جنيه الآن.

كذلك كان أستاذي ينبهني إلى أن معدل تدفق المرضى في الماضي على طبيب واحد كان عشرة أضعاف معدل تدفقهم الآن بلا مبالغة، وهكذا فإن الثروة القابلة للتكون في أيدي الأطباء تضاءلت إلى حد لا يمكن حسابه.

كان أستاذي يتمنى لجماهير الشعب قدرة على الإنفاق، وكان يرى أن الشعب واعٍ لمصارف إنفاقه، وليس كما تصوره بعض الأقلام وبعض الأفلام سفيها، وكان ينسحب بهذا الحكم على كثير من صور إنفاق الأطباء أنفسهم، فكان يقول : إن العيادة الراقية في أساسياتها وكمالياتها تشجع صاحبها على تحديث الأجهزة الأساسية فيها والعكس صحيح.

أكثر من هذا فإن أستاذي بخبرة أو حساسية رفيعة القدر كان قادرًا قبل غيره على أن يتنبأ بتدهور معدلات الإقبال على العلاج الخاص نتيجة لأزمة المواطنين مع الحكومة فيما سمي بأزمة شركات توظيف الأموال.

وكان أستاذي يقول لي: إن هذه العوائد الكبيرة التي يتلقاها المودعون تشجعهم على حياة أفضل بما في ذلك نشدان للرعاية الاجتماعية والصحية والرياضية بل الفنية أيضا.

وكنت أرد عليه: إن هذا قد يكون خصمًا من الأصول المملوكة لهؤلاء.

فكان يقول: وفي غياب هذه العوائد الكبيرة ألن يلجأ هؤلاء إلى أصولهم ليخصموا منها إذا أرادوا حياة أفضل؟

وكنت أقول: إن هذا قد يدفعهم إلى التريث بعض الشيء مما يجعلهم ينفقون في الاتجاه الصحيح.

فكان يرد عليّ بقوله: إن هذا الإحجام عن الإنفاق يؤذي الحالة الصحية لهذه الطبقات، فيؤخر اكتشاف المرض، ويؤخر بدء العلاج، وبالتالي تتعقد المشكلات الطبية التي كانت قابلة للحل مبكراً.

قلت: لكن الحكومة تزعم أن هذا الرواج رواج زائف.

قال: ربما كانت للحكومة بعض أسبابها الخاصة في مثل هذه الدعوى.. لكن خبرني هل نجحت الحكومة اليوم في خلق أية حالة من الرواج الزائف أو غير الزائف؟

قلت: لم تنجح، ولكن ليس هذا مبررا لأن تقف مكتوفة الأيدي أمام ضياع أموال المودعين.

قال: ستضيعها الحكومة لمصلحة نفسها، وستتحول هذه الأموال إلى أموال منقوصة وسوف ترى.

قلت: إن أخي أحمد يقول : إن الحكومة ستضيف إلى الأسعار الأربعة للدولار سعرًا خامسًا هو سعر دولار الريان.

قال: ماذا يقصد؟

قلت: إنه يقول إن الحكومة بعدما تستولي على دولارات الريان ستعطى للناس ما يقابلها بعد فترة، ولكن بسعر مختلف عن السعر الرسمي، والسعر التشجيعي، والسعر الجمركي، والسعر الحقيقي للدولار.

قال أستاذي: بل أخشى أن يصبح هناك سعر لدولار الشريف، وسعر لدولار الريان، وسعر لدولار السعد، وسعر لدولار الهلال، وقل مثل هذا بعدد شركات توظيف الأموال.

قلت: ألا ترى أن سكوت الإخوان المسلمين عن الهجوم على هذه الشركات وعلى أسلوبها في الأداء الاقتصادي يمكن الحكومة ويساعدها من أن تلصق بالإخوان مسؤولية مباشرة عن مثل هذه الشركات؟!

قال: وإذا أدان الإخوان هذه الشركات وهاجموها فستقول الحكومة : إن هذه تقية وتمثيلية!!

قلت: لكنهم بمثل هذا الهجوم قد يبرئون نفسهم أمام الشارع السياسي.

قال: مم يبرئون أنفسهم؟ من شيء يجبه هذا الشارع السياسي؟ ولا يخرق التشريع الإسلامي.

قلت: يبرئونها من محاولة السعي إلى خلق كيان رأسمالي كبير يكون سندًا لهم في طموحاتهم السياسية.

قال: وهل يصل الإخوان مهما أنجزوا في هذا المجال إلى الرأسمالية المصرية قبل الثورة؟

قلت: بالطبع لا.

قال: فقد رأى الإخوان بعيني رأسهم كيف ابتلعت عهود الثورة كل هذا الزخم الرأسمالي في التجارة، وفي الصناعة، وفي المعمار، بل وفي الزراعة، وحولوا مصر إلى شيء قريب من الصومال أو تشاد.

قلت: هل معني هذا أنك تتوقع ألا يسهم الإخوان في التنمية الاقتصادية؟

قال: لا الإخوان ولا غيرهم، إنما ينخدع في شعارات الدولة بعض الطيبين قليلو الخبرة من ذوي النوايا الساذجة مثل الريان، والسعد، والشريف، وقد يكون من هؤلاء إخوان مسلمون، وقد لا يكون، وقد يكون منهم أقباط، وقد لا يكون، لكنك إذا أردت الحكم للحكومة ومهارتها في الحديث عن مناخ الاستثمار فابحث عن يهود انخدعوا في كلامها.

قلت: أتعتقد أن أصحاب شركات توظيف الأموال قليلو الخبرة وسذج؟

قال: لو لم يكونوا كذلك ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه.

قلت: إنما أوصلهم إلى الأزمة مضاربتهم بأموالهم في بورصات عالمية.

قال: إن صح ما تزعمه الحكومة من هذا فلن يتبقى لهؤلاء من مال إلا ذلك الذي ضاربوا به في بورصات عالمية.

قلت: وأموالهم التي أنشأت ما أنشأت في مصر من أصول، ومن تجارات واسعة؟

قال: هذه هي المضاربة الخاسرة تماماً: ستذهب كل هذه الأصول سدى.

قلت: ألهذا الحد أنت متشائم؟

قال: بل واقعي.

قلت: لكنك بدأت الحديث بإثبات فضلهم على سوق الطب، وسوق العلاج.

قال: كنت أيضًا أتحدث عن حقيقة، وهي أن وجود المال في يد الطبقات الجماهيرية يشجع أفرادها على طلب الخدمة الطبية مبكراً، مما يرشد ويقلل من إنفاقهم اللاحق على مشكلات الصحة، ويحقق نتائج أفيد للمجتمع.

قلت: وقد فهمت من حديثك أن هذا الاهتمام بالرعاية الطبية سيغيب مع غياب عوائد الريان وإخوانه.

قال: هذا حقيقي، وستفشل الحكومات لمدة عشرين عاما على الأقل في أن تخلق حالة رواج مشابهة.

قلت: وهل تعتقد أن هذا النموذج كفيل بالاستقرار لو كفت الحكومة يدها عن شركات توظيف الأموال؟

قال: أنت تحتاج في أفضل الأحوال إلى عشر سنوات حتى يتربى لدى الجماهير معنى الاهتمام بالصحة وبالكشف المبكر وبأهمية تحاليل الفحص الدوري! ولن يمكنك ذلك من دون حالة رواج.

على هذا النحو كان أستاذي يفيض في شرح هذا المعني وتأصيله بأفضل مما يشرحه أساتذة الاقتصاد الذين يشرحون نموذج «مازلو» ويقولون : إن زيادة الاستهلاك تشجع على زيادة الإنتاج، وترفع من المستوى الاقتصادي على وجه العموم.

وأذكر أن حوارًا آخر دار بيني وبينه حول ما يعنيه إهمال الأساتذة الأكاديميين للفحص الدوري والعناية بصحتهم.

قال أستاذي: أرأيت هذا الأستاذ العظيم كم هو مهمل في نفسه.

قلت: مثل هذا الرجل يموت واقفا في عمله.

قال: قبل أن أتناقش معك في المقصود بهذا المجاز .. هل فكرت مرة كيف يموت الإنسان وهو واقف .

ضحكت ضحكة خفيفة .

فقال أستاذي : أنا أسأل بجدية شديدة .. هل رأيت مثل هذا.

قلت : وأنا سأجيب إجابة من محيط التاريخ.

قال : هاتها.

قلت : أوصى السياسي الفرنسي الكبير كليمنصو ألايدفن إلا واقفا .

قال : وكيف نفذوا وصيته ..هذا المخبول.

قلت : دفنوا تابوته عموديًا ..

ضحك أستاذي وقال : التاريخ يخدمك يا محمد.

ثم قال: هل تظن هذا الموت واقفًا في أثناء العمل شطارة أو مكرمة، إنها جريمة في حق المجتمع، وفي حق النفس.

قلت: مثله يعتقد أنه يتبع الهدي النبوي فلا يترك ما يزرعه حتى لو قامت القيامة.

قال: لكن سلوكه ضد هذا الهدي النبوي على طول الخط، إنه يحرم نفسه من أن يستأنف الزرع، ومن أن يستكمله.

قلت: إنه لا يؤمن بالطب ولا يعرف دوره.

قال : فما بالك بالفلاح البسيط الذي يأتي حافيا، وقد باع بهيمته ليعالج نفسه؟ لأنه يدري أن تحسن صحته كفيل باستعادة ثروته، وأن العكس غير صحيح.

قلت لأستاذي: هذا الفلاح البسيط رجل يمول نفسه، ويدير أمور نفسه، أما هذا الأستاذ فقد ترك الأمر للحكومة تجود عليه بما تجود حين تجود، فترفع أجره، أو تزيد مكافأته، أو تخترع من حين لآخر مكافأة جديدة له ولأمثاله.

قال أستاذي: وأين واجبه نحو نفسه في هذا الحق؟

قلت: قد نزع من نفسه المسؤولية عن تدبير أمورها.

قال: إنك تخدع نفسك بدفاعك عن أمثال هذا الأستاذ.. تجعل السبب نفسيا بينما السبب في نظري جهل لا يليق بالأستاذ.

قلت: كأنك تريد أن تقول إن السبب «معرفي» لا «نفسي».

قال: ها أنت قد فهمت.

قلت: إنما كنت أبلور فكرتك فحسب.

قال: ومتى تتبناها؟

قلت: كيف أتبناها وأجرم هؤلاء الذين تربوا على أنهم أبناء للدولة، وأنزع عنهم بنوة

منحتها لهم الدولة.

قال: يا سيدي.. اجعل هؤلاء يدركون أن البنوة قد انتهت.

قلت: النبوة هي التي انتهت أما البنوة فلا تنتهي.

قال: فماذا يحدث عندما يفقد الولد أمه أو أباه.. ألا يفقد معنى تلك البنوة المعتمدة على أبوة أو أمومة أو والدية.

قلت: إنما يفقد هذا الشق من مسؤولية آخر عليه فحسب .. لكنه يظل ابنا لمن توفي أو لمن توفيت أو لمن توفيا.

قال: إذًا هو يفقد شيئًا .. فعليك أن تنصح أساتذتنا بمواجهة الواقع، وهو أن الدولة قد توفيت أو فرطت في والديتها لهم، وعليهم أن ينتبهوا إلى العناية بصحتهم، سواء مولت الدولة لهم هذه العناية، أو شاركوها في تمويلها.

قلت: يساء فهم حديثي، ويتصور القراء أني أروج لطائفة الأطباء التي أنا منها.

قال: ما عهدتك قليل الشجاعة.. إنما أنت لا تزال تعتقد في مسؤولية الدولة عن تمويل الإنفاق على صحة أبنائها.

قلت: أصدقك القول: هذا صدى ما رأيته بعيني رأسي في البلاد التي اتصلت بالطب فيها في أمريكا، وفرنسا، وألمانيا.

قال: يا سيدي وكل الناس رأوا هذا في السعودية والكويت.

قلت: فكيف أقنع الأساتذة بمنطق مستحدث؟

قال: وكيف تتركهم يعانون على نحو ما يعاني هذا الرجل الذي يظهر من رسم قلبه أنه يعاني من الضغط منذ أكثر من عشر سنوات.

قلت: من واجبات الدولة البسيطة أن تجري كشفا دوريا على موظفيها كل ٥ سنوات مثلا.

قال: فإن لم تقم الدولة بدورها عاش هؤلاء مع المرض وهم يلقون بالمسؤولية على الدولة، ماذا تفعل الدولة في مضاعفاتهم إذًا ، ومن هو المسؤول عنها ؟

قلت: ليس من شيم النظام أن يكون مسؤولا عن عدم النظام.

قال: النظام لا يعيش في جزيرة منعزلة عن الواقع.

قلت: لكن الواقع يستطيع أن يعيش بعيدًا عن النظام.

قال: إني أخشي عليك أن تتحول إلى نموذج السياسيين الشعبيين الذين يلقون بالمسؤولية على الشعب.

قلت: بالعكس.. فإني ألقي بها على الدولة.

قال: لكنك لم تقل لي ماذا يفعل الشعب إذا لم تقم الدولة بمسؤوليتها؟ هذا هو جوهر الامتحان الحقيقي لفهمك وفهم أمثالك من المصلحين.

قلت: إن الحل الذي تتبناه سيادتكم هو الذي يحمل الشعب المسؤولية.

قال: أنا لا أحمله المسؤولية.. لكني لا أحرمه من أخذ زمام المبادرة في المسؤولية عن نفسه إذا لم تقم الدولة بواجبها.

قلت: النهاية واحدة.

قال: لا.. ليست واحدة عندما أحمله المسؤولية يجيد حملها وينصلح أمره، وعندما أتركه بدونها فإن النتيجة تصبح كارثية.

قلت: ليس في النظريات الاقتصادية والاجتماعية ما ينظم الأمور حسبما نراها من سلوك شعب ذكي.

قال: واجب المنظرين أن ينظروا لما يرون لا أن ينتقدوا ما هو واقع إذا لم يكن متطابقا مع نظرياتهم.

قلت: إني مستوعب لما تقول، لكن تنظيم أمور دولة بأكملها يقتضي وضوحا في الرؤية والهدف والسياسة، ولا ينبغي أن يقوم على مجرد التوفيق بين أنماط مختلفة من السلوك.

قال: أنت قادر على أن تصوغ من هذا الذي تقول ما يحفظ على هذا الشعب صحته.

قلت: إنما أنا داعية.

قال: وكاتب ومؤلف وأنا أعتبرك مسؤولا عن مستقبل هذا الوطن فيما يتعلق بصحته، لأن الله أنعم عليك وحدك بما لم ينعم به على غيرك.. والناس كلها تسرق أفكارك وتكررها بأقلامها فاكتب ووجه وأرشد وثوابك على الله.

قلت: ليست هذه هي المشكلة.. إنما المشكلة في كثرة المدعين.

قال: لا تشغل بالك بهم فإنك قادر على تصويب الأمور في مجال الصحة على نحو ما

أرشدت إلى تصويبها في كثير من أمور الجامعات هل نسيت مقالاتك التي صنعت تشريعات وتعديلات وقد أخذوا بكل آرائك تقريبا .

قلت : إني قد أصبحت لا أعرف أين أجد الصدى.

قال: امض في سبيلك ولا تفكر في الصدى الآن .. فقد قرأت لك مقالات جيدة في هذا الميدان، لكنني أرجو أن تعطي دورا أكبر للشعب لأن الدولة تتآكل.

قلت: (وكأنني أستنكر ) والجماعات الإسلامية والمستوصفات الخاصة بها تنمو.

قال: بل إنها تتآكل.. هذه كلها جزء من نظام الدولة الحالي.

قلت: فالمستشفيات الخاصة والمهنية تنمو.

قال: بل تتآكل.. هذه هي الأخرى جزء من نظام الدولة.

قلت: فما الذي ينمو إذاً؟

قال: أخشى أن يكون الذي ينمو هو الاعتماد على الخارج، لا الخارج الأوروبي المكلف، وإنما الصيني الذكي.

قلت : أتتوقع أم تتنبأ .

قال : بل أنا في هذه النقطة زرقاء اليمامة !

ومما يحسب لأستاذي أن نبوءته قد تحققت قبل أن تمضي سنوات على هذا الحوار على حين لم يكن في الأفق ما يدل على أن الصين ستكون الحل الأول لبعض مشكلاتنا الطبية.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

******

## الفصل الواحد والعشرون
## نصيبنا من الدنيا

في أحد الأعياد اتصلت بأستاذي للتهنئة بالعيد، وكانت علاقاتنا متوترة في ذلك الحين، فإذا به يقول لي : إن شقيقه الأكبر عنده ويريد أن يهنئني بالعيد، وإذا بشقيقه الأكبر ينهي مكالمته بأن يقول لي : إن شقيقه الأصغر هو الآخر يريد أن يهنئني بالعيد.

فهمت بالبداهة أن هذا وذاك أشارا بطلب السماعة عندما علما أني أنا المتحدث.

بعد ثلاثة أيام التقينا في الكلية فإذا بأستاذي يقول لي على مسمع من زملائي الذين كانوا يتجمعون في مكتبه لحضور مجلس القسم: هل تعرف ماذا حدث بعد أن أنهيت المكالمة؟

قلت: بالطبع لا.

قال: قال شقيقي الكبير: إنك أنت وحدك من دون هؤلاء جميعًا نصيبي من الدنيا.

قلت: ولم يقره شقيقك الصغير؟

قال: أتتهم الرجل ظلما وغيبا؟

قلت: لكني أعرف أنه يعرف أن علاقاتنا متوترة، ومن المنطقي ألا يوافق شقيقه الأكبر على مثل هذا الحكم.

قال: فإن فعل؟

قلت في شبه يأس: ربما هي محاولة لتليين قلبك.

قال: هو ألين مما تظن، لكنك لا تكف عن تقسيته.

قلت لنفسي بعد تفكير سريع: هذه هي اللحظة المناسبة لتفجير رأيي في سبب خلافي مع أستاذي.. وحدثت نفسي بسرعة أن أي رد متعجل خير من الصمت في مواجهة هذه الفرصة الثمينة، وهكذا اندفعت بكل كياني أقول لأستاذي في صوت خافت: إنما هي أذن حضرتكم ومَنْ وراءها.

قال: هذا أكبر دليل على أنك لا تكف عن تقسية قلبي عليك.. ألست حرا في أذني وفيمن يتحدث فيها حتى لو أنك تدري ماذا يقول؟

قلت: بلي.

قال: فمن نصبك وصيا على أذني من أجل أن تكون الأحكام متوافقة مع ما تراه في مصلحتك، أو مع ما تراه حقاً.. أو حتى مع الحق نفسه؟

قلت: حبي لك.

قال: أمرك كله عجب، لا تدفعني لأن أقول لك : إني لا أريد هذا الحب.. فإن مثل هذا القول صعب على نفسي، ولن أستطيع أن أتفوه به.. لكنك بعبقريتك المضادة لمصلحتك على طول الخط تدفعني لأن أدافع عن نفسي بمثل هذا العنف الشديد. إنك تدفعني لأن أثبت ذاتي في مواجهة آرائك الحادة التي قد تكون صائبة.. لكنها أقرب إلى ما يقول عنه العامة: الله الغني عن هذا الصواب.

وهنا بدأ معظم الزملاء ينصرفون حتى لا يشهدوا ما لا ينبغي أو ما لا يستحسن لهم أن يكونوا شهودا عليه.

قلت: مهما يكن من أمر آرائي فهي أفكار فحسب.. فإنك تعرف أني لا أفجر موضوعاً، ولا أجأر بشكوى، ولا أطالب بمغنم، ولا أسعى وراء حق، ولا أتمسك بنصيب، ولست أنا الذي في حاجة إلى أن أبرئ نفسي من هذا كله، فأنت تعرف عني هذا وأكثر.

قال: أعرف.. وأنت بريء من هذا كله، بل إنك لست محل شبهة، ولست أنا وحدي الذي يقدر فيك هذا الترفع.

قلت: لكني مع هذا لا أستطيع أن أوقف قلبي، ولا أن أجمد عقلي، وليس في وسعي أن أقول لقلبي ولا لعقلي أن يكفا عما يريانه صوابا.

قال: لكنك بهذا تتعدى على حرية أستاذك.

قلت: أعلم.

قال: فما مبررك؟

قلت: لأني نصيبك من الدنيا.

قال: لا أظن شقيقي هذا أو ذاك كانا يقصدان ذلك حين قالا ما قالا.

قلت: فعليك بهما فأسألهما.

قال: أيليق بي أن أنهى إليهما مدى ما وصلت إليه بتجرئك عليّ.. لم يعد ينقص إلا أن أستأذنك في كل موقف أتخذه.

قلت: وهذا أيضًا مما يرد إلى أذنك.

قال: يا.. محمد.. لقد نفد صبري.. وهؤلاء زملاؤك قد ربؤوا بأنفسهم عن أن يكونوا شهودًا لهذه المواجهة فخرج بعضهم من المكتب فما بالك بي وأنت تضعني موضع المتهم.. ألا ينفد صبري؟

قلت: الحق أقول لك: ما أحراه أن ينفد.

قال: أعندك رصيد له؟

قلت: نعم.

قال: إذًا هاته.

لم أدر بماذا أجيب لكني وجدت نفسي مندفعا إلى أن أفتح حقيبتي دون أن أكون عازمًا على شيء بعينه، ومددت نظري فيها ثم مددت يدي إلى رواية فرنسية كلاسيكية كانت موجودة في حقيبتي لسبب آخر، ودفعت بالرواية إلى أستاذي..

وقلت له في سرعة: نلتقي غدا إن شاء الله لأني سأدخل للطلبة الآن.

في صباح اليوم التالي لم أمر بأحد في مدخل الكلية ولا مدخل مستشفى الباطنة، ولا طرقات القسم إلا وقال لي: إن الأستاذ يسأل عنك، دخلت عليه وهو يمر في حجرة المرضي فترك أستاذي المرضي بمجرد أن رآني وانصرفنا إلى مكتبه.

بدأ أستاذي الحديث بقوله: إنه لم ينم أمس.

قلت في ثقة: لكن مثل هذه الرواية لا تأخذ منك أكثر من ثلاث ساعات.

قال في ثقة: منك أنت.

قلت: ربما لا تأخذ مني أكثر من نصف هذا الوقت، لأني أقرأ بأسرع من ذلك كما تعرف.

قال: ليس هذا ما قصدت.

قلت: لا أفهم.

قال: ولن تفهم.

قلت: فامنحني بعض الفهم.

قال: بدأت الرواية بعد أن انتهيت من عمل العيادة وانتهيت منها قبل منتصف الليل، ومنذ ذلك الوقت لم أنم.

قلت: فأنا مذنب إذاً.

قال: جداً.

قلت: وما طبيعة ذنبي على وجه التحديد؟

قال: إنك حرمتني قراءة هذه الأعمال الخالدة في السّن التي يقدر فيها الإنسان ما فيها من معاني الخلود.

قلت: ما قصدت هذا.

قال: أعرف.. لكني أنا الذي أصبحت حساسًا من موقفي منك.

قلت: الأيام كفيلة بإصلاح كل شيء.

قال: أفلا يصلح شيء إلا بإفساد أشياء أخرى؟

قلت: ربما لا تصلح أشياء إلا بصلاح شيء واحد.

قال: أأنت واثق؟

قلت: جرب ..... يكسب كلانا.

قال أستاذي: هل أطلب منك أن تحتفظ بقصة الرواية وباسمها سرًا حتى أموت؟

قلت: أو أموت أنا.

قال أستاذي: لا تذهب بعيدًا عن الوعد.

قلت: أعدك.

قال: يا محمد لقد غيرت رأيي في كل شيء بهذه الرواية، وكأنما أرسلها الله معك حتى ينير بصيرتي.

قلت: ربما لم يلهم الله بلزاك كتابتها إلا لتكون يوما ما سببا في عودة مياهنا إلى مجاريها.

قال: أعادت؟

قلت: بأقوى مما كانت.

قال: يعجبني ذكاؤك.

قلت: ولا يعجبك أحيانا.

قال: فاعلم يا محمد أن هذه الأحيان لن تأتي أبدا بعد اليوم.

قلت: هل تعرف السبب الذي جعلني جئت بها في حقيبتي؟

قال: لا أعلم.. ولا تسألني التخمين.

قلت: كانت الرواية في طريقها لعلاج أستاذ من أساتذتي من ظنه أن الشر قادر على أن يخفي نفسه وينتصر، بينما كنت أقول إنه يعذب صاحبه ولا يجعله يهنأ بشيء مما اقترفه.

قال: لكنك وصفتها لي لسبب آخر.. ألا تذكره؟

قلت: بل أذكره.

قال: فما هو؟

قلت: كنتم سيادتكم تبحثون عن رصيد للصبر

قال: فما علاقة هذا بالوصفة الأولى؟

قلت: لأنه لا يدعو إلى الصبر شيء مثل الأمل.

قال: لكن الرواية عذبتني.

قلت: هي كذلك معذبة بما فيها من دراما.

قال: لم يكن هذا هو مصدر تعذيبي الوحيد، إنما كان مصدر التعذيب هو الشعور بالحرمان من مثل هذه الوجبات الرائعة.. هل لا تزال تواظب يا محمد على مثل هذا الغذاء الروحي والعقلي؟

قلت: حتى الآن نعم.

قال: أدام الله عليك نعمته.

قلت: ورزقني رضاك.

أشاح بوجهه وقال: وماذا يمثل رضاي في وسط النعيم الذي أنت فيه؟ ألا تكف عن تأنيبي بمناسبة وبغير مناسبة.

قلت: إن كان هذا تأنيبًا فلن أكف عنه.

قال: وأنا أطلب إليك ذلك.

قلت: فإن لم يكن تأنيبًا فماذا يكون؟

قال: هو حب غير عاقل.

قلت: وهل أفدت من الحب العاقل؟

قال: لا.

قلت: أفلا يجدر بك أن تفيد من الحب غير العاقل؟

قال: كنت أظن الحب غير العاقل لا يفيد.. لكنك غيرت رأيي اليوم.

قلت: أخشى أن يكون تغيرًا وقتياً.

قال: لا تشغل بالك.. عليك الحب وعلينا الاستفادة.

قلت: أفهم من هذا أن المطلوب مني صبر على العطاء؟

قال: بل صبر على الآخرين.

قلت: والعطاء؟

قال: ذلك ركب فيك، فلا جدوى للحديث عن صبر عليه.

قلت: والجزاء!

قال: ماذا دهاك حتى تغير طبيعتك وتسأل عن شيء لم تسأل عنه.

قلت: وماذا أفعل وأنا أخلص ذمتي.

قال: ليس إلى تخليصها من سبيل.

قلت: أفهم أن معاناتي ستستمر؟

قال: بعض الوقت.

قلت: من أجل إسعاد بعض الساديين؟

قال: بل من أجل علاجهم العلاج النهائي.

قلت: لقد أصبحت بدمي وأعصابي وابتسامتي ممولا حتى لعلاج الساديين.

قال: هذا أفضل من أن تكون أنت ساديا.

قلت: لو استمر الأمر على ما هو عليه فإني لا أضمن أن أتحول هكذا.

قال: لا تهددني.. فلربما صدقتك قبل اليوم أما بعد معرفتي بالجنة التي تعيش فيها فإني أعرف أنك تنظر إليّ وإليهم من أعلى عليين.

قلت: ها أنا قد أصبحت أيضًا محسودًا حتى على موقع المظلوم.

قال: وربما تحسد أيضًا على حظك الكبير من الظلم.

قلت: هل تشعر بالرضا لهذا كله؟

قال: إنك تحاصرني.. ولكني أملك الجواب الكفيل بإسكاتك وإن لم يكن كفيلًا بإقناعك.

قلت: وما هو؟

قال: هذا نصيبك من الدنيا.

****

بعد قرابة خمسة عشر عامًا من هذه الواقعة دعاني أستاذي إلى مناسبة عائلية لم يدع إليها أحدًا غيري من تلاميذه ولا من زملائه، وبعدها بشهور قليلة كرر التجربة، ولم ينس أن ينهي إليّ أني أنا المدعو الوحيد من زملائه وتلاميذه.

قلت لأستاذي: وماذا يعني هذا؟

قال: يعني أنني اعترفت بنظرية أشقائي الذين قالوا : إنك أنت وحدك نصيبي من الدنيا.

قلت: يا سيدي أنت تقول هذا الكلام هنا في المطلق، فإذا ذهبنا القسم كان لك كلام ثان.

قال: لن أدافع عن نفسي، لكني أسألك أن تذهب إلى زملائك وأن تسألهم ماذا قلت عنك بالأمس الذي هو أمس

قلت: بلغني.

قال: فما الداعي إلى الظلم؟

قلت: الرغبة في إزالة آثار ظلم قديم.

قال: أتحسُّ به؟

قلت: أصدقك القول إنه لم يبق الآن من أثره في نفسي شيء.

قال: فما يؤذيك؟

قلت: إني أجد نفسي عاجزًا عن الدفاع عن ظلمكم لي حين يتحدث الناس عن هذا الظلم.

قال: حول هؤلاء عليّ وأنا أدافع عن نفسي.

قلت: قد تصوروا أني محاميك الدائم في السراء والضراء.

قال: تقصد في الحق وفي الباطل؟

قلت: العفو.

قال: إنما تقال الجملة هكذا ولا علاقة لها بالسراء والضراء وإنما أنت مراوغ من أجل التهذيب.

قلت: فماذا أقول لهم؟

قال: قل لهم: كانت عين حسود وأصابت هدفها!

قلت: وماذا أقول للذين لا يؤمنون بالحسد؟

قال: قل لهم: صدفة سيئة وطالت.

قلت: وماذا أقول للذين يعرفون الحقيقة؟

قال: وما هي تلك الحقيقة؟

قلت: الحقيقة أنها تأثيرات الابن البكر على الأب الكبير كي يحجب نور ابن صغير نابغ.

قالت فقل هذا ولا تخف.. ولن أنكر ذلك إذا سألني أحد عن صحته.

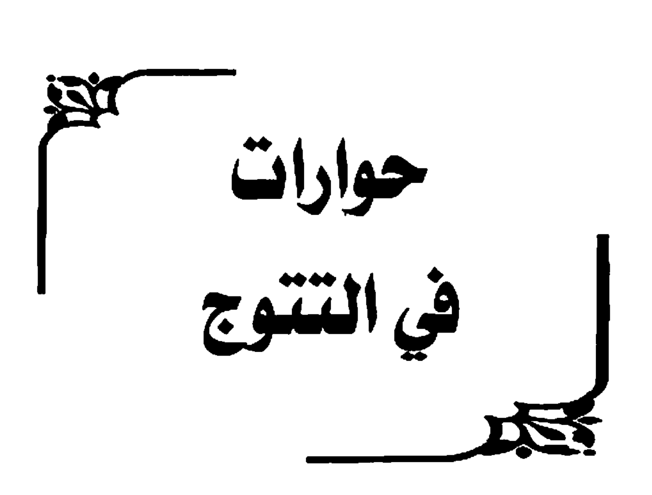
قلت: لكن الناس لا تصدق هكذا.

قال: لا تكن حساسا إلى هذا الحد، فما المظلوم على حد تشخيصك لنفسك وحالتك بمسؤول عن الظلم الذي وقع عليه.

قلت وقد تشجعت : فإني مطالب بأن أدافع عن مَنْ كان في موقع الظالم سعيدا.

قال: قل: إنه كان ولا يزال نصيبك من الدنيا.. واصمت بعدها فلا تردف بكلمة .. ولا جملة .. ولا حتى آهة.

# الباب الخامس



## حوارات في التتوج

# الفصل الثاني والعشرون
# معنى المرجعية

بعد أن أحيل أستاذي إلى التقاعد بشهور وبعد أن استعاد توازنه النفسي بعيدًا عن دوامة رئاسة القسم وبريدها اليومي بدأ ينظم جلسات علمية يناقش فيها تخطيطات رسم القلب الكهربي مع طلاب الدراسات العليا، وكان أستاذي واحدا من المجيدين جدًا لهذا التخصص باعتبار أنه من الجيل الذي تعمق دراسة هذه الوسيلة التشخيصية حين كانت إحدى الوسائل القليلة التي يعتمد عليها طب القلب، ويبدو لي الآن أنني حين وجدته قد بدأ ينظم هذه الحلقات الأسبوعية شعرت بنوع من الغيرة، مع أنه كان يجدر بي أن أشعر بشيء من الفخر، أو الارتياح، أو الاعتزاز، فقد كنت أنا الوحيد الذي ينظم مثل هذه الحلقات، وها هو الأستاذ نفسه ينهج نهجي، لكن القضية كان لها وجه آخر، فقد كنت أنظمها في الوقت الذي يروق لي، فقد تنعقد في يومين متتاليين، وقد تتباعد إلى ما بعد ١٥ يوما، وهكذا فإن أستاذي رغم أن ظروفه الصحية لن تمكنه من المواظبة التامة قد أخذ من مساحة الأيام المتاحة لي وحدي يوما كاملا.

أقول يبدو أنني شعرت بالغيرة، فإذا بي أندفع إلى حلقة أستاذي أشاغبه على نحو ما يشاغب الأستاذ زميله، لا على نحو ما يشاغب التلميذ أستاذه، وقد بدأت المشاغبة بأسخف ما فيها فقلت: لا تنسوا يا شباب أن رسم القلب قد ولي زمنه.

رد أستاذي بسرعة بديهة عالية وقال موجها الخطاب لتلاميذه: ولا تنسوا يا شباب أن الذي يقول هذا الكلام هو الذي يحتفظ بأفضل مجموعة من نوادر رسم القلب ويبخل على أستاذه بها.

قلت: ما بخلت على أستاذي، وإنما هو الذي يتمسك بالقديم.

قال أستاذي: يا شباب هذه هي حيلة العاجز.. لكنني أتمنى أن تكون مجموعتي كمجموعة محمد التي كونها في أمريكا، ولا يزال يبخل عليّ ببعض المكرّرات فيها.

قلت: هي ومحمد تحت أمرك.

قال أستاذي: لقد كنت تجود عليّ برسوم قصر العيني، ورسوم وحدة أستاذك شريف مختار، ولم تكن تبخل بأي منها، فلما ذهبت إلى أمريكا تعلمت البخل منهم.

قلت: الأمر ليس أمر كرم ولا أمر بخل، وإنما هو إحساس بالمرارة.

قال: أية مرارة تلك التي لا أعرفها؟

قلت: كنا ندخل الامتحانات وأجد أن الرسوم التي أمتحن عليها هي أصلا من مجموعتي، مع هذا لا أمنح درجتها وأمنح صفرًا ويمنح درجتها مَنْ لا يعرفون تشخيصها.

قال أستاذي: يا شباب أقول لكم ، إن عند أستاذكم هذا من هذه المفارقات كثيرا جدا، ولو أنكم عرفتم كل ما عاناه لتوقف بكم الزمن وأصابكم الإحباط، فاستمعوا إلى علمه، وأفيدوا من فهمه، لكن إياكم والنظر إلى تجربته معي على أنها شيء طبيعي.

قلت: هل تسمح لي بأن أجلس معكم مجلس التلميذ.

قال: بل مجلس الأستاذ المشارك.

قلت: لكني أريد مجلس التلميذ.

قال أستاذي وهو يضحك: اللّهم سترك.. فإننا في طريقنا إلى أن نعاني من محمد مثلما عانى الجبائي من الأشعري.

قلت: هون عليك.

مضى أستاذي فوزع بعض التخطيطات ثم بدأ يستمع إلى إجابات طلابه عليها، وأنا أتلمظ كما يتلمظ محامي الخصم للهجوم على أية ثغرة في السياق، الذي يسير فيه الادعاء!! ولم يطل تلمظي إلا دقيقة واحدة، إذ بدأ أول واحد من الأطباء الشبان تشخيصه بأن قال: هذه انقباضة زائدة extrosystole، وعلق زميله قائلا بما يشبه الهمس:ضربة متنبذة ectopic .

قال أستاذي: هذا صواب وهذا صواب، الكلمتان مترادفتان تماماً.

قلت وأنا أصطنع مغاضبة أستاذي: وهذا هو الخطأ الذي لا يجوز اعتباره صوابا.

قال أستاذي مغاضبا بالفعل: وما هو الصواب؟

قلت: ليست كل انقباضة كاذبة متنبذة، وليست كل متنبذة قابضة.

دهش أستاذي وقال: فما الفارق؟

قلت (باللغة العربية قاصدا تصعيب المعني لأن فهمه بالإنجليزية أيسر بكثير على أستاذي وعليهم) : الزائدة غير المتنبذة هي الضربة الاتحادية، والمتنبذة غير الزائدة هي الضربة الموازية.

فكر أستاذي فيما قلت وقال: الموضوع يحتاج دراسة ولا يمكنني البت لتوي، وعقب بقوله: هل هذه القاعدة من تأليفك؟

قلت: لا.

قال: فمن أوردها؟

قلت: فريدمان مؤلف كتاب «رسم القلب الكهربائي» الذي تنشره دار نشر ماكجروهيل.

قال: عندك نسخة من الكتاب؟

قلت: نعم نسخة أصلية.

قال: هل تطلعني عليها؟

قلت: أفعل إن شاء الله.

انتبه أستاذي إلى تلاميذه وبدأ يسائلهم، وكانوا مجموعة من أفضل المجموعات التي درست للدكتوراه في قسمنا، ورأيت أن ما فعلته في ذلك اليوم لا يحتمل زيادة فانصرفت.

****

بعد أسبوع أطلعت أستاذي وهو جالس في حلقته على الكتاب فتعجب من أنه عاش كل هذه السنوات ولم تمر عليه هذه القاعدة ولم يمر عليه هذا الكتاب.

قال أستاذي لتلاميذه: هل صدقتم الآن أن شيخكم هذا شيء آخر غيرنا جميعاً.

قلت: العفو.

قال أستاذي: لكنه لا يستعصي عليّ، ولا يعصيني.

قلت: هو ذاك، ثم أخرجت من حقيبتي صورة رسم قلب منشورة في أحد الكتب وعرضتها على أستاذي في حضور مجموعة تلاميذه، وسألته الرأي فيها، التفت أستاذي إلى تلاميذه وقال: إن محمدا يمتحنه، لكنه لا يمانع مادام سيستفيد علما جديدا، وأخذ يدقق في الرسم لأكثر من عشر دقائق ثم قال لي: يبدو لي من هذا الرسم أن لهذا المريض أذينين أيمنين اثنين وأذينين أيسرين اثنين لا أذينا واحدا في كل ناحية.

في فرحة شديدة رددت على أستاذي بقولي: هو كذلك.

قال أستاذي: وهل سُجلت حالة بهذه الطريقة؟

قلت: إنها هي حالة جراحية.

قال: لا أفهم ما تعنيه.

قلت: هذه صورة مريض زرع له قلب فخيط القلب الجديد على طرف الأذين القديم،

فلهذا يظهر أذينان في القلب.

قال أستاذي: وهل هذه من فريدمان أيضا.

قلت: لا.. لكنها من كتاب أقدم منه، وأكبر حجما.

قال: أعرفه، هل عندك صورة منه أم نسخة أصلية أيضا؟

قلت: لا إنما هي صورة من صورة زميل لنا هنا.

قال: أخشي على هؤلاء من أمثالكما.

قلت: ما أريد إلا الإصلاح ما استطعت.

ضحك أستاذي وقال: إني أستطيع أن آتى بكثير من هذه الرسومات الملغزة لكنني كما تري أؤثر أن أستخدم رسوما مرت علينا بالفعل.

قلت: وعندي من هذه كثير.

قال: أعلم.. لكني لا أريد لك أن تظن أن في مثل هذا التحدي فائدة لك أو للعلم.

قلت: لست أقصد شيئا من هذا كله.. إنما أنا أقصد التبسيط الشديد كعادتي فإذا عرضت مجموعة كبيرة من تشخيص واحد فإنما أفعل ذلك كي أكرس في الأذهان صورة هذا التشخيص.

قال أستاذي: هذا أسلوب مكلف.

قلت: لكنه مضمون النجاح.

قال: لكنه لا يليق بالمستوي العقلي الذي وصل إليه هؤلاء.

قلت: أنا مختلف مع الذين يقولون بأن المستوى العقلي المتقدم لا يتطلب من المدرس تبسيطا.

قال: لكني أنا أعتقد في هذا.

بعد أن انتهت حلقة أستاذي بعث إليَّ يسألني :هل يمكن لنا أن ننصرف معًا ، قلت نعم وسآتي إليه في دقائق.

وفي طريقنا إلى عيادته أخذنا نتناقش مرة أخرى في جدوى أسلوبي في تعليم الطب.

قال أستاذي: لقد قلت لي ذات مرة إنك ستظل تتمسك بهذا الأسلوب في تعليم الطب في الدراسات العليا، وأنا لازلت أرى أن هذا تزيد منك .

قلت: أعرف .

قال: ولهذا فأنت تحول العلم الطبي إلى شيء آخر ربما أنه أصعب وأنت تقصد التسهيل.

قلت: إنما هي قواعد علمية تجعل الطب (في أذهان أساتذة المستقبل هؤلاء ) جزءا من العلم عن حق .

وبدأت أحدث أستاذي عن قاعدة بسيطة في اضطراب نظم القلب، فإذا به يقول دون تفكير بخطئها، فأطلب إليه أن يصبر حتى نتأملها معا فإذا هو يقرني عليها ويشد على يدي مهنئًا ثم يقول: هات ما عندك في الميكانيكا.

قلت: ليست ميكانيكا تماما لكنها تشريح تموضعي.

قال: وما هذا التعبير الجديد؟

قلت: إنه...

قال: فهمت، فهات ما عندك.

قلت: لا يستقيم الأمر بلا ورق وقلم.

قال: تفضل، فذكرت له القاعدة.

قال: أولم يسبقك إليها أحد؟

قلت: مبلغ علمي أن أحدا لم يسبقني إليها، لكن الفكرة فيها واضحة لا تستحق أن تنسب إليّ أو إلى غيري.

قال: هذا ليس من شأنك.

قلت: أعلم.

قال: هل يعلم أساتذة الطب في الغرب أن طريقتك الأزهرية كفيلة بتغيير طرقهم في التعليم الطبي؟

قلت: يعلمون.

قال: ولماذا لا يأخذون بها؟

قلت: لأنهم أخذوا بها من قبل فأوقفت تفكيرهم.

قال: أمرك عجيب، هل يليق أن تقول هذا عن إنجازك؟

قلت: نعم.

قال: فاشرح لي هذا اللغز.

قلت: إن صياغة العلم على هذا النحو المنطقي الشديد الوضوح كفيلة بأن تقف بالعلم عند مراحل معينة.

قال في سرعة وقد لمعت عيناه ببريق ذكاء: قد فهمت، واستدرك بسرعة يقول: لكنها في حالتك تمكنك من كل علم.

قلت: أعلم هذا، لكن بعض ما ينطبق عليّ لا يمكن أن ينطبق على الباقين.

قال: وما معنى هذا؟

قلت: إن الطرق التربوية لا تبنى على افتراض وجود قدرات خاصة، لكنها تبنى على القدرات الموجودة على وجه العموم.

قال: دعني من الغرور المستتر الذي أصبحت تجيده.

قلت: أوافق على الفكرة لكنني أقترح تغيير اللفظ لأنه غير دقيق.

قال: أولهذا الغرور اسم غير الغرور؟

قلت: إنه ليس غرورا، لكنه عُجب.

قال: لك حق : قد فهمتُ وجزاك الله عني خير الجزاء.

واستأنف أستاذي يقول: ولكن قل لي: هل التفكير الرياضي الذي تستخدمه يمثل أمرا خاصا بك؟

قلت: أظنه كذلك.

قال: وكيف جاءك الظن؟

قلت: لأني لا أجد المتلقين يتقبلونه بالسرعة التي يتقبلون بها العلم نفسه.

قال: وأنت قلت لي فيما مضى إنك تتقبله بأبسط مما تتقبل العلم نفسه، هل قلت هذا بالفعل أم أن الذاكرة خانتني؟

قلت: بل قلته بصياغة أقل بلاغة من هذه الصياغة التي شرفتني بها.

قال: لكن المعنى لك.

قلت: نعم وأحب أن أضيف إلى هذا أني أتقبل العلم التطبيقي بأبطأ مما أتقبل العلم النظري.

قال: أوتحس هذا من نفسك؟

قلت: نعم.

قال: فما شأنك إذًا بالعلم التطبيقي وممارسته بينما أنت موفق إلى هذا الحد في كل ما هو تجريدي؟

قلت: خوفا من الجنون.

قال: وما ذاك؟

قلت: قال العلماء الأقدمون : إن ثلاثة تورث الجنون.

قال أستاذي: ولم يدرك هؤلاء بالطبع أن عشرتك نفسها تورث الجنون؟

قلت: ينتظرون إذًا «حاشيتك» على متنهم القديم.

قال أستاذي: كفاك هذا.. وانطلق.

قلت: أوقد أعفيتني من أن أذكر لك بعض القواعد الأخرى؟

قال: بالطبع لا.

قلت: فما جدوى كل هذه المناقشة؟

قال: من باب التعذيب.

قلت: لكني أظن أن سيادتك قد استمتعت؟

قال: بل تعذبت.

قلت: فالحمد لله.

قال: ألم أقل لك إن عشرتك تورث الجنون!

****

بعد أيام قليلة وجدت أستاذي مصممًا على أن يفتح الموضوع للمناقشة مرة أخرى.

وبدأ حديثه بأن قال : يا محمد .. أكرر لك رأيي: ليس طلاب الدراسات العليا بحاجة إلى تبسيطاتك ولا تشبيهاتك ، فأنا أعتقد كما قلت لك : إن مستواهم العقلي ينبغي أن يحميهم من هذا التبسيط ،وهذا التقعيد، وهذا التعقيد.

قلت: وأنا أرى أن من واجب الأستاذ الجوهري أن يصل بالمعلومة الجوهرية إلى أن تكون عقيدة لتلميذه.

قال: شطط.

قلت: لكن النجاح فيه لا يعدله نجاح.

قال: لسنا ملقنين.

قلت: لكننا نحرز أقصى نجاح إذا كانت نتيجة علمنا وعملنا أن يؤمن الناس بما نقول.

قال: إنما هو علم لا دين.

قلت: إني لا أرى فرقاً.

قال: هل اشتغلت بالتبشير في إحدى مراحل حياتك.

قلت: بل فيها كلها.

قال: لا أعرف ذلك.

قلت: لكنه تبشير بالعلم.

قال: أي علم؟

قلت: ما تركت شيئا إلا درّسته.

قال: هل في علوم التربية شيء من هذا القبيل؟

قلت: لا أظن، لكني أعرف أن المهارة الحقيقية تتسع لكل موضوع ، ولا تتوقف على تخصص، والتدريس في جوهره مهارة ، وكذلك الأستاذية.

قال: في ذاكرتي قصة مبالغ فيها بعض الشيء لا تدل إلا على الجنون !! حكيت لي ولم أصدقها !! عن سلوك غريب لك في دورة إعداد المعلم الجامعي ، فقد رووا لي أيامها أنك درست في كل يوم من أيام الدورة تخصصا مختلفا، حتى إنك درست تخصصات موجودة في عشر كليات ، مع أن الطبيعي و المفروض أن تتوزع الأيام على المدرسين من تخصصات مختلفة ، وفهمت من القصة الوهمية أنك كنت حريصا على إبهار زملائك (الذين سيصيرون أساتذة في الكليات الأخرى كأنهم لم يبهروا بك منذ زمن ) لكن بعضهم قال : إنك أرحت زملاءك من دروس التجربة العلمية هذه ، وتوليت الأمر بالنيابة عنهم جميعا في كل الأيام، إلا أني لا زلت أستبعد أن تكون الواقعة فد حدثت على نحو ما رويت !! وإلا فانك تكون قد بلغت من الاختلال العقلي ما يستدعي الحرص في التعامل معك ، ولا أظن ان هذا حدث لأنها كلية أولا وأخيرا .

قلت : لماذا ؟

قال: هل يسمح بهذا الشطط الواضح العميد، والوكيل، والمشرف على البرنامج؟

قلت : وماذا تفعل في الحظ إذا أتى ؟

قال: أين الحظ في هذا الروتين ؟

قلت: كان المسؤولون عن هذه الكلية وعن هذه الدورة يبشرون بي قبل أن أذهب

لهذه الدورة.

قال: وما الذي عرفهم بك.

قلت : هو الحظ المركب .

- كان العميد مدرسا لي في المرحلة الثانوية في مدرسة المتفوقين قبل حصوله على الدكتوراة وانتقاله للجامعة مدرسا ..
- وكان الوكيل المشرف على البرنامج يعد رسالته للدكتوراه عن التفوق فكنت أنا نفسي بشحمي ولحمي واحدًا من عينة البحث، أي ممن يوصفون بأنهم فئران التجارب التي أجرى عليها تجاربه..
- وكان الوكيل الثاني قبل أن يدخل الجامعة سكرتيرا لمعهد لدراسة اللغة الألمانية حين كنت طالبا في ذلك المعهد.

قال أستاذي: وهكذا فإنك اعتبرت كلية التربية ودورة إعداد المعلم وكأنها من الإبعاديات و العزب الكثيرة التي تمتلكها بحكم إعجاب الناس بك.

قلت: هي ملكيات مؤقتة ليس لها حيازة، ولا منها انتفاع.

قال: بل هي مؤقتة ريثما تمتلك عزبًا أخرى أوسع مساحة، وأحلى ثمارًا.

انصرفنا من هذا الحديث إلى مناقشة منطقية حول طبيعة دور الأستاذ.

قال أستاذي: هل تعتقد أن الأستاذ الحق يجب أن يكون هو نفسه أنجح الممارسين للمهنة؟

قلت: أبدأ في الرد على سؤالك بالجواب النقيض، وهو قول ينسب إلى برنارد شو الذي قال ما معناه إن : «مَنْ يعرف كيف يقوم بعمل ما يقوم به بالفعل، ومَنْ لا يعرف يقوم بتدريسه»، أما أنا فأقول إنه ليس للمرء أن يزعم أنه يقوم بعمله على الوجه الأكمل إذا لم يفلح في تدريسه.

قال: إلي هذا الحد يظلم هذا الرجل العظيم المدرسين من أمثالك؟

قلت: لكن الطرف الآخر الذي هو أنا يقول إن المرء لا يصبح أستاذًا حقا إلا إذا جمع التفوق في المهنة، والتفوق في التدريس، وأنه بدون التفوق في المهنة لا يمكن أن يكون هناك تفوق في التدريس، وبدون التفوق في التدريس لا يكتمل التفوق في المهنة.

قال: إني أري منذ زمن أنك تؤمن بهذا وتحاول غرسه في كل مَنْ تعرف.

قلت: لكني لم أفلح ولن أفلح.

قال: فلم التصميم؟

قلت: يروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل: «**لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير من حُمر النَّعَم**».

قال: صدقت.. من هذه الزاوية فقد هُدى بك أكثر من واحد.

قلت: هل أحسست ببشارات؟

قال: وأخفيت عنك ما أحسست به.. هل تعرف ذلك الطبيب الذي كنت ولازلت أعتبره عبقري الأكاديمية الطبية، وأعجب من أنه ليس عضوا في هيئة التدريس في قصر العيني أو عين شمس، ما سألته مرة عمن أفهمه قاعدة من القواعد إلا وأرجع الفضل لك، حتى أصبحت لا أسأله مَنْ، وإنما أصبحت أسأله أهو فلان؟

قلت: هذا قبس منك، لولا تشجيعك لي وإنابتك لي في التدريس لهؤلاء الزملاء ما حدث هذا.

قال ضاحكا: لو أني كنت أعرف أنك ستأخذ الـ Show مني ما كنت فعلت.

قلت: بل كنت تفعل ومع هذا فإني أعيده إليك دون أن أشترط مقابلا.

قال: لو لم أبعثك هناك لبعثك غيري إلى مكان آخر أكثر عائدا وفائدة.

قلت: هل أنا مبعوث مبعوث؟

قال: مبعوث فحسب، لكنك لست رحمة للعالمين.

قلت: ومَنْ يدري؟

قال: صدقت.

****

# الفصل الثالث والعشرون
## حُسن المحاضرة

في منتصف الثمانينيات ذهبت مع أستاذي لندوة رمضانية في نقابة الأطباء الرئيسية بالقاهرة، خصصت للحديث عن «الصوم» من وجهة النظر الطبية، تلطف أستاذي فطلب إلى قبل الندوة بيوم أن أعقب على حديثه بما قد ينساه من تعليق على أي عنصر من عناصر الموضوع.

كان في الندوة متحدثون آخرون، دعاني أستاذي إلى الحديث فتحدثت بما فتح الله به عليّ من عناصر كنت فيما يبدو قد جهزتها جيدًا بطريقة غير واعية، كأنما كنت أتوقع أن يطلب مني الحديث فأعددت نفسي له.

في طريق عودتنا أثنى أستاذي على أدائي بشدة وسألني: هل كنت قد أعددت هذا الحديث؟

لا أعرف ما الذي دفعني إلى أن أقول لأستاذي: نعم.. كنت أعددت نفسي للحديث، لأني فهمت من وضعك لي في البرنامج أنك ربما تعتذر وأنني سأحل محلك.

صمت أستاذي بعض الوقت، ولست أدري فيم كان يفكر، ثم بدأ معي حوارًا صعباً.

قال أستاذي: كيف تسنى لك أن تضمن كل هذه العناصر في حديث قصير؟

قلت: مهارة العرض، أو قل إنها جزء مما سماه العرب السابقون: حُسن المحاضرة.

قال: لا أسأل عن شيء أعرفه، وإنما أسأل عن الوسيلة التي أدمجت بها الحديث كله في هذه النقاط؟

قلت: اعتمدت على فكرة السؤال المحدد.. فقد تصورت الحاضرين في حاجة إلى إجابات واضحة عن أسئلة محددة، فتصورت الأسئلة ووضعت لها الإجابات الكفيلة بأن يخرجوا من الندوة بفائدة يبنون عليها أحكامهم وسلوكهم وتصرفاتهم!

قال: لكن إجاباتك كانت أوضح من المطلوب بحيث يمكن التعقيب على كل جزئية منها باستثناء أو تحفظ.

قلت: هذا هو جوهر المطلوب في ندوة عامة.

قال: لا تنس أننا كنا في نقابة الأطباء.. بل كنا في مقرها الرئيسي في دار الحكمة.

قلت: ولا يمكن أن تكون دار الحكمة مكانا للحديث عن الاستثناءات والحواشي

والمسائل الخلافية.

قال: لكنك كنت تجيب عن أسئلة شائكة.

قلت: هذه هي أكثر الأسئلة التي توقعت أن الحاضرين يشكون في إجاباتها، ولهذا حضروا الندوة ليسمعوا إجاباتها.

قال: لكنك كنت تستخدم كثيرًا من المصطلحات الطبية في وسط إجاباتك.

قلت: لكن هذا الاستخدام كان يأتي تاليا للحكم العام، أو للإجابة الكلية على السؤال.

قال: وكنت تستخدم لفظ «تقريبا» في كل إجابة.

قلت: كان هذا اللفظ يغنيني عن الحديث المطول عن استثناءات تشتت أذهان السامعين.

قال: لكن مثل هذا اللفظ ربما يدل على أن حديثك بعيد عن العلم الذي لا يعرف إلا التحديد.

قلت: بل إن مثل هذه الألفاظ تدل بوضوح على التحديد.

قال: كيف يكون ذلك؟

قلت: لأنها تدل بوضوح على وجود استثناءات، وأن القاعدة ليست عامة، أو تدل على أن هذا الشرح تقريبي وليس هو الحالة بعينها.

قال: من العجيب أنك لم تنصح الحاضرين باستشارة الطبيب أبدا، إنما كنت تتحدث وكأنك أعطيتهم السلطة للبت في كل أمر، وللإجابة عن كل سؤال.

قلت: هذا في الظاهر.. لكن حديثي دون أحاديثكم جميعا كان الوحيد الكفيل بدفع هؤلاء إلى استشارة الأطباء.

قال: أفهم من هذا أن أحاديثنا كانت تدفعهم إلى الهروب من استشارة الأطباء.

قلت: لم أقل هذا، ولم أقصده.

قال: أعطيك الأمان فقل الحقيقة.

قلت: الحقيقة أن أحاديثكم كانت تدفع السامعين إلى البعد عن هذه الاستشارة.. لأنهم رأوها شيئا لا يأتي إلا بعد أسئلة مرهقة وإجابات مكلفة، ربما كان الصوم نفسه أيسر منها، فمَنْ هو ذلك المريض المصري الذي سيراقب مستوى السكر لمدة أسبوع قبل أن يصوم؟ ومَنْ هو ذلك المريض المصري الذي سيجري فحوص الكبد والكلي كلها

حتى يقرر الصوم؟ إنما هو يبني حكمه على الأمور من واقع ما يحسه في ضميره وما يحسمه ضميره له.

قال: ولهذا السبب فقد ركزت في حديثي أنه على قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**واستفت قلبك**».

قلت: كان هذا الاستشهاد هو أفضل ما في الندوة جميعا.

قال: لماذا لم تقل هذا منذ الصباح؟

قلت: لم تترك لي فرصة بأسئلتك المتلاحقة التي قطعت نفسي.

قال: كان في وسعك أن تأخذ الفرصة بنفسك، فتطلب مني تأجيل الإجابة حتي تقول شيئا مهما ثم تقول ما أردت من ثناء، وربما خفف عنك هذا صعوبة أسئلتي.

قلت: لقد كنت في شوق إلى الأسئلة وإجاباتها.

قال: أكنت تتوقعها؟

قلت: نعم.. كنت أعرف أن يوما ما سيأتي حاملًا معه رأيك في أدائي لمهنة التعليم.. وكنت أعرف أنك لا ترضى عن كثير من طريقتي.

قال: بل أنا راض.

قلت: رضاء الأستاذ ورضاء الأب، لا رضاء الرئيس.

قال: وما الفارق؟

قلت: رضاء الأستاذ فيه سعادة بالإبداع، على حين أن رضاء الرئيس يعلي من قيمة الإتباع.

قال: لكني لا أريد لأبنائي أن يكونوا نسخة واحدة.

قلت: لكن الأمور لا تحتمل أن تكون بينهم نسخة كثيرة التميز والاختلاف.

قال: يبدو أنك تعاني من أوهام ومن هلاوس.

قلت: الأيام بيننا، ولن تنجو طريقتي من اعتراضاتك يوما بعد يوم، بل إنك ربما تتبرأ منها ومن صاحبنا.

قال: لقد وصلت هلاوسك إلى الحد الذي ينبغي معه أن تستشير طبيبا نفسيا.

قلت: سأفعل إن شاء الله.

قال: حتى تفعل هل يمكنك أن تعيد إلقاء حديثك اليوم في ندوة في الزقازيق في

الأسبوع المقبل؟

قلت: بالطبع لا.. فإني لا أضمن له أن يصدر على نحو ما صدر اليوم.

قال باسما: هل يرفض الجنيّ الذي كان يلقنك (المخاوي لك) أن ينتقل معك إلى الزقازيق؟

قلت: إنما صدر حديثي بفضل الأدرينالين الذي يولد في موقف معين، ولا أظن الانفعال يقبل تكرار التمثيل.

قال: أعدك بأن أحضر معك الندوة مَنْ يستثيرونك من أمثال فلان (وذكر اسم مَنْ كان يعتبر أعدي أعدائي في ذلك الحين).

قلت: مثل هذا لا يستثيرني للكلام، وإنما يستثيرني للصمت.

قال: ألا تحب أن يراك وأنت في حالة تجل؟

قلت: بالطبع لا.

قال: ربما يخفف هذا من غلو عداوته لك.

قلت: إنما يؤجج هذه العداوة.

قال: وماذا يخففها؟

قلت: أن يراني معوقا.. مريضا.. مصابا.. أو مستحقا للشفقة أو الصدقة.

قال: أعوذ بالله منك ومنه.

قلت: ومن الشيطان الرجيم.

قال: وما ذنب الشيطان هنا؟

قلت: هو الذي يسول لنا العداوة.

قال: إن الشيطان مظلوم في حالتكما.. دعني منه ومنك، وخبرني من أين أتيت بهذه الثقة التي كنت تتكلم بها؟

قلت: فهمت من حديث الأطباء الألمان الذين قدر لي أن أعمل مهم أن طبيب القلب لابد أن يتصرف في معاملة لجمهوره على أنه «نصف إله» إن لم يكن على أنه «شبه إله» والعياذ بالله، وهذا تعبير عن أنه لابد أن يكون حاسما.. قاطعا في أحكامه.. واضحا في رؤيته.. واثقا من فكرته.

قال: وإلا..

قلت: وإلا فقدوا الثقة به، وفقد تأثيره عليهم.

قال أستاذي: هل ذكرت قصة الإله ونصف الإله لزملائك في قسمنا؟

قلت: لا أكف عن ذكرها.

قال: وماذا يفعل زملاؤك في التخصصات الأخرى حين يرونك تزعم هذه القصة لزملائك في قسمك؟

قلت: حسبت حساب هذا، وجعلت لكل منهم ما يرضيه.

قال: فماذا ينبغي أن يكون الجراح في مظهره؟

قلت: لابد أن يظهر أنه جني.

قال: وطبيب الأطفال؟

قلت: لابد أن يظهر أنه ملاك.

قال: وطبيب العيون؟

قلت: لابد أن يتقمص شخصية المسيح عيسى ابن مريم.

قال: وجراح العظام؟

قلت: لابد أن يظهر أنه ساحر.

قال: وجراح التجميل؟

قلت: لابد أن يثبت أنه نحات.

قال: كل هذه التأليفات الجوادية في حاجة إلى مراجعة ومناقشة، لكني أعود إلى حديث عن ضرورة إيمان أستاذ القلب بما يقول.. وأسألك: هل أحسست أن هذا الأسلوب أسلوب ناجح؟

قلت: ربما أنك أنت أكثر الناس تطبيقا له.

قال: لكن الألمان لم يعلموني!!

قلت: لو رأوك في عيادتك لقالوا : إنهم قد تعلموا هذا الأسلوب منك.

قال: فمن علمني؟

قلت: الفطرة، والبديهة، والرغبة في النجاح.

قال: بل قل: الخبرة، والتجربة، وكراهية الفشل.

قلت: ربما أوافقك.. لكن هذه التي ذكرتها لا تكفل التعلم وإنما تساعد عليه.

قال: ما هذا يا محمد.. هل الخبرة لا تكفل التعلم؟

قلت: وحدها لا تكفل.

قال: والتجربة ؟

قلت: وحدها لا تكفل.

قال: ماذا ينقص الخبرة كي تعلمنا؟ وماذا ينقص التجربة كي تعلمنا؟

قلت: الرؤية.

قال: فماذا تفعل إذا قلت لك إنني تعلمت من الخبرة ومن التجربة من دون أن تكون لي رؤية في الموضوع.

قلت: إنكار الرؤية ليس كافيا لنفيها.

قال: ومَنْ أدراك بوجودها؟

قلت: إنكارك.

قال: فماذا كان مطلوبا مني كي أثبت نفيها؟

قلت: كان المطلوب سؤالا عن الروية.. أو تعريفا لها على غير حقيقتها.

قال: بقدر ما أنت ممتع في مناقشتك فإن المناقشة نفسها تبدو أحيانًا ثقيلة الدم.. أجبني ولا تهرب مني.. هل كنت تحفظ الأسئلة والإجابات التي تتحدث بها؟

قلت: كانت الأسئلة أبسط من أن تحتاج إلى الحفظ.. ألـم تكن من نوعية: ما الفائدة؟ ما الضرر؟ ما الشك؟ متى يصوم؟ متى لا يصوم؟

قال: هذا صحيح.. فما بال الأجوبة.

قلت: كانت هي الأخرى أبسط من أن تحتاج إلى حفظ.

قال: لكن الإجابات كانت دقيقة جدا بقدر ما كانت عامة.

قلت: هل تصون السر؟

قال: أحاول.

قلت: بعضها كان إعادة إنتاج لحديثك أنت.

قال: لم أفهم ذلك.. لقد كنت أظن أنك تجاملني بالاستشهاد من حديثي.

قلت: وهذا وارد أيضا.. بل هو مطلوب.

قال: لكنك عهدت إلى أسئلة جوهرية في منتهى العمومية وجعلتها محورا لحديثك.

قلت: كان الإمام الشافعي يقول عن أبي حنيفة ما معناه: إنه أوتي ثلاثة أرباع العلم على أقل تقدير.. وكان يشرح هذا فيقول: إن السؤال نصف العلم.. وقد طرح أبو حنيفة كل الأسئلة وأجاب عنها، فلو افترضنا حتى أنه أخطأ في بعض إجاباته فإن له أجرا عن اجتهاده.. وهكذا يكون قد حاز ثلاثة أرباح العلم على الأقل.

قال: لا أظن أن الإمام الشافعي كان مغرمًا بحساباتك هذه.

قلت: فإن وجدت القصة في كتب التراث؟

قال: لاشك أنه كان في التراثيين مَنْ هم مثلك.

قلت: فدعنا نقترب بعض الشيء من زماننا، هل تعتقد في ابن سينا؟

قال: هذا رجل قريب منا في مهنته، وليس له قدسية الشافعي.

قلت: فإنه كان يقول إن السؤال وحده هو سر علمه الغزير، الذي لم يصل إليه أحد قبله ولا بعده، وكان يقول: ما تركت شيئا إلا سألت عنه.

قال: فما رأيك أنني لا أسأل إلا بعد معرفة.

قلت: كان سان أوغسطين يقول: «إني أعرف إذا لم أسأل فإذا ما سئلت لم أعرف».

قال: ما أصدق هذا الرجل في التعبير عن حالي.

قلت: لكن هذا هو حال النقاد.

قال: وهذه مهنة لا أعرفها ولا أخالني أعرفها.

قلت: وما رأيك إذا قلت لك إنك لا تمارس الآن غيرها.

قال: عمن تتحدث؟

قلت: عن أستاذي الذي يقيمنا في أدائنا ويقيمنا ويقيم غيرنا في الامتحانات ولجان الترقيات.

قال: وما علاقة هذا بالنقد؟

قلت: هذا هو النقد بعينه.

قال: فأين الأثر الذي تركه الناقد؟

قلت: ضيعه الناقد نفسه.

قال: وكيف يحفظه؟

قلت: لو أنك حولت آراءك فينا وفي علمنا وفي نصوصنا المكتوبة إلى نص مكتوب

لأصبحت لك آثارك.

قال: أفهم من هذا أنني ناقد شفوي فحسب؟

قلت: ربما أخفي من هذا.

قال: وماذا تسميه؟

قلت: ناقد قلبي.

قال: وما معني هذا؟؟

قلت: معني هذا أنك تنقد الأداء أو النص في ذهنك، وتكون حكمك في هذا الذهن دون أن تصرح به حتى على مستوى الشفاه.

قال: فهمت.. لكن أيعد هذا نقدا؟

قلت: على مستوى العمل فهو نقد، أما على مستوى الأثر فلا.

قال: لا تستحِ وقل: فلا شيء.

قلت: وهذا هو ما التفت إليه فلاسفة العرب حين قالوا: إن التدوين هو ثلث العلم.

قال: والثلثان ؟

قلت: الحفظ، ولا أعلم.

قال: إذا كان الأمر كذلك فإن زميلك فلان قد حاز ثلث العلم، وذكر أستاذي اسم زميل كان لا ينظر إليه إلا على أنه جاهل، وكان هو أيضا لا يجيب أستاذي إلا بقوله: لا أعلم.

قلت: إنما هذا هو الثلث الثالث لا الأول.. فلا جدوى من الاقتصار على قوله «لا أعلم» حتى لو قالها ثلاث مرات.. إنما هي صفر لا تتأتى قيمته إلا من وضعه على اليمين لا على اليسار.

قال: نجوت.. وما أدري ما ينجيك مني.

قلت: بل قل ولا أدري مَنْ ينجيك مني.

قال: مَنْ؟

قلت: الله.

قال: وأنا أدعوه أن ينجيني أنا منك.

قلت: وأنا أؤمن على دعائك.

قال: إقرارا بالجرم.

قلت: بل طمعًا في الثواب.

سرح أستاذي بنظره في الفضاء ثم عاد وقال: أيمكن حقا يا محمد في نظامنا الجامعي الحالي أن يتفرغ أستاذ مثلي لينقد أعمالكم وأداءكم؟ هل هذا وارد؟

قلت: إنما يجعل الأمر بعيدًا عن الوجود أن أعمالنا نفسها لا تستحق النقد.

قال: الآن فهمت.

قلت: لكن بعض أعمالنا يستحق.

قال: هذا أفهمه من قبل شرحك.

قلت: إنما أحمي أعمالي.

ضحك وقال: ومعني هذا أنه يمكن أن يكون هناك ناقد طبي، وناقد تاريخي، وناقد لكل ميدان من ميادين المعرفة.

قلت: نعم.. ومع هذا فإن المبدأ واحد.. والنقد نقد.

قال: وأين تضع النقد من الأستاذية؟

قلت: هو بعضها.

قال: أهي في نظرك أشمل من هذه المكانة العليا التي ترفع وتخفض؟

قلت: إن الأستاذية الحقة تشمل التشريع والتقييم معا، كما أنها تشمل التعليم والتأليف أيضا.

قال: لكن الأستاذ الناقد أعلى الجميع.

قلت: ليس شرطا.

قال: لم؟

قلت: قد يجعل نقده إبداعا، وقد يحيله تأليفا بأسلوب جديد، فيتجاوز ما أتاحه له النقد من رؤية، ومن قدرة، ومن حكم

قال: إذا كنت واعيا لكل هذا.. فما الذي يجعلك تبقي بالجلوس بيننا ولا تبحث لنفسك عن الآفاق التي تظهر موهبتك؟

قلت: إنما أقول لنفسي: دعها تصقل بعيدا عن الأضواء.

قال: لكن الأضواء أدعي لصقلها.

قلت: أضواء عصرنا كفيلة بالتدمير لا بالصقل.

قال: ألا تحن لمجد أكبر وأنت ترفل في ثياب من المجد؟

قلت: نعم إني أحن إلى أن تكون ثياب المجد مني أنا نفسي، لا أن تكون ثيابا فحسب.

قال: ومعنى هذا أن طموحك يفوق تصوري، وأنا الذي ظننتك راضيا.

قلت: ربما أكون كذلك.

قال: فلم قلت ما قلت؟

قلت: خشيت أن تقنعني بالمضي بعيدا عنك.

قال: أأنت سعيد معي؟ وفي قسمنا؟

قلت: هل تراني قادرا على تركه.

قال: نعم.. أعرف من ذلك ما لا تعرف أنني أعرفه.

قلت: فما يبقيني؟

قال: تقصد أن تقول إنك باق عن إرادة.

قلت: وعن رغبة.. وعن أمل.. وعن حب.

قال: ما لي أراك اليوم بدأت متحديا وانتهيت مستسلما.

قلت: ربما أني انتهيت أكثر تحديا .

قال: وربما أنك لن تواصل التحدي إلى نهايته.

قلت: لم.

قال: لأن الدنيا أسهل عليك منه.. وأقرب إليك منه.

قلت: لا أريدها.

قال: هي تريدك.

قلت: ومَنْ ينتصر؟

قال: لا أعرف أحدا ينتصر على الدنيا.

قلت: أهي بشارة؟

قال: وكفارة.

قلت: لا تذهب الكفارة إلا إلى المساكين.. فهل نحشر في زمرة المساكين؟

قال: اطمئن ... ودعك من كل قسوتي فإني أعرف أنك منهم.

## الفصل الرابع والعشرون
## الإمبراطوريات والعقاقير

كان أستاذي قادرا بحنكته التي على كونها على مدى السنوات التي مارس فيها الطب على أن يدرك سر النجاح أو الفشل في كل عقار جديد تعرضه علينا شركات الأدوية، ولا أنكر أني مدين له بهذه القدرة التي يبدي زملائي إعجابهم بها، وكان صاحب الفضل في تعليمنا جوهر معادلة قياس التناسب بين التكلفة والفعالية حتى من قبل أن تحفل بها كتب الطب وبحوث علماء الخارج، وكان أشد ما يكون وعيا للآثار الجانبية لبعض العقاقير، وكان على سبيل المثال يقول عن أحد هذه العيوب الشائعة في أدوية الضغط: وهل هذا قليل؟

كان يلفت نظرنا بمنتهى الذكاء والتواضع إلى أن المريض على استعداد لأن يتحمل الآثار القاتلة لمرض الضغط وأنه يفضل هذه الآثار على أن يرى نفسه وقد سلبه الدواء بعض قدراته الحيوية، أو أهم هذه القدرات(!!) ولهذا السبب كان أستاذنا ميالا إلى الأدوية التي لا تتعارض مع هذه القدرات الحيوية، وذلك على الرغم من أن طغيان شركات الأدوية ومؤتمراتها وسفرياتها قد أوشكت أن تنسينا (نحن وأطباء العالم المتقدم) بعض عقاقير الضغط الممتازة التي أثبتت نجاحا بأقل الأضرار الجانبية.. ومن حسن حظي أن مداومة أستاذي على هذه العقاقير القديمة قد مثلت تشجيعا لي على الاستمرار عليها، وذلك على الرغم من تجاهل بعض زملائي لها.

وفي هذا الصدد أذكر واقعة طريفة ، إذ وجدت أحد الأصدقاء ممن يتولون منصبًا من المناصب الكبيرة يعاني من أعراض هي أعراض الضغط، ولم يكن هو الذي طلب رأيي ولا زارني، وإنما كنت أنا الذي أزوره زيارة مجاملة في مكتبه، فلما وجدت هذه الأعراض مسيطرة عليه استأذنته في أن أسأله عن صحته وعن أمراضه فقال: لا مانع.

فقلت متلطفاً: هل قست ضغط دمك عن قريب؟

قال: يا سيدي أنا مريض بالضغط منذ عشر سنوات.

فقلت مقاطعا: إني أعرف أنك جاد وغير مهمل وبالتالي فإني لا أتصور أنك أهملت الدواء لكني أتخيلك قد غيرت الدواء.

قال: هو ذاك.

قلت: كأني بك تحولت إلى العقار الفلاني (وذكرت اسم عقار من عقارات «المودة» في

الألفية الثالثة).

قال: هو ذاك.

قلت: وكأني بك كنت على العقار الفلاني؟

قال: هو ذاك أيضا.

قلت: يا سيدي مَنْ يعالجك؟

فذكر لي اسم أستاذ من أساتذة الباطنة المشاهير.

قلت: هل تأذن يا سيدي في أن تمر عليه وأن تخبره بحوارنا الذي دار اليوم وأن تطلب منه أن يعيدك إلى الدواء القديم الذي لا يدرك قيمته إلا أمثال طبيبك العظيم.

قال صديقي في حماس: سأفعل هذا بعد ساعتين فقط.

لم أكد أترك صديقي الكبير إلا وطلبت أستاذي في عيادته في الزقازيق وبعد السؤال عن الحال والصحة قلت: يا سيدي.. هل تذكر العقار الفلاني؟

رد أستاذي باستنكار: أذكره.. أذكره.. أذكره.. لقد كتبته لتوي رغم أنف أصدقائك من مندوبي شركات الأدوية وزملائك من الأساتذة الجدد.. ثم أردف: هل اكتشفت له أثرا جانبيا خطيرا فأردت تنبيهي؟

قلت: لا يا سيدي.

قال: فما الأمر؟ أتريد أن تتأكد من أخلاقي ومن وفائي للعقاقير الممتازة؟

قلت: يا سيدي هذا معروف بدون أسئلة.

قال: أفعدل أستاذ كبير عنه واعتبره من أدوية الجاهلية؟

قلت: هو ذاك يا سيدي.

قال: فاستعن عليه بالله.

قلت: قد فعلت.

قال: هل تسمح فتخبرني باسمه أم أن هذا مما لا يليق؟

قلت: إنه فلان.

قال: لا تيأس سيستجيب لرجائك أو لنصحك وسيدعو لك.

قلت: فإن لم يفعل؟

قال: لا تظن المرضي جهلة، إن المرضى في الغالب أذكى من أطبائهم.

قلت: إني مازلت مؤمنا بما علمتنيه من هذا المعنى.

****

في بدايات الثمانينيات ظهر عقار جديد مضاد لحالات اضطراب نظم القلب، وكانت الشركة التي أنتجته في منتهى الأمانة حيث عرضت أربعة آثار جانبية له محذرة وناصحة بوقف الدواء متى ظهرت أية واحدة من هذه الآثار، والحقيقة أنني تحمست لهذا الدواء لكثير من الأسباب العلمية والطبية، التي كانت تجعله قادرا على علاج طيف واسع من هذه الحالات، ثم جاءت التجربة فشجعتني أكثر على الإكثار من استخدام هذا العقار، بل إحلاله مكان عقاقير أخرى كنا نستخدمها في نفس الأغراض، لكني لا أستطيع الآن أن أنكر أنه كان هناك سبب دفين لإعجابي بهذا العقار، ولست أدري هل يوجد مثل هذا السبب عند كثيرين من الأطباء أم لا. ذلك أنني كنت أشعر بنوع من الأبوة لهذا العقار، فالعقارات السابقة كانت موجودة من قبل أن أصبح طبيبا يصف العقاقير في روشتته الطبية، ويقررها ويشهد أنها صالحة.. أما هذا العقار فقد كان أول عقار يصادفني وأنا صاحب قرار.. وهكذا كنت أقدم من هذا العقار بينما كانت العقاقير الأخرى أقدم مني.. ولهذا كنت منحازا عاما بعد عام إلى هذا العقار.

ومرت الأعوام وإذا بالعقار الذي تحمست له وزكيته عند أستاذي وزملائي يحتل مرتبة سامقة بين إخوته من العقاقير، وكان الزمن قد أحدث بفعله المعهود، «في أذهان زملائي» انفصالا عن هذا الارتباط الشرطي القديم الذي كان قائمًا بيني وبين هذا العقار، وأصبح العقار مستقلًا بذاته دون أن يصفه زملائي بأنه معشوقي أو اكتشافي، لكني مع هذا ظللت، على الأقل فيما بيني وبين نفسي، أحتفظ بأبوتي المزعومة لهذا العقار دون إعلان لا كثير ولا قليل، وإذا بأستاذي في أحد اجتماعاتنا العلمية يسألني على مسمع من زملائي جميعا: هل كنت يا محمد تدرك مستقبل عقارك؟ أم كنت تراهن؟

قلت: بل كنت أدرك.

قال: إني متعجب يا محمد من ذكاء هذا العقار، ولكني متعجب أكثر من بقاء عقاقير أخرى إلى جواره لم تمت مع أنه بخواصه وقدراته مؤهل للقضاء عليها في السوق، يا ترى ما السبب؟

قلت (وقد كان الزمان وحده قد كبر بقدري إلى درجة الأستاذية): هل تمتحنني أم تسألني؟

قال: وهل يجوز لي الآن أن أمتحنك؟

قلت: يجوز بالطبع، فهو شرف.

قال: أما أنا فلا أجيز لنفسي ما تجيزه أنت بأدبك.

قلت بحب ودلال: في هذه شك.

قال: لكن الدنيا كلها لا تصدق شكك، وكيف تصدقه وقد نلت أكثر من مرة ما لم ينله أي من أساتذتك جميعاً؟

قلت: شكرا لك... ولكن هل توافق الدنيا على ما أنالتنيه؟

قال: بل أزيد.. ولو كنت أنا الدنيا لأنلتك أكثر من هذا، وأنت تعرف طبيعة شعوري، ولكن أرجوك أن تعود إلى سؤالي.

قلت: إن السبب سياسي.

قال: إني أحدثك عن العقار لا عن أدبك.

قلت: وأنا كذلك أحدثك عن العقار.

قال: وما دخل السياسة فيه؟

قلت: يا سيدي إن العقار فرنسي، اكتشفه الفرنسيون، وأنتجه الفرنسيون ولا يزالون ينتجونه.

أسرع أستاذي فقال: فهمت، وفتح أكثر زملائنا أفواههم دهشة، فقال أستاذي: هل تأذن لي يا محمد أن أبني على كلامك وأشرح لزملائك؟

قلت: أنا الكسبان.

قال: يا أولاد!! هذا السبب وحده كان كافيا للقضاء على العقار لو لم تكن له المزايا التي تعرفونها، فنحن في عصر أمريكي.

هنا ثار أحد زملائي من الأساتذة الأقدمين وقال: مَنْ أدراك يا محمد أنه فرنسي الاكتشاف والإنتاج؟

وهنا سارع أستاذي في حنو ورشاقة بوضع يده على فمي حتى لا أتحدث وقال موجها حديثه لزميلي الكبير: أنا أجيبك يا فلان.

سكت زميلنا على مضض فقال له أستاذي: هل تسمح لي؟

قال زميلنا: العفو.

قال أستاذي: هل تسمح لي أو لا تسمح؟

كان هذا التشويق دافعا لأن ينتبه الجميع بكل أعصابهم إلى ما سيقوله أستاذي، وإذا به يقول: إن الدليل على صحة قول محمد هو ما نلمسه جميعا من عبقرية العقار.. عبقرية لا تناسبها معدلات انتشاره في السوق الطبية.. وقد كنت حائرا حتى هداني محمد إلى السبب، وإني أعتقد أن هذا هو السبب الوحيد الذي يفسر الظلم الذي يتعرض له أي عقار.. أن يكون العقار غير متمتع بالجنسية الأمريكية.

قال أستاذ آخر: وهل كنت سيادتك تظن أن هذا العقار أمريكي؟

قال أستاذي وهو يبتسم: لقد أصبحت أؤمن أن كل عقار أمريكي حتى يثبت العكس، قالها بالإنجليزية ، وانفجرنا في الضحك.

كان أستاذي قد رفع يده من على فمي فاستأذنته في أن أتحدث، قال أستاذي بحب: هل كان بوسعك أن تدافع عن قضيتك بمثل ما دافعت؟

قلت: لا.

قال: فما الداعي إلى حديثك؟

قلت: أتذكر حضرتك أني حدثتك ،عن قرب ،عن أن غروري هيأ لي في حديث إذاعي أن أقول إنني تجاوزت دور التحكيم والقضاء إلى دور التشريع.

قال: أذكر مع إعجابي بحديثك إعجابا بشيء آخر وهو اعترافك بالغرور، وقد كنتُ أنا الذي رويت لك أنني استمعت إليك في ذلك الحديث الممتع.

قلت: هل لي أن أمارس هذا التجاوز الآن؟

قال: وماذا أنت قائل؟

قلت: إن العلاج الوحيد إذا كان وحيدا حقا فإنه يصبح من أقوى وسائل التشخيص.

قال: هذه طلاسم أو هكذا تبدو فاضرب لنا مثلا من دون أن تدخلنا في مقدمات منطقية.

قلت: إن الكولشيسين علاج فعال للآلام المفصلية الناشئة عن النقرس.

قال: معلوم، قلت: فإذا تحيرنا في سبب ألم مفصلي غير واضح السبب وأعطيناه الكولشيسين فزال الألم فإن السبب في الألم يكون هو النقرس.

قال أستاذي: ها أنت قد وظفت قدراتك في التعبير عن شيء منطقي وكلاسيكي نعرفه جميعا ونسميه بالاختيار العلاجي، لكنك بصياغتك الفنية جعلت منه نظرية ومبدأ وفهما وأسلوبا، ولا ندري ماذا تفعل به بعد ذلك.

قلت: ليس الأمر هكذا تماماً، وإن كان لا يخلو من بعض الصواب، وعلى كل حال فإن كان الأمر كذلك فهل لي أن أسألكم رأيكم فيما فعلت؟

قال أستاذي: رأيي.. أو رأينا أبديناه.. ولا تستكثر من المديح حتى لا ينقلب الأمر عليك.

قلت: ما الهجاء بعد المديح إلا مديح مضاعف أو مديح مستتر.

ابتسم أستاذي بإعجاب وقال: عجيب أمر تشريعك.

قلت: أليس صوابا؟

قال: بلي.

ثم استطرد فقال: هل تأذن لي في أن أشرح قاعدة وأنسبها إلى نفسي مما اكتشفته في شأن العقاقير.

قلت: هذا حقك، وأنا كاتبك فأذن لي أن أكتبها.

قال: ماذا تقول إذًا في المعنى الذي ناقشناه الآن؟

قلت: إذا وجدت عقارا ناجحا لا يتناسب شيوعه مع نجاحه فاعلم أنه ليس بأمريكي الهوى!!

قال: جميل.. ولكني أخشى هذا التعميم القاطع.

قلت: بوسعنا أن نأخذ بالمحترزات.

قال: وما هذا التعبير أو ما هذا المصطلح؟

قلت: هو تعبير أصولي يدل على حالات الاستثناء التي لابد أن ينص عليها النص التشريعي.

قال: وماذا تفعل؟

قلت: أُضمن معنى وجود عقاقير أمريكية منافسة في جملة الشرط.

قال: فافعل.

قلت: بل الأولى بمكتشف القاعدة أن يفعل.

قال: يا سيدي قل: إذا وجدت عقارا ناجحا لا يتناسب مع شيوعه مع نجاحات عقاقير أمريكية أخرى فاعلم أنه ليس أمريكي الهوى.

قلت: الصيغة قلقة بعض الشيء.

قال: وهذه مهمتك.. لكن قل لي: هل يستعين المشرعون باللغويين؟

قلت: يحدث أحيانا.

قال: والأحيان الأخرى.

قلت: إن المرء لا يصل إلى مرتبة المشرع إلا إذا تمكن من اللغة بحيث لا يحتاج إلى مساعدة من لغوي وهو يشرع.

قال: أفحمتني.

قلت: أستغفر الله.

قال: بل هذه هي الحقيقة!! وما كنت قادرًا على أن أصل إليها في هذه السهولة.

ثم استأنف أستاذي الحديث فسألني: أيدرك المشرعون هذه الحقيقة من تلقاء أنفسهم؟

قلت: فإن لم يدركوها من تلقاء أنفسهم دلهم التشريع عليها.

قال: كيف؟

قلت: كما حدث مع حضرتك الآن، فما كان منه إلا أن مال على وجهي وقبلني..

وما كان مني إلا أن ملت على يمناه فقبلتها.

و الزملاء الذين حضروا اللقاء يبتسمون ويدعون لكلينا بالصحة.

***

# الفصل الخامس والعشرون
## طول العمر

حدث ذات مرة أن استوقفنا أحد طلاب الدراسات العليا وقال لأستاذي: إنه انتهي من جزء من رسالة للماجستير ويريد أن يعرضه عليه، فوعده أستاذي أن يخصص له بعض الوقت في الغد، انصرف الطالب والتفت الأستاذ إليّ يقول: هل تعرف مَنْ هذا؟ وأين يعمل؟ يبدو لي يا محمد أنني أصبحت كالملك الذي كثر أولاده حتى أصبح يسألهم في أخريات حياته عن أسماء أمهاتهم، لأنه لم يعد قادرًا على أن يعرف أسماءهم.

قلت: لكنك لم تصنع صنيع الملك، فما كان أحرى بك أن تسأله عن المشرف المساعد لك في الإشراف، وتتلقي ما تريده من معلومات عن الطالب من هذا المشرف المساعد.

قال: كدت أفعل ذلك.. لكني تذكرت أن المشرفين المساعدين لا يقومون مقام الأمهات، ولا مقام المرضعات، ولا مقام الحاضنات.. هل عندك يقين يا محمد أن كان هذا الملك قد ضرب الرقم الرئيسي في عدد الأولاد؟

قلت: كان ألكسندر دوماس الأب يفخر بأن له أكثر من خمسمائة ابن وابنة، لكنه كان بمثابة النموذج، الذي يصلح للدعاة حين يريد أحدهم تصوير الفقر الذي ينتظر الرجل الذي يكثر من العلاقات النسائية غير الشرعية، فقد كسب ما لم يكسبه غيره من الأدباء، ومع هذا مات فقيرا مهملا مدينا.

قال: ألهذا الحد كان له أولاد؟ هل تعتقد أنه مصيب فيما ذكر؟

قلت: إذا جاز في الرجال أن يكون الرقم قابلا للزيادة إلى ما لا نهاية فما بالك بالملكة فيكتوريا؟

قال: هل كانت هذه الملكة العظيمة التي كان عهدها هو أعظم عهود الإمبراطورية البريطانية كثيرة الأولاد؟

قلت: نعم .. بالنسبة لملكة مثلها.. فقد كان لها تسعة أولاد.

قال: تسعة!!

قلت: مع أن زوجها وهو ابن عمها قد توفي بعد سنوات قليلة (نسبياً) من حكمها، لقد ولدت عام ١٨١٩، واعتلت العرش في ١٨٣٧، وتزوجت في ١٨٤٠، وتوفي زوجها في ١٨٦١، وقد أنجبا تسعة أولاد منهم خليفتها وهو ابنها إدوار السابع، وفيكتوريا الابنة والدة قيصر ألمانيا غليوم الثاني الذي أطاح ببسمارك .

وقد ظلت فكتوريا في الحكم حتى توفيت عن اثنين وثمانين عامًا سنة ١٩٠١ فمشى في جنازتها كثير من أحفادها كانوا من أفراد الأسر الملكية المختلفة في أوروبا.

قال أستاذي: أظن أن ملكا في العصر الحديث لم يصل إلى مثل مدتها.

قلت: لا ... إنها رغم سنواتها الأربعة والستين في الحكم لم تصل إلى الرقم القياسي الذي حققه الملك لويس الرابع عشر الذي سبقها بما يقرب من قرنين، والذي هو صاحب العبارة الشهيرة: «أنا الدولة»، كما أنه صاحب اللقب العظيم «الملك الشمس»، وقد عاش سبعًا وسبعين سنة، فقد ولد عام ١٦٣٨ وعاش حتى ١٧١٥.

قال أستاذي: إذًا فهو لم يصل إلى عمر فيكتوريا فكيف فاقها في مدة الملك؟

قلت: تولى الملك وهو في الرابعة من عمره، ومن العجيب والمدهش أنه قبل أن يموت كان قد فقد ابنه البكر، وحفيده البكر، وابن حفيده أيضا.

قال أستاذي: هذا تاريخ أكبر منا ومن قدرتنا على التصور، فلنعد إلى حياتنا الطبيعية.

ثم قال: لكن قل أليس من الواجب يا محمد أن يتوقف الإنسان عن الإشراف على مثل هذه الرسائل عند سن معينة أو عند أقدمية معينة، كأن يتوقف بعد عشر سنوات من الأستاذية، إني أتذكر أنك اقترحت شيئا من هذا القبيل.

قلت: لكن خلفك قاوم ويقاوم.

قال: وما فائدته إذا كنت أنا نفسي أول مَنْ ستطبق عليه القاعدة، سأتخلى عن عدد من الرسائل ربما يأخذ بعضها.

قلت: أنت تعرف شرهه ونهمه وشراهته! وهو مصمم على أن يعصر كل شيء ويضعه في جوفه، وهو لا ينظر إلى الرسائل إلا على أنها مورد مضمون دون أن يفعل شيئا، وقد كدس لنفسه الرسائل حتى استطاع أن يجتاز رقمك الذي أشرفت عليه في خمسة وعشرين عاما في سنتين فقط.

قال: نسأل الله العفو والعافية، لكن قل لي بصراحة: إني أعرف أنك لا تحب لوقتك أن يتآكل في عمل مظهري، ومع هذا شهدتك تناقشه وكأنك تريد أن تنال كامل حظك من الإشراف بعيدًا عما يأكله منك، وهو يناور ويساوم، ولست أفهم لماذا تتظاهر بهذا الطلب مع أن في وسعك أن تفعل ما تشاء، كما أني لست أفهم سبب حرصه على مناورتك.

قلت: الأمران أبسط من البساطة، لكني لا أستطيع التصريح بهما وإلا أفسدت خطتي.

قال: يتعهد أستاذك لك بأن يكون صندوقًا مغلقاً.

قلت: والمفتاح مع محمد؟

قال: والمفتاح مع محمد.

قلت: هو لا يريد لمستوى الرسائل أن يرتفع، ولا يريد أن يظهر أن هناك مَنْ يهتم بالرسائل، إنما هو ينظر إلى مسألة إشرافي على أنها ستكشف استهتاره في الإشراف، واستهتاره في المناقشة. لقد بلغ به الأمر في بعض الأحيان أن يقول وهو على المنصة ممثلا للمشرفين ورئيس للجنة الحكم على الرسالة : إنه لم ير الطالب ولا الرسالة إلا منذ نصف ساعة.

قال: نسأل الله العافية..

لقد حضرت معه هذين الشهرين رسالتين كانتا من أسوأ ما يمكن وكان هو المشرف الرئيسي، والمشرفون الباقون مسافرين في الخارج، أي أنه صاحب المسؤولية الأولى والأخيرة، وقد عجبت من هجومه الشديد على الرسالة الأولى، ومن إطرائه الشديد للرسالة الثانية، على الرغم من أن الرسالتين لا تحويان رسالة.

قلت: المسألة تمويلية بحتة، فالثاني أنفق على الرسالة ، والأول لم يعرف سر الصنعة.

قال: نسأل الله العافية.. لكن تعبيره عن نفسه في أثناء المناقشة كان لا يليق بمشرف، ولا بأستاذ، ولا برئيس قسم.

قلت: أتعرف فلانا؟ وذكرت اسم أستاذ في كلية طب عين شمس.. ما رأيك في أخلاقه؟ قال: إنه رجل مهذب، راقي اللفظ، هادئ الطبع.

قلت: هل تعرف ماذا قال لصاحبنا علنا وهما على المنصة، لقد قال له: يبدو أنك يا فلان تصفحت الرسالة وأنت في دورة المياه هذا الصباح، وكنت تعاني من آلام في بطنك ومن سوء النظافة في دورة المياه.

قال: أحدث هذا؟!

قلت: حدث في رسالة زميلنا النائب فلان!!

قال: نسأل الله العفو والعافية.

***

## الفصل السادس والعشرون
## بين العقل والنخوة

دارت بيني وبين أستاذي مناقشات عاصفة حول ممارسة الطب في مصر، كنت مؤمنا بمثاليات يستحيل تطبيقها، وكان هو يأخذ بيدي نحو الواقع حتى جعلني من أكثر الناس فهمًا له.

كان أستاذي واعيا كل الوعي للواجبات النقابية وبروتوكولات الطب، علمني وعلم زملائي منذ مرحلة مبكرة أنه لا يليق بأي طبيب أن يترك تحديد الأتعاب للمريض وإنما عليه إذا أدى عملا أن يطلب أجره الذي حدده لنفسه، ولا يترك لأهل المريض تحديد هذه الأتعاب لأنه لا يتسول أجره.

كذلك علمني أستاذي أن تمغات المهن الطبية على الروشتة والشهادات الطبية أمر أساسي، لأن مواردها تكون معاشات زملائنا الكبار أو الراحلين، فهي حقوق شيوخ وحقوق يتامى، والحقيقة أنه لم يكن يسمح لنفسه بكتابة روشتة على ورقة غير متموغة، وكان يقول: هذه حقوق أبناء الأطباء الفقراء، يقصد معاشات النقابة التي تصرف للأبناء اليتامى.

ومن الغريب أن أستاذ الجراحة رئيس الجامعة كان واعيا لالتزام ثلاثة أساتذة بهذا الخلق هم: نائبه أستاذ المسالك الكبير، والعميد أستاذ الأذن والأنف والحنجرة، والوكيل أستاذي أستاذ القلب، وكان هؤلاء الثلاثة من جيله مع اختلاف أقدمياتهم في الأستاذية، وكنا نتحدث في هذا المعنى ذات مرة فإذا بأستاذي الرئيس في ضيق من نفسه من أنه في بعض الأحيان يطبع روشتاته على ورق عادي فلا يكون ملتزما بهذا الخلق النقابي، وإذا به يثني على التزام هؤلاء الثلاثة دون الباقين ويقول لي: إن هذا يدل على طباع حسنة، وقد نقلت هذا الانطباع لأستاذي فإذا به يقول: إن الغفلة تنسينا جميعا مبادئ بسيطة لو تمسكنا بها لأرحنا واسترحنا، ولكنا في غنى عن مشكلات كثيرة تواجه المجتمع الطبي والمجتمع كله.

ولم يكن أستاذي يوافق على سياسات خفض أسعار كشف الأطباء على الرغم من أنه كان رئيسا لمجلس إدارة الجمعية الطبية الإسلامية في الزقازيق ثم أصبح رئيسا لها على مستوى مصر كلها ، وعندما توفي كان يشغل هذا المنصب، وكان يرى أن التخفيض يجب أن يظل في حدود لا يتعداها وكان يتعجب حين يسمع أن مستوصفا يتيح الكشف عند

أستاذ جامعة أو استشاري قديم بجنيه مثلا، لكنه في المقابل كان يحب للنظم التأمينية أن تمضي في طريقها فإذا طلب أحد من أعضاء هيئة التدريس منه رأيه الطبي قال له: إن لك تأمينا، وإن التأمين له استمارة فأحضرها لأن هذا حقك..

وكان يقول لي ونحن في العيادة: إنما أفعل هذا لنعلم هؤلاء الناس النظام لأننا لو لم نعلمهم لظلوا بدون تعلم، وهم سوف يعلمون الحقيقة أو هم سيسألون عنها ويعرفون أن العائد عليّ من هذا العمل ثابت ، ولن يزيد باستماراتهم هذه.. ولهذا فلا حرج من أن نطلب إليهم الالتزام بالنظام، وكنت أضيف إلى كلامه أن هذا التوثيق للحالات التأمينية في مجتمع كمجتمع الجامعة مهم جدًا من أجل تكوين قواعد البيانات ودراسات المسح الطبي والإحصاءات وحالات المرض المهني.. إلخ.

عندئذ قال أستاذي في تواضع محبب: إنه يود لو استطاع أن يتعلم أو حتى يلم بكل هذه الجوانب الفكرية التي تندفع من لساني أوتوماتيا.

قلت: ما هذا إلا قبس منك.

قال: دعنا من المجاملات وقل لي كيف جاء هذا القبس؟

قلت: إن هذا حصيلة دراسة وتأمل.

قال: الله يسامحك.. وهل تظن أنني جاهل حتى أعتقد أن ما تقوله مرادفات لفظية من التي يتفوه بها أعضاء الاتحاد الاشتراكي.

قلت: لقد انتهى الاتحاد الاشتراكي منذ زمن بعيد.

قال: نعم ولكني لا أريد أن أخطئ في أحزابنا الحالية.

ابتسمت وصمت.

قال أستاذي: ولا في جماعاتنا حتى لا تزعل يا سيدي.

****

مع كل هذا التعقل في الحكم على الأمور فإن طاقات الغضب الحاد كانت تستبد بأستاذي في بعض الأحيان فإذا به حريص على أن يهدم النظام على رؤوس من يستظلون بظله، ذهبت برفقته ذات صباح إلى امتحان البكالوريوس ولم يكن أحد من قسمنا قد انتدب للمشاركة في امتحانات الباطنة سوانا نحن الاثنين، وقد آثرت أن أبقي معه في لجنة ثابتة مع أن المنطق والعرف أن تتكون كل لجنة ثنائية من تخصصين مختلفين، لكن أساتذة الباطنة العامة رأوا أن يكرمونا بأن نكون معًا في لجنة واحدة، ومع أن مزاج أستاذي في

ذلك اليوم كان طبيعيًا إلا أني فوجئت به يقسو على أول طالب يمتحنه والطالب يجيب حتى أتى إلى موضع اتضح فيه أن الطالب غير مستوعب تمامًا لما يتحدث به وإنما هو قد تمكن من حفظ الإجابات النموذجية على نحو ما يلقنها المرضى المزمنون خبراء الامتحانات (كما نسميهم) للطلاب، ولكنني فوجئت بأستاذي مصممًا على أن يمنح هذا الطالب الدرجة النهائية، وإذا به يبرر لي موقفه هذا بأن في هذه الدفعة طالبا سيحصل على النهائيات جميعا، وأن هذا الطالب (المفبرك) أفضل من الطالب الذي سيلقى الإكرام الشديد، على أية حال، ولهذا فإنه لابد أن يفعل ما فعل.

دهشت دهشة شديدة وحاولت أن أبدأ حوارًا حول بقية الطلبة الذين لن ينالوا الدرجة النهائية، وبذلك يسبقهم هذا الطالب الذي لا يتميز عنهم إلا بمصادفة وقوعه في لجنة أستاذي في ذلك الصباح، قال أستاذي: يبدو لي أنك على صواب، ولهذا فلن أكمل الامتحان لا اليوم ولا الغد ولا بعد الغد، وبوسعك أن تكمل أنت المشاركة في امتحانات هذا الدور !!

عند ذاك بدأت حوارًا مهذبًا جديدًا أنه بهذا قد ينتقص عمدًا من عدد القضاة العادلين وبالتالي من فرص العدل، وأن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فإذا به يطلب مني ألا أسترسل وأن نخرج من لجنة الامتحان قبل أن يدخلوا علينا طالبا آخر، فقلت: لقد هموا بهذا، قال: تصرف ولكني لن أكمل، فقلت: فلنتظاهر أننا سننصرف إلى الحجرة الأخرى لحديث مع رئيس القسم ثم نخرج من هناك.. قال: وهو كذلك.

وانصرفت مع أستاذي حتى أوصلته إلى مسكنه فإذا به يطلب مني أن أعود لأستأنف العمل في الامتحانات لأنه لا يليق بنا أن نغيب ونحن نمثل قسمًا بأكمله.

ولما أحسّ أستاذي باندهاشي وترددي طلب مني في لغة حانية أن أفعل ما يطلبه ثم نتناقش فيها بعد.

****

وكانت لأستاذي وجهات نظر تبدو متعارضة في الأسلوب الأمثل (لإخراج) نتيجة الامتحان، إن صحّ هذا التعبير، كان ينصحنا إذا قررنا رسوب أحد الطلاب ألا نجعل درجته صفرا أو عشرة في المائة، ولكن أن نجعلها ثلاثين في المائة أو خمسة وثلاثين، وكان يقول: بهذا تبدون رحماء وموضوعيين وتحققون ما استقر عليه ضميركم في الوقت ذاته.

وعلى الرغم من أنه كان يكرر هذه النصيحة، فإنه كان في بعض الأحيان يحرص حرصًا شديدًا على أن يسجل درجة الصفر لبعض الطلاب، وكان يبدو وقد اعتراه

الاستفزاز إلى أقصى حد ويقول: لو كان الأمر بيدي لأعطيتهم درجات بالسالب، وكان عند تصحيح تخطيطات القلب يكتب الدرجة بالأرقام ٦ أو ٧ أو ٥ إلا الصفر، فإنه كان يحرص على كتابته بالحروف الكاملة ZERO، وكان ينبهنا إلى أهمية هذا (السلوك) لأن الصفر يسهل تحويره إلى درجة أخرى.

وذات مرة فوجئت وأنا عضو في إحدى لجان الشفوي بأستاذي وقد استدعاني إليه، ولم أكن في ذلك اليوم في لجنته نفسها، وكان هذا على خلاف العادة المتبعة بأن نكون معا.

وسألني: هل امتحنت هذا الطالب اليوم؟

قلت: نعم.

قال (وهو في مواجهة الطالب): وما تقديرك؟

قلت: إنه بالحروف وليس بالأرقام، وهنا تهلل وجه أستاذي إشراقًا لعبقرية الإجابة على حد تعبيره، وقد فهم للتو أنني أقصد أن تقديري له هو «الزيرو»، ولكني سألته: لماذا السؤال؟

وكان الطالب لا يزال ماثلًا أمامنا بجسده وحواسه لكنه لا يفهم شيئا من مدلول الحوار، فقال أستاذي: كنت أريد أن أستأنس برأيك لأن شريكي في اللجنة، وكان أستاذا آخر أصغر منه وأكبر مني، يريد أن يظلم هذا الطالب، فتهلل وجه الطالب الممتحن وظن أننا سوف نعطيه أكثر مما يقدره الأستاذ الممتحن الآخر، بينما كان أستاذي لا يستخدم فعل الظلم إلا للحديث عن إعطاء الطالب (أو الإنسان) أكثر من حقه، وطبعًا لم يكن الطالب يعرف هذه الأسرار، فسألت أستاذي: ولماذا ترك زميلنا اللجنة؟

فأجاب أستاذي في بديهة حاضرة: لأنه يريد أن يستعين عليّ برئيس القسم.

قلت: وما ذنب الطالب في هذا الانتظار؟

قال: كأنك تريد أن تفرج عنه.

قلت: بلي... نفرج عنه بضمان محل إقامته.

قال: أوتظن ذلك كافيا؟

قلت: نعم فقد حرر لنا كراسة بإجاباته النظرية وهي بمثابة ضمان تحريري.

قال أستاذي (وقد فهم ما أعنيه مما علمنيه هو من قبل من ظاهر الكلام وباطنه): فتح الله عليك!

وانطلق زميلنا الطبيب .الذي هو الطالب الممتحن .وقد ظن نفسه قد أفرج عنه

بالنجاح والدرجات العليا وهو لا يدري حقيقة أن الضمان التحريري الذي أشرت إليه هو أن ورقته في التحريري قد جعلته بالفعل راسبا تحريريا، بما يعني أنه لا لزوم للامتحان الشفوي من الأساس، فهو راسب راسب، وهذا هو معنى ضمان محل إقامته بيننا إلى الدور التالي.

عاد الأستاذ الأوسط وسأل أستاذي: هل لا تزال الدرجة كما هي؟ فأجابه أستاذي: بل تضاعفت ثلاث مرات! وكانت هذه لقطة أخرى من لقطات بديهته الحاضرة القادرة على الوصول إلى موطن العبرة والسخرية، ففي واقع الأمر كان أستاذي قد اتفق مع الأستاذ الأوسط على أن الطالب لا يستحق أكثر من الصفر، وجرى هذا الاتفاق بينه وبين الأستاذ الآخر على نحو ما دار حواره معي، أي دون أن يفهم الطالب..

وهكذا تضاعف الصفر ثلاث مرات على يد ثلاثة أساتذة! وما هو تضاعف ولا حتى بزيادة.

وهكذا كان كل ما يحكيه أمام الطالب عن اختلافه مع الأستاذ الآخر صورة من صور الحديث ذي المستويات المتعددة، وكانت هذه القدرة إحدى مكونات روح المرح عنده.

وقد كان أستاذي يتمتع بمستوى رائع من هذه القدرة، وعلى الحديث ذي المستويات المتعددة، وهي قدرة من قدرات التأليف المسرحي المتميز، وقد كان أستاذي كفيلًا به لو أنه فرط في بعض مكاسبه من بعض مرضاه، لكن الزمن قد مضى به من دون أن يعرف أن هذا ممكن من أجل السعادة.

****

## الفصل السابع والعشرون
## بعد النظر

لاشك أن أستاذي كان صاحب فضل كبير جدا عليّ، سواء في هذا فضله فيما يعتبره الناس دفعًا إلى الأمام، وفضله الذي يعتبره الناس تعويقًا أو تثبيطًا أو فرملة، بل ربما يعتبره بعضهم دفعا إلى الخلف، ومع أني بالطبع بشر يتأمل ويحزن فإنني في مرحلة مبكرة كنت أعتقد أن قراءاتي وثقافتي تكفل لي أن أنظر إلى الأمور في جانبها الحسن المختفي أو المتخفي تحت الواجهة التي تظهر الجانب السيئ أو الصعب من الأمور.

ولا يعني هذا أني لم أكن أتألم أو أني كنت سعيدًا بالمواقف السلبية أو المعادية، لكني كنت على إيمان ويقين من أن هذه المواقف السيئة لن تنتهي على نحو ما تنبئ به وإنما ستكون النهاية مفرحة.

وفي بعض اللحظات ادلهمت الأمور بيني وبين أستاذي، وبلغت الخلافات منتهاها، واستمر التصعيد والتعقيد، واصطاد كل مَنْ أحب الصيد في الماء العكر، وكل مَنْ وجد نفسه مضطرًا إلى الصيد في الماء العكر، وكل مَنْ وجد نفسه مستفيدا إذا اصطاد في الماء العكر، ثم كل مَنْ وجد أنه لابد أن يصيد في الماء العكر وإلا أصبح متخلفًا عن الركب. لكنني مع كل هذا ظللت بفضل الله متمتعًا بالإيمان الكامل واليقين الكامل من أني سأنتصر، وإن انتصاري سيكون مؤزراً، وهو ما حدث بالفعل، وهو ما لم يكن ليحدث أيضًا بدون خوض المعركة!

ومع أني أؤمن بأن هذا الإيمان كان نعمة إلهية لا تقدر بثمن، فإنني بفضل الغرور البشري وحظي منه كثير وبالغ السوء، كنت أتصور الأمر في إطار ثقافي، وكنت أعتقد في أن ثقافة أستاذي، بما فيها من أخلاق وتدين، هي التي ستتيح لي الظفر والانتصار، لأن هذه هي طبيعة الأشياء وطبيعة مثل هذه الصراعات الإدارية المرتبطة بالمكانة العلمية.

وهكذا فإني في أقسي لحظات الخلاف ظللت محتفظا بشعرة معاوية على الرغم من أن الطرف الآخر كان يندفع إلى قطعها، لكن الله وفقني دائمًا كي أصلها على الدوام، وقد كنت أصلها من حيث قطعها الأستاذ نفسه في بعض الأحيان، وكنت في أحيان أخري أصلها من حيث لم يكن هو يتوقع أني أصلها من هنا.

****

كان حوار السياسة بيني وبين أستاذي ممتدا ومتجددا، وذلك بحكم اهتماماتنا

السياسية المشتركة على الرغم من اختلاف مذهبنا السياسي المعلن، وكان الحوار يخرج من الحاضر ليمتد إلى الماضي، أي يخرج من السياسة إلى التاريخ، وحدث ذات يوم أن تناولنا التاريخ العسكري لحروبنا وكان يوافقني على معظم آرائي في هذا الموضوع، ويراجعني في بعضها حتى يصل إلى الاقتناع، أو إلى ما يشبه الاقتناع.

وامتد الحوار في يوم من الأيام إلى عبد المنعم رياض وشخصيته واستشهاده، وإذا بأستاذي يقول: إنه كان يقرأ في كتابي عن ذلك الشهيد منذ أيام.

قلت: إنه مختصر جدا.

قال: ولكنه مفيد لأنه يرسم البانوراما كلها في صفحات متوالية.

قلت: هل أحببت هذا الكتاب؟

قال: نعم.

قلت: لماذا؟

قال: أحببت المؤلف وأحببت المؤلف عنه.

قلت: هذا فقط؟

قال: ماذا تريد؟ قلت: يبدو أن حضرتك نسيت أن الإهداء المكتوب بحروف المطبعة مهدي إلى شخصكم الكريم.

التفت إليّ أستاذي وقال: منذ متى؟

قلت: منذ نشر الكتاب قبل عشر سنوات.

قال: تقصد أن الطبعة الأولى مهداة إليّ؟

قلت: نعم وبوسعك أن تتأكد من هذا عند عودتك إلى البيت.

قال: ولكن كيف فاتني أن أعرف؟ هل عرفت ونسيت؟ أم أنك كعادتك فيما يخصك من فضل لم تخبرني من الأساس؟

قلت: الحقيقة أن الحياء غلبني أن أذكر لك أمر الإهداء عند صدور الكتاب فاكتفيت بأن تركت لك النسختين في البيت وكلي يقين أنك ستراه.

قال: ولم أشكرك كما هي عادتي معك في كثير مما يستحق الشكر والامتنان؟

قلت: قدرت مشاغلك.

قال: إذًا فإني لم أشكرك بعد.

قلت: أنت لم تر الإهداء فعلام تشكرني.

قال: أنت مخطئ.

قلت: في حق مَنْ؟

قال: في حقي أنا قبل حق نفسك.

قلت: لماذا؟

قال: تجعلني أجهل فضلا هو لي، وتخفي عليّ شيئا ينبغي أن أفخر به ولو بيني وبين نفسي.

قلت: على كل حال هذا ما حدث.

قال: يبدو أن لك حقوقا كثيرة عندي أضعتها بحيائك.

قلت: وهناك أيضًا حقوق أخرى ضاعت بالجرأة.

قال بسرعة وكأنه الأسد المهاجم للفريسة الغافلة: أتريد أن تقول إنني لا ينفع معي هذا ولا ذاك؟ لا ينفع معي الحياء، ولا تنفع معي الجرأة؟

قلت: دائما ما تجعلني متهما بما لم أقصد.

قال: فماذا تقصد إذاً؟

قلت: إن التوفيق إذا حالف الإنسان جعل الصدف التعيسة مصدر سعادة، والصدف السعيدة مصدر سعادتين.

قال: وهل خانك التوفيق؟

قلت: لا أدري.

قال: فمن يدري إذا لم تكن أنت تدري؟!

قلت: إني في الغالب أتصرف بما هو أقرب إلى العفوية فإذا فكرت واخترت من بين بدائل متعددة آثرت العفوية أيضاً، ولهذا لم أعد أشغل بالي بردود الأفعال.

قال: لا تبتئس فكل ظلم إلى زوال، ولكل سوء فهم نهاية.

قلت: لم أعد أدري.. إلا أني أحمد الله على أني راض تمامًا عن تصرفاتي وأفعالي مهما كان حظى من الدنيا، ومن الناس.

قال: أوتظن هذا قليلًا ؟

قال: أو هذا قليل؟

قلت: يبدو قليلا في نظر المجتمع الذي نعيشه.

قال: وما الكثير في نظرهم؟

قلت: الكثير كثير جدا.

قال: إنها هو غثاء.

قلت: ولكن لهم فيه الغناء والرضاء.

قال: وربما كان لهم فيه الفناء.

قلت: لا أتمنى لهم الفناء.

قال: بل هم يتمنونه لأنفسهم ولكنهم لا يدرون.

وأخذ أستاذي عند هذا الحد يقص عليّ صورا من صور الرعونة التي يتصرف بها بعض مَنْ يعرفهم من الجيل الحاضر.

قلت: أتظن هذا الجيل الحاضر قد أصيب بالانحلال؟

قال: لست أدري ، ولكني لم أعد أستبعد الكوارث، ويبدو أن الله قد أنذرنا بزلزال ١٩٩٢م ولكننا لم نتعظ بعد.

قلت: إن الإيقاظ بحاجة إلى وعي، والوعي بحاجة إلى عقول، والعقول غائبة.

قال: بل مغيبة.

قلت: بل غائبة.

قال: ماذا تقصد؟

قلت: أقصد أن أبرئ السلطة.

قال: ولم أقصد أن أتهمها وإنما قصدت أن المغيب مغيب بفعل فاعل وليس بإرادته.. أي أنه ليس « فاعلا» كما يقول علم النحو، وهذا ما قصدته فحسب.

قلت: يبدو أن النحو الذي تعلمته سيادتكم في حاجة إلى تغيير على نحو ما تغير علم الفسيولوجي.

قال: كيف ذلك يا محمد؟

قلت: ألست أنت الذي علمتنا أن الانبساط عمل إيجابي، وأن الزفير عمل إيجابي، وذلك عكس ما كان علم الفسيولوجي القديم يقول بأن هذه أعمال سلبية تنشأ كنتيجة للعمل الإيجابي الذي هو الانقباض (في حالة الانبساط) والشهيق (في حالة الزفير)؟

قال: بلي.

قلت: فأفعال النوم والغيب والكسل تدل على أفعال إيجابية أيضا، حتى وإن كانت سلبية النتيجة.

قال: معنى هذا أن الناس غيبت وعيها بإرادتها؟

قلت: نعم.

قال: ولماذا؟

قلت: لأنهم لا يطيقون أن يروا ما يكشف لهم الوعي عنه.

قال:أهذا حل؟

قلت: بالنسبة لهم هو حل، ولكنه يخلق لهم مشكلة أكبر.

قال: فما الحل إذاً؟

قلت: إعادة الوعي.

قال: ولماذا تقول «إعادة» ولا تقول «عودة»؟ هل تحافظ لتوفيق الحكيم على مصطلح «عودة الوعي»؟

قلت: ربما، لكن الأمر أصبح يحتاج جهدا جبارا.

قال: أوهذا ممكن؟

قلت: ممكن ولكنه غير مطلوب.

قال: وإذًا لا فائدة.

قلت: لا فائدة متوقعة، ولكن هناك فائدة محتملة.

قال: وما الفرق؟

قلت: هو فرق كمي كالفرق بين ليت ولعل، وكالفرق بين التمني والترجي، وهكذا الفرق بين المتوقع والمحتمل.

قال: وكيف جمعت يا أروبة (وكان هذا اللفظ من ألفاظه المحببة إلى لسانه) كل هذه الأزواج مما يظنه الناس مرادفات وهو مختلف عن بعضه؟

قلت: هذا هو العلم الحديث، وهو اللغة الحديثة، وهو أثر من آثار تكمية (من الكم ولنقل من باب التبسيط ترقيم )أفعال اللغة، أو هو ما يشبه ما نفعله في علوم المعلومات بتحويل النصوص إلى أرقام .

قال: كيف ذلك؟

قلت: إن ما بين ٣٠٪ و٦٠٪ متوقع يعبر عنه بلعل.

وما هو أقل من ٣٠٪ محتمل يعبر عنه بليت فحسب.

قال أستاذي: لو سمعك الأزهريون القدامى تفعل في اللغة هذا الذي تفعله ماذا تتوقع أن يفعلوا بك؟

قلت: ربما ينصبونني إماما للتجديد.

قال: أتتوقع هذا؟

قلت: نعم.

قال: وكيف تقنعهم؟

قلت: في تراثهم نفسه ما يفوق كل ما وصل إليه التفكير العلمي الحديث.

قال: مثل ماذا؟

قلت: كثير جدا.

قال: فاضرب لي مثلا لا علاقة له بالحساب.

قلت: هل تدري أن «المودة» الجديدة التي يفخر كل مرجع طبي جديد بإبرازها في صفحاته الأولي موجودة في علم الفقه الإسلامي وعلم أصول الفقه الإسلامي؟

قال: ماذا تقصد؟

قلت: ما هي الفكرة المكررة في كل المقدمات.

قال: تقصد فكرة حساسية الاختيار ونوعيته.

قلت: كان الأصوليون في القديم يحرصون على أن يكون تعريفهم جامعا مانعا.

قال: قرأت هذه العبارة كثيرا فما علاقتها بالموضوع.

قلت: «الجامعية» هي ذاتها «الحساسية» ، و«المانعية» هي ذاتها «النوعية»، فالجامعية في التعريف أن يشمل كل ما يندرج تحته، أي أن يكون حساسا لا يفوت حالة ينطبق عليها، والمانعية ألا يشمل شيئا مما لا يندرج تحته وهو النوعية.

لم يسلم أستاذي بهذه الفكرة عند سماعها ، وبدا لي أنه يظنها من شطحات خيالي، مع أني لا أتمتع بالخيال... ثم إنه أخذ يراجع فكرتي على المصطلحات الحديثة وتعريفاتها وحساباتها واضطرنا هذا إلى ورق وقلم وفتح مرجعين أو أكثر، وفي النهاية وجد كلامي

أقرب إلى العقل والصواب فانشرح صدره بعض الشيء وتنهد نصف تنهيدة وحرك إطار نظارته ثم قال: وكيف وصلت إلى هذا الاكتشاف؟

قلت: كنت أتأمل عبقرية المصطلح القديم طيلة سنوات معرفتي به وهي قليلة، فلما ظهرت هذه الفكرة الجديدة لم أجد فيها شيئا جديدا لأن الفكرة كانت في ذهني من تراث الأزهريين الأقدمين.

قال: ولهذا يكبرك هؤلاء القوم من علماء اللغة وعلماء الأزهر إكبارا لم أرهم يعطونه لغيرك عن طيب خاطر كما يفعلون معك ؟

قلت: هذا من فضل الله .

قال: أويسعدك هذا؟

قلت: بل يصيبني بالنشوة العارمة.

قال: من الآن فصاعدا فإني أنا الآخر منتش لنشوتك أو سأكون كذلك.

وقد صدق أستاذي وعده في هذه الجزئية على الدوام!

وقد تكررت تعبيراته في مواقف ربما تبدو أقل أهمية لكنها كانت عنده تمثل أهمية قصوى ونجاحا يعتد به.

أذكر أنه عقب صدور كتابي «الطريق إلى النكسة» بأسبوع واحد طلبني وسألني عن الكتاب ولِمَ لم أهده له؟

قلت: يصلك الآن.

قال: لا حاجة لي به فقد اشتريته وقرأته وعلقت عليه، وإني أري أن هذا الكتاب فتح كبير في تاريخنا المعاصر.

قلت: الفضل لأصحاب المذكرات.

قال: بل إنك قد وصلت إلى أسلوب جديد في كتابة التاريخ لن ينسى، ولم يصل إليه غيرك.

قلت: إنما هي محاولة.

قال: لكنها تبدو محاولة ناضجة تماماً.

قلت: سبقتها تجارب ناجحة في سبعة كتب مشابهة.

قال: فهمت هذا من المقدمة، ولا أنكر أني جزعت لأن ستة كتب كاملة لك قد صدرت ولم أدر من أمرها شيئاً.

قلت: لو أعرف هذا لسارعت بها إليك.

قال: لا أكلفك هذا، لكني كنت أفضل أن أعرف أخبارك منك لا من الصحف.

قلت: لكن الزمن مضى بنا سريعا.

قال: في وسعك أن تجد وسيلة للحديث عن ذاتك، وإن لم أكن أنا المستمع فمن يكون؟

قلت: إني سعيد بهذا التقدير، لكني أخشى ألا يتكرر.

قال: مادمت تخشى عدم تكراره فسيتكرر.

قلت: وويل لطالب العلم إن رضي عن نفسه.

قال: بل ويل له إن لم يرض عنها في بعض اللحظات.

***

ظل أستاذي متفضلا على شخصي الضعيف على هذا ا لنحو الغامر ، و يكفيني في هذا المقام أن أذكر أنه كان في منتهى النشوة يوم انتخابي عضوًا في مجمع اللغة العربية، وربما كانت نشوته تفوق نشوتي، وإني لأذكر أنه في ذلك الصباح الذي عرف فيه بالخبر من الصحافة اتصل بي في كل التليفونات المحتمل أن أكون فيها، وكانت عنده صفحة كاملة في الغلاف الداخلي لفهرس تليفوناته الموجود على مكتبه في عيادته سجلت له فيها أكثر من عشرة أرقام تليفونات هي كل ما يحتمل وجودي فيه حتى يجدني حين يريد كما قال هو، وقد اتصل بكل هذه الأرقام وترك رسالة تهنئة في كل منها جميعاً.

و استحلف أستاذي كل من رد عليه في كل تليفون منها أن يبلغني تهنئته ، استحلف والدتي عليها رحمة الله ، وشقيقي ، وشقيقتي ، ومساعدي في عيادتي ، وسكرتيري في مكتبي ..... ، ومعني هذا أنه تفرغ ، وهو المريض بالقلب ، أكثر من ساعة كي يثبت تهنئته المبكرة في كل مكان محتمل، فلما أدركني على التليفون وجدت مشاعر الفرحة والسرور والانتشاء والفخر مسيطرة عليه وعلى كل جوارحه ، وكأنه ارتد شابا في ذلك اليوم ، ولست أبالغ فقد أحسست صوته ينمُّ عن أن سنه قد صغر بسبب الفرحة بهذا الخبر الذي يخص تلميذا له.

أما في يوم فوزي بجائزة الدولة التقديرية ، وكان مجلس القسم مجتمعا ، فقد صمم على أن يضمن محضر مجلس القسم تهنئة أعضائه لي، رغم أني لم أكن حاضرا ، كما أنه دعا زملاءنا جميعا إلى القيام تحية لي في غيابي ، وتعبيرا عن التهنئة والسعادة.

وقد سألت نفسي في الموقفين هل سأرزق القدرة على مثل هذه السعادة في يوم من الأيام ؟ فافرح هكذا بتلميذ عذبني وعذبته! وأحبني وأحببته !

وما أظنني استطعت الإجابة ! !!

## المحتويات

******